



موسوعة الحضارة الإسلامية

المجتمع الإسلامي



أحمد شلبي

موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شؤون العقيدة ، والعبادة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية .

٦

المجتمع الإسلامي

أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه من جامعة كامبردج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٩٠

رؤية جديدة — تخطيط جديد — مادة علمية جديدة — أداء جديد



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
أصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع محمد باشا بالقاهرة

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٨ — ١٧	مقدمة الطبعة الأولى
٢٠ — ١٩	مقدمة الطبعة السابعة

الباب الأول

المسلم عند بعثة محمد

٢٣	اليهودية
٢٥	المسيحية بين الشرق والغرب
٢٧	الزرادشتية وبلاد فارس
٢٩	ماتى ونهاية العالم
٢٩	مزدك والتشيوعية في النساء والأموال
٣٠	الأديان في الصين وبخاصة الكونفوشية
٣٣	الهند: الأديان والطبقات
٣٥	الحضارة العالمية على وشك الزوال

الباب الثاني

تكوين الفرد المسلم

٣٩	تكوين الفرد المسلم بمكة :
٤١	من السيف إلى المسألة
٤٢	من القوة إلى القانون
٤٣	من النهب إلى الأمانة
٤٣	من الثار إلى القصاص
٤٤	من الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية
٤٦	من إمتحان المرأة إلى إجلالها
٤٩	من الإباحية إلى الطهر
٥٠	من نظام الطبقات إلى المساواة

- من الانزواء بالجزيرة العربية الى السيطرة على
٤٠ الفرس والروم
٥١ غرس اخلاق الاسلام في الفرد
٥٢ كيف تربى هذا الرجل المسلم

الباب الثالث

المجتمع الاسلامى في عهده الزاهر

واسس تكوينه

- ٥٦ الطوائف بالمدينة عقب الهجرة
أسس تكوين المجتمع الاسلامى :
٥٧ أولا : بناء المسجد ليكون ملقى للمسلمين
٥٨ ثانيا : المؤاخاة بين المسلمين
٦١ ثالثا : المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين
٦٥ رابعا : الشورى ووضع أسس النظام السياسى
خامسا : وضع أسس النظام الاقتصادى للاسلام :
— مبدا الملكية الفردية ٧٠ — مكانة المال ٧١ —
التقريب فى المظهر بين المتفاوتين فى الفنى ٧٣ —
المال مال الله ٧٧ — (فلا يجوز كنزه أو
استعماله فى رشوة ، أو الاسراف فى استعماله ٨٠
أو احتكار ما يلزم منه للمجتمع أو استعماله فى
ربا ٨١) مبدا حق الفقير فى مال الفنى ٨٤ —
الاقتصاد الاسلامى بين المبادئ الاقتصادية
الحديثة : الاقتصاد الاسلامى والشيوعية ١٠٨
الاقتصاد الاسلامى والراسمالية ١٠٦ —
الاقتصاد الاسلامى والاشتراكية الغربية ١١١
— لماذا يلجأ بعض المسلمين احيانا الى الشيوعية ١١٢
— ما موقف الاسلام من الشيوعية ١١٢
— الاتحاد السوفىيتى والغرب سواء بالنسبة للاسلام ١١٤
سادسا : القدوة الصنة ١١٥

- ١١٨ سابعاً : سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع .
المجتمع الاسلامى ينمو ويتسع :
في عهد الرسول ١٢٣ — في عهد ابي بكر ١٢٦ —
في عهد عمر ١٣٤ — (صور من اجتهاد عمر ١٤٢) .
- ١٥٤ غير المسلمين في المجتمع الاسلامى .
- ١٥٩ الزكاة للفقراء من المسلمين وغير المسلمين .
- ١٦٠ الجزية واسبابها ومقدارها .

الباب الرابع

تدهور العالم الاسلامى واسبابه

اولاً — العوامل الداخلية التي اضعفت العالم الاسلامى

- ١ — ضعف الدعاة المسلمين في القرون المتأخرة ١٧٥
- ٢ — الاخلاق الاسلامية بين الظهور والاختفاء ١٧٧
- ٣ — الحضارة الاسلامية بين الازدهار والانكماش ١٧٨
- ٤ — اطماع السلطة ١٧٩
- ٥ — فساد بعض الحكام وفساد اعوانهم ١٨٢
- ٦ — المماليك وحكمهم بالعالم الاسلامى ١٨٣
- ٧ — الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها ١٨٥
- ٨ — الفرق والمذاهب ١٨٨
- ٩ — اندية ومؤسسات تكيد للاسلام في غفلة من المسلمين ١٩٣

ثانياً — العوامل الخارجية التي أضعفت العالم الإسلامي

- ١٩٦ المفول والتدمير للعالم الإسلامي
- ١٩٨ الصليبيون في الحروب الصليبية
- ٢٠٠ الحركة الصليبية ضد الامبراطورية العثمانية
- ١٠٠ الحركة الصليبية خلف الحملة الفرنسية على مصر
- ٢٠١ الحركة الصليبية دفعت الاستثمار الغربي للدول الإسلامية
- ٢٠١ هل كان العدوان باسم الدين أو باسم السياسة
- صور العدوان المسيحي على الشرق الإسلامي :
- ٢٠٨ ملامح أخرى للحروب الصليبية
- ٢١٢ أوروبا والتتار والمسلمون
- ٢١٣ تركيا والغرب
- ٢١٧ بريطانيا والهند
- ٢١٩ هولندا واندونيسيا
- ٢٢٤ فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا
- ٢٢٦ اللادينية الروسية وأثرها
- ٢٢٧ إسرائيل : تزرعها الحركة الصليبية بفلسطين

ثالثاً — عوامل ضعف ينسبها بعض الناس للدين والدين منها براء

- ٢٢٩ المسلمون من الشورى للديكتاتورية
- ٢٣٠ ومن العدالة الاجتماعية للفروق الاقتصادية الحادة
- ٢٣٠ رسول زاهد ورؤساء جشعون
- ٢٣١ من التطور للجمود
- ٢٣٢ الإسلام دين كل زمان ومكان

الصفحة	الموضوع
٢٤١	الاسلام وحاجات الناس
٢٤٤	مراحل الانتحار نحو اجل باب الاجتهاد
٢٤٩	دراسة المادة لا الروح في السمات والمعاملات
٢٥٧	فقهاء العصر الناصر يثأرون بجهود فقهاء عصر الظلام
٢٦٧	مقاومة الاصلاحات العلية باسم الدين :
٢٦٨	مقاومة الاصلاح في تركيا ابان الخلافة
٢٦٩	الاخوان في السعودية
٢٧١	في مصر
٢٧٢	حرمان المرأة من العلم :
٢٧٣	البدع والخرافات
٢٧٤	تكفير المخالفين في الاتجاه الفكري
٢٧٨	تحويل المذاهب بالتعصب من نعمة الى نقمة
٢٨٢	تشبث بالتقديم
٢٨٥	ضلالات عقائدية أضعفت العالم الاسلامي :
٢٨٦	معين الدين شيبسى وباب الجنة
٢٩٠	القاديانية والأحمدية
٢٩٧	دراسنى فى الأزهر

الباب الخامس

الطريق الى الاصلاح

٣١٥	مقدمة
٣١٦	أبرز الأسس للإصلاح :
٣١٧	أولا - إعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة
٣٢٣	ثانيا - أسس تكوين المجتمع الإسلامى وأحياؤها
	ثالثا - القضاء على الأسباب التى أدت لضعف العالم
٣٢٥	الإسلامى

الموضوع

الصفحة

رابعا - الاصلاحات العلمية :

٣٢٨	العلوم العقلية :
٣٣٠	نهضة أوروبا مدمرة .
٣٣٢	العلوم الشرعية :
٣٣٦	الدين للبشر .
٣٣٨	التقريب الثقافي بين بلدان العالم الاسلامى .
٣٤٠	خامسا - جامعة الدول الاسلامية .
٣٤٥	ما المقصود بجامعة الدول العربية .
٣٥٢ - ٣٤٧	نيت المراجع .

مقدمة أنطبعة الأولى

من المفارقات التي يلاحظها المشتغلون بالدراسات الإسلامية ، تلك الهوة الشاسعة بين مبادئ الإسلام وفلسفته وأخلاقه وحضارته من جهة ، وبين واقع أكثر المسلمين من جهة أخرى ، وطالما زلّ كثير من الناس لأنهم أرادوا أن يأخذوا الإسلام من أخلاق المسلمين وأحوالهم ، وطالما تجنّى كثير من الناس على الإسلام لأنهم ظنوا واقع المسلمين مظهراً من مظاهر الإسلام .

وهذا الكتاب مقارنة واضحة تشرح النظريات الإسلامية سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية من جانب ، وتشرح حال المسلمين من جانب آخر ، وتبحث عن الأسباب التي جعلت الكثيرين من المسلمين يضلون الطريق ، فيتركون أخلاق الدين الذي انتسبوا إليه ، ويأخذون أخلاقاً وصفاتٍ هي أبعد ما يكون عن ذلك الدين ، فهذا الكتاب إذا وصف لما هو كائن وما يجب أن يكون .

ومن أعجب الأسباب التي قادت إلى هذه النتيجة القاتمة ، أن الدواء انقلب داءً ، وأن الطبيب الذي يترجى البرء على يديه أصبح مصدراً من مصادر الآلام والألّين ، كما سنرى في موقف بعض المصاهد التي خصّصت للدراسات الإسلامية ولكن روح الإسلام اختفت منها ، وكما سنرى كذلك من مواقف بعض رجال الدين الذين كان يجب أن يكونوا مصدر إلهام ، ولتفهيم ، وللإرشاد ، أماعوا فهم الإسلام فانتفوه وسبّاهة لتقاومة الإصلاحات السياسية والاجتماعية .

وسيدرك القارئ مقدار الجهد الذي بذل في هذا الكتاب ، فهو رحلة طويلة من جهة الزمان ومن جهة المكان ، إنه :

أولا : يتبع الإسلام : المسلمين منذ انبثق الاسلام حتى العهد الذي

نعيش فيه •

وثانيا — يطوف بالعالم الإسلامي في مختلف أقطاره •

وثالثا — يعالج مشكلاته الحاضرة ويدلى بأحدث الآراء لبعضد

العالم الاسلامي في نضاله الذي يقوم به ليتغلب على الداء ، وليبنى حاضره

ومستقبله على أساس متين •

يارب ، حقق النفع بهذا الكتاب ، واجعله خالصا لوجهك الكريم •

دكتور أحمد شلبي

الأستاذ بالجامعة الإسلامية باندونيسيا

جوكجا كرتا (اندونيسيا)

وهدير المركز الثقافي العربي بجاكرتا

في الثالث من يوليو سنة ١٩٥٨

مقدمة الطبعة السابعة

يسرنى فى تقديم الطبعة السابعة لهذا الكتاب - أن أنحنى إلى الله واهب النعم شاكرًا عونهُ وتوفيقهُ ، وأن أثنى على قرائى الأَعْزَاء الذين فاق إقبالهم كل حدود ، فدفعونى بذلك إلى المزيد من الإجابة والصبر على العمل .

والمحاولة الحاسمة لإجابة العمل والصبر عليه تنتضح فى هذا الكتاب أكثر جدًا مما تنتضح بسواه ، فالذى يقرأ هذه الطبعة ويقارنها بالطبعات السابقة سيدرك مدى الصناء الذى تحمَّلتُهُ لإخراجها ، وسيحس أن هذا الكتاب قد كُتِبَ من جديد ، برؤية جديدة ، وتخطيط جديد ، وأسلوب جديد ، وقد شمل هذا التجديد أكثر أبوابه وأهم بحوثه فقد حذفَتْ منه ، وأُضِفَتْ إليه ، وعدَّلتْ فى تخطيطه ، ليكون أصدق تعبيرًا عن موضوعه ، وكان ذلك العمل نتيجةً للكثير من الاطلاع وزيارات البلاد الإسلامية ، فمثل هذا الكتاب لا يعتمد فقط على المصادر والمراجع ، وإنما يحتاج إلى الاتصالات المباشرة بالشعوب الإسلامية ودراسة أحوالها ، وقد أتيج لى من ذلك الشيء الكثير فى الفترة السابقة ، فجمعت صدى ذلك يظهر فى هذا الكتاب .

وبعمون الله وتوفيقه ، وبتشجيع القارئ الكريم قد كملت

« موسوعة النظم والحضارة الإسلامية »

وظهرت أجزاءها العشرة تُبْرَز الحضارة الإسلامية الأصيلة التى جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كراى الإسلام فى السياسة والاقتصاد والتربية والتعلِيم والعلاقات الدولية والمرأة والرق وغيرها كما تُبْرَز الحضارة التجريبية التى كانت موجودة قبل الإسلام ، وضعفت

واختفت قبل الاسلام ثم أحيها المسلمون وأضافوا اليها كالتب والريضة
والفلك .. وهو عمل نشكر الله عليه ونحنى لله لنجاحه •

وبعد ، لعلى أدبت واجبى تجاه الحقلى الذى تخصصت فيه ، وانى
أعلن استعدادى لقبول أى توجيه علمى رشيد قد يحسن من أعمالنا
العلمية ، أو يمنع خطأ قد نكون وقعنا فيه •

والشكر لله واهب النعم والتحية الخالصة للقارىء العزيز •

أ • د • أحمد شلىبى

فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٨٥

الباب الأول

العالم عند بعثته محمد

أحاط بالبشرية ظلام حالك تبيل، بعثة محمد ، كان ظلاماً مُطْبِقاً ؛ وليلا طويلا ، نشطت فيه الترهات ؛ وانزوت الأفكار السليمة ، ودبَّ الجهل ، وانكش العلم ، وعم اليأس ، وقلَّ الأمل ، وأوشكت الانسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تنتردى في هوة سحيقة هي إلى عالم الحيوان أنسب .

تعال بنا نَجَلِّ جولة سريعة نصورُ فيها حياة الجنس البشرى آنذاك :

اليهودية (*) :

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله ، وأرسل منهم لهم عدةً من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعة أكثر بنى إسرائيل كانت إلى الشر أميل ، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق ، واستمرعوا الفجور ، وأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من الاعتداءات الأثيمة ، دونتها كتبهم المقدسة ، وصوَّرها القرآن الكريم بقوله « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (١) . وانتمم الله لأنبيائه ورسله من ضلالة بنى إسرائيل ومن نسلهم الذين يطعم الله أنهم سيسيروا كأسلافهم طغيانا وسوء سيرة ، فجعلهم هدفاً لى ينزلُ بهم العذاب المهين إلى يوم الدين « وإذْ تأذّن ربك ليهتن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب (٢) » .

ولم يستطع أنبياء بنى إسرائيل أن يحملوا الهداية إلى أكثر هذه القلوب الخلف ، وكان من اهتدى من بنى إسرائيل يسرع إلى العودة إلى الضلال ، فقد كانت نفوسهم تهفو للعمى ، وتتفر من الرضوان والهداية . ونقص علينا الروايات خبر أولئك الذين اتبعوا موسى من بنى إسرائيل

(*) عن اليهودية اقرأ كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف .

(١) سورة المائدة الآية ٧٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

وأنجاهم الله به مما أنزل فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارهم أصتاهم "لقوم يعكفون عليها ، فيقولون لنبيهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة (١) .

ويدعهم موسى في رعاية أخيه هرون ، ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهدى ، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكون من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بثسما خلفتموني من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم ، وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين » (٢) .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله لهم الرحمة ، فاختار سبعين رجلاً من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة (٣) » .

تلك صور من ضلالات بنى اسرائيل في حياة موسى وفي حياة هرون ، أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى يقتلون فيها النبيين ويحرفون الكلم عن مواضعه ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية

(١) سورة الاعراف الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الاعراف الآيات ١٤٨ - ١٥٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٥ .

يقدمها رجل من بنى اسرائيل الى الجنس البشرى أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة .

وفي كتابنا « اليهودية » تفصيل لمن أراد مزيداً من الدراسة عن اليهود .

المسيحية بين الشرق والغرب (✽) :

وجاءت المسيحية وقد تكالب اليهود على المسادة ، ورأوا فيها كل مقومات الحياة ، وتفنونوا في خلق الطرق للحصول على المال وتنميته ، شرب مبالغ بالوسائل التي يصطنعونها لنجاحهم في ذلك ، فهانت بهذا القوي الروحية والمثل العليا ، فانجحت المسيحية لمعالجة هذا الداء ، واتجه السيد المسيح عليه السلام الى الدعوة للصفاء الروحى والرحمة والتسامح والزهد . وخلت المسيحية إلا من لمحات ضئيلة عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تكاد تذكر ، وآولى المسيح عنياته لتطهير النفس والروح ومحاربة الجسم والمال ، ومما أثيرَ عنه في ذلك قوله :

— سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخرك بجلا واحداً فاذهب معه اثنتين (١) .

— لا تقدرّون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون (٢) .
— يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (٣) .

(✽) عن المسيحية اقرأ كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس : الفقرات ٣٨ — ٤٠ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس : الفقرة ٢٥ .

(٣) انجيل متى : الاصحاح ١٩ الفقرة ٢٣ وانجيل لوقا : الاصحاح

١٨ الفقرة ٢٠ .

كان هذا هو اتجاه المسيحية في الشرق : العمل على تطهير الروح وتقوية الصلة بين الانسان وخالقه ، أما تنظيم الحياة الدنيا وإحكام الصلة بين الفرد والفرد ، فلم ينل من المسيحية عناية تذكر ، وعبرت هذه الديانة من الشرق الى أوروبا فواجهت هناك — مع تجردها من المادة — أناسا شغلته المادة ، ولا تكاد تنقطع عندهم الحروب وحملات السلب والانتقام ، ولما اعتنقها هؤلاء أو بعضهم ، لم يجدوا فيها عناصر كافية لتنظيم حياتهم المادية ، فاتخذوها وسيلة لصلة العبد بربه ، وبقيت صلة الفرد بالفرد خاضعة للقانون الأرضي الذي يضعه البشر .

وعلى هذا اتخذت المسيحية ثوب الزهد والتسامح وقنعت بهما ، وكان شعارها « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، واتجهت بكلّيتها إلى التطهير الروحي والتهديب الوجداني ، وصاغت نفسها على أساس أن الدين صلة ما بين العبد والرب وأن القانون صلة ما بين الفرد والدولة .

غير أن ذلك لم يمتنع رجال الدين في بعض العصور ، فكثير منهم عشقوا السلطة والنفوذ ، وعشقوا أن يدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة ، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة ، ولكن تدخلهم في الحياة العامة أثار ثائرة الملوك والأمراء ، وقام نزاع بين هاتين القوتين ثم تمّ الوفاق بينهما على حساب الدهماء ، فأخذت الكنيسة سلطة بيع صكوك الغفران وإصدار قرارات الحرمان ، وأصبح الملوك سادة يملكون الأرض ويملكون رقيق الأرض .

وقبيل بعثة محمد خبا ضوء الطهر والزهد من المسيحية ، بما دخل عليها من خرافات وأباطيل حتى أصبحت ديانة رثنية . ويقول Salo العالم الانجليزي عن نصارى القرن السادس الميلادي « أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية ، وجدّ خلاف من طبيعة المسيح وما إذا كانت مزوجة أو إلهية تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كما تتلاشى قطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له » .

حذا فيما يتعاقب المسيحية ، أما غير الدين من المشئون في الغرب فقد كان مندهوراً إلى أبعد غاية ، لقد كان نظام الإقطاع سائداً ، وفي ظلّ الإقطاع كان هناك أمراء وعبيد ، فالأمراء يملكون الأرض ورقيق الأرض ، والعبيد يعملون دون أن تكون لهم حقوق أو يقام لهم وزن ، وكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين هؤلاء الأمراء بعضهم والبعض الآخر ، وبذلك كانت أوروبا تعيش في ظلام دامس في جميع نواحيها تقريباً .

الزرادشتية وبلاد فارس :

الزرادشتية عقيدة الفرس قبل الاسلام ، وتنسب الى مؤسسها « زرادشت » وقد انتشرت الزرادشتية في شرقى ايران القديمة « بكتريا افغانستان » ثم امتدت غربا حتى ميديا . « اذربيجان » ثم أصبحت الديانة الرسمية للإيرانيين في ظل الدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث ق م واستمرت دينا للإيرانيين حتى ظهرت الدعوة الاسلامية وغزت ايران ، وقد بقيت الزرادشتية عقيدة الأقلية الفارسية حيناً ، ثم هاجر أتباعها الى الهند وعرفوا بالپرسيين ، وخلت ايران منهم .
ذلك هو الجانب التاريخى للزرادشتية .

أما عن جانب العقيدة فاننا نذكر أن بلاد فارس كانت حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعى في الأديان ، أى كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال ، وجاء زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق ، م) مصلحاً اجتماعياً ، اتجه في تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، فأدمج في ديانته طائفة من المعبودات الفارسية القديمة بعد تهذيبها . وانتهى به التفكير الدينى الى القول بالهين أو مجموعتين من الآلهة ، المجموعة الأولى آلهة خيِّرة على رأسها « أهورا مازدا » والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعمها « أهرمان » والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر في الحياة ، ذلك النضال الذى لا ينتضى الا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير فيَهْزِمُ « مَازدا » « أهرمان » .

وكان عنصرى الخير والشر يبرزان عند الزرادشتية فى صور مـأدبة متعددة ، فالخير يتمثل فى النور والنار والهواء والماء ، وفى بعض الحيوانات المفيدة للإنسان كالأغنام وكلاب الحراسة ، ولهذا اتجهت الزرادشتية لتقديس هذه الأشياء وحمايتها ، أما الشر فكان يتمثل فى الظلام وفى الحيوانات المفترسة والحشرات الضارة ، واهـذا ألزمت العقيدة ضرورة التخلص منها •

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة ، وفيه ثنوية ، ولكن كثيرا من الباحثين يعدون الزرادشتية دين توحيد • لأن ما زدا سيكون وحده فى النهاية بعد أن ينتصر على آلهة الشر •

ورمز زرادشت لما زادا ببعض المواد الصافية كالنار ، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب ، حيث ينتهى المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم •
انحراف الديانة الزرادشتية :

تلك هى الخطوط الرئيسية فى مذهب زرادشت ، ولكن تعاليم زرادشت انفارت بعده ، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها ، كما اتجه الفرس الى النار يعبدونها ويرونها إلهآ ، ويستعملونها فى شعائرهم الدينية منتاسين أنها كانت فقط رمزا للصفاء ، حتى أصبحوا يعرّفون بأنهم عبدة النار ، وقد أتاح هذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الدينى قبل زرادشت أن يظهروا من جديد كواسطة بين الناس وبين الآلهة وكمسيطرين على وسائل التطهير ، وكوسائل لإرضاء الآلهة ، وسرعان ما أحيأ الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل ، كعبادة الأصنام وتقديم القرابين وبخاصة للإله « مترى » الذى أصبح أبرز الآلهة ، بعد أن كان فى الزرادشتية أقلها شأنآ •

اختفاء الزرادشتية الأصيلة :

ولما غزا الإسكندر المقدونى فارس فى أواخر القرن الرابع ق م ت الزرادشتية ، وظلت مختلفة مدة خمسة قرون ، فلما قامت الدولة الساسانية حاول هؤلاء العودة الى الزرادشتية باعتبارها جزءا من تراث

فرس الجيد ، واخر الزرادتسية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت ، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة .

مانى ونهاية العالم :

وفي أواخر القرن الثالث المسيحي ظهر « مانى » فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشهوة ، فاختط طريقا يحارب به هذه الشهوة .الجامعة ، فنادى بحياة العزوبة ، وحرّم النكاح رغبة فى قطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتله بهرام سنة ٢٧٦ م قائلا : إن هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه ، وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده الى ما بعد الفتح الإسلامى .

مزدك والشيوعية :

وظهر مزدك سنة ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستاني (١) ، « أهل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة . بل أيدها القصر الامبراطورى « ويقول الطبرى (٢) « كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباز على تزيين ذلك ، وتوعده ان رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا الولود آباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » .

ما أقسى ما عانى الفرس قبل الاسلام من انحرافات تَرَكَتْ فى كثير من الأحوال طابعها على مرّ الأجيال .

(١) الملل والنحل ج ١ : ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ : ص ٨٨ .

ملوك فارس والدم الإلهي :

و ادعى ملوك فارس ان دماً إلهياً يجري في عروقهم ، وأن في طبيعتهم عناصر عثورية مقدسة ، وصدق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم .

وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الايراني بطبقاته الكثيرة التي تقصوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها ، وكان كل انسان في طبقة لا يستطيع أن يتعداها الى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة أو تجارب معينة (١) .

هذه هي بلاد فارس بما حوته قبل الاسلام من أعاجيب وانحرافات ، انعكست أحيانا للأسف الشديد على بلاد فارس بعد الاسلام

الأديان في الصين :

شهدت الصين في القرن السادس قبل الميلاد حكيمين شهيرين هما « لاعتسى » الذي ينطق اسمه أحيانا « لوتس » و « كونغ فوتسى » الذي ينطق « كونفوشيوس » ، وأولهما أسنذ بحوالى خمسين سنة تقريبا ، وقد تقابلا وكان « لاعتسى » في شبابه وتدارس الثاني مع الأول بضع شبكات ، ولكن كان لكل منهما اتجاه ، فافترقا ، فقد كان الأول داعية قناعة وزهد وتسامح مطلق ، دعا إلى مقابلة البسيطة بالحسنة ، على نحو ما نسب للمسيح فيما بعد ، أما « كونغ فوتسى » فكان يدعو إلى العدالة والاستقامة ، ومقابلة السيئة بمثلها ، ومذهب الأول يعرف « بالتاوية أو الطاوية » أما مذهب الثاني فيعرف « بالكنفوشية » وهو أكثر انتشارا وذيوعا في الصين .

تلمذة عن الكونفوشية :

كونفوشيوس سنة ٥٥١ وتوفي سنة ٤٧٩ ، قم وقد توفي أبوه

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٣ .

وهو طفل صغير ، وكان كونفوشيوس ذكيا موهوبا ، فتطلع الى العلم ، وحصل منه قدرا كافيا ، ثم اتجه لنفسه يهدبها ، ففضده أن أحسن العلم ما أصلح حال صاحبه ، وشغل حيننا بالوظائف الحكومية ، وخلال هذه المدة عرف كثيرا من التجارب التي ساعدته على تفهم ما حوله من حقائق وانحرافات ، فوجد أن من الخير له ولوطنه أن يتفرغ للدعوة لأفكاره ، واتخذ من حياة الصالحين والحكماء الأثمة دميّن طريقا يعتنقه ويدعو له ، فذلك يقود الى الحياة الأمثل .

وتكوّن حوله مجموعة من المريدين الذين اعتنقوا اتجاهاته وتحمسوا لها ، ووضعوا نظاما أخلاقيا وسياسيا رأوا أنه يتّود للسلام والخير البشرية ، ومن أهم مبادئ هؤلاء ما يلي :

— ينبغي أن تعامل مرء وسيك على النمط الذي تحب أن يعاملك به رؤساؤك ، وقد شاعت هذه القاعدة فأصبحت تمثل نقطة مهمة في البناء السياسي .

— الطاعة الكاملة من الأبناء للآباء وللأسرة ، وكان هذا المبدأ داعيا للترابط العائلي .

— طريق الوسط هو الأسلم ، حتى يبعد الانسان عن التهاون وعن التطرف .

— اتخذت الكونفوشية تعاليم رئيسية لها هي : العلم الغزير ، والسلوك الحسن ، والطبيعة السمحة ، والعزيمة القوية ، وأعلنت أن هذه المبادئ كلها تنصوي تحت العدالة .

وهكذا بدأت الكونفوشية اتجاها خلقيا ، وكانت حركة اصلاحية ، وظلت كذلك زمتا وبخاصة أن مؤسسها لم يدّع النبوة ، ولا قال بأى اتصال إلهي ، ولكن الاجيال اللاحقة دفعتها لتكون دينا بين المعتقدات التي انتشرت بالمنطقة في الصين واليابان وكوريا كالطاوية البوذية .

وفي عصر أسرة سانج (٩٦٠ - ١٢٧٩ م) تطورت الكونفوشية بواسطة أتباعها ، واتجهت للاهتمام بالتقدم عن طريق اكتساب المعرفة ،

وكان ذلك الاتجاه يخالف اتجاهات الأديان المعاصرة بالمنطقة ، فقد اتجهت هذه الأديان الى التأمل والهدوء ولم تُعْنِ بالنشاط والحركة .

عادات صينية قديمة اختلطت بالكونفوشيوية :

وكان كونفوشيوس شديد التأثر بمعتقد قومه الأقدمين ، فاتجه مثلهم الى عدم القول بالجنة أو النار والعقاب والثواب ، ولم يدرس مشكلة ما بعد الموت ، معلنا أن مشكلات الحياة يصعب فهمها ، فكيف بمشكلات ما بعد الحياة ؟

وكان الصينيون القدماء يربطون بين الأحداث الكونية ، وبين أخلاق الملوك وأخلاق الشعوب ، فالعواصف والفيضانات والزلازل والأوبئة وما مائلها ، ليست عندهم إلا عقابا لانحراف الأشرار وانحراف الناس ، وقد تبني كونفوشيوس هذه الفكرة .

وكان كونفوشيوس ككل صيني تخيفه الأحداث الكونية ، فهو يرتجف من قصف الرعد ، وعصف الرياح ، وهطول الأمطار ، وكسوف الشمس وخسوف القمر ، وهو يقابل ذلك بالتعاونيد والقرايين ، يحاول بها أن يقى نفسه شهور هذه الأحداث .

تأليه كونفوشيوس وعبادة الأرواح :

قلنا أننا إن كونفوشيوس لم يدع النبوة ، ولا قال بأى اتصال إلهي ، ولم يكن غير مصلح اجتماعي .

وكانت أفكاره حقا حافلة بالدعوة للخير والرحمة والاخلاص وأداء الواجب ، ولكن الصينيون من بعده انصرفوا بهذه الدعوة الخيرة واتجهوا إلى كونفوشيوس بينون له الهياكل ويعبدونه ، ويسجدون أمام تماثيله . هذا ، شاعت بالصين قبيل الاسلام عبادة الأرواح وخاصة أرواح الآباء والأجداد ، إذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها .

عن العادات المسيحية :

والنصينيون يحبون كثرة النسل ، ولكنهم يمجّدون الذكور ، وعندما ييثر أحدهم بأبن يعلّق القوس والنشاب على الباب ، دليل مولد الذكر الذى يحمى العشيرة ، ويزود عنها الردى ، أما إذا بشرّ بأنثى فإنه يعلّق على بابه مغزلا دليل الخنوع والتضعف .

البوذية فى الصين :

ومن أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين قبيل ظهور الإسلام ، الديانة البوذية ، وكانت البوذية فى ذلك الحين قد فقدت بساطتها ، وتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتتصب تماثيل بوذا حيث حاكّت ونزلت ، يقول الأستاذ اتريا « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة بوذا ما يلى « لقد أُلصقت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما . لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها » .

الهند :

يقول السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى وكيل ندوة علماء الهند ما يلى : اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانةً وخلقاً واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن . وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليوناً ، وقد أصبح كل شىء رائج ، وكل شىء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر ، وأرُبت على العد ، فمنها أشجار تاريخية ،

وأبطال تمثل فيهم الله ، وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة تحمل سرّ الألوهية ، وأنهار ، وآلات حرب ، وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها البقرة ، وغير ذلك ، وقد ارتفعت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق هذا العصر في ذلك جميع العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها ، وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصلوك على عبادة الأوثان .

وظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صورة ، فقد ازدهرت في الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووُضِعَ فيها مرسومٌ جديد للمجتمع الهندي ، وألّف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » ويقسم هذا القانون السكانَ أربع طبقات هى :

- ١ — البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين .
- ٢ — الكستريا : وهم رجال الحرب .
- ٣ — الوشيا : وهم التجار والصناع .
- ٤ — الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة . فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق ، وما ملكتهم ما فى العالم لأنهم أفضل الخلاق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبدهم الشودرا ما شاءوا ، لأن العبد وما ملكه يداه لسيده (١) .

العرب :

في صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبودية لئاة واللات

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ — ٤١ وكتاب أديان الهند الكبرى للهؤلف .

والعزى ، وفي هروب لا تنتقطع ، وغارات لا تهدأ كان يعيش العرب قبل الاسلام ولعل أدق تصوير وأخصره لحالة العرب في الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله هذا عن دين الاسلام والرسول محمد ، قال جعفر (١) : أيها الملك ، كتب قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف (٢) .

العالم قبيل شروق الاسلام :

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق شمس الاسلام ، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ دينسون Dinson (٣) بقوله :

في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد كان العالم المتمدين على شفا

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) يرتبط هذا الكلام الذى قاله جعفر بن أبى طالب بأحداث رأيتها نفسى في إحدى البلاد الاسلامية غير العربية . أو قل ان هذا الكلام يتخذ اساسا لادعاءات ضد العرب وضد الاسلام . فهناك بعض متوسطى الثقافة لا يحبون العرب ولا يحبون الاسلام . وربما دفعهم هذا الاحساس الى مهاجمة العرب ومهاجمة الاسلام وهم يتخذون من كلام جعفر بن أبى طالب وسيلة فيصورون العرب بهذه الصورة البشعة التى رسمها جعفر . ويحقرون بذلك العرب والدين الذى نزل على واحد منهم .

وموقف هؤلاء لا يستحق دماعا فيما أظن . فهو ليس الا تقصيا في الثقافة ، ولو فكر هؤلاء قليلا لروا كيف كانت تعيش بلادهم في ذلك الوقت السحيق وكيف كانت تعيش أوروبا ، وما نسميه الآن أمريكا واستراليا . لو فكروا كذلك ، لو وجدوا ان العرب كانوا اشرف حالا . لقد كان العرب يأكلون الميتة أى الحيوانات التى لم تنبح ذبعا حلالا ولكن كان سواهم يأكلون لحوم البشر . وكان العرب يأتون الفواحش ولا يزال سواهم ممن يدعون المدنية يأتون الفواحش جهارا حتى اليوم . وكان العرب يسيئون للجار ولا يزال سواهم يسيء للجار ولغير الجار .

ثم هل يعيننا أن العرب كانوا كذلك قبل الاسلام ؟ اننا نثبت ذلك لنرى كيف تغيرت أحوالهم بعد الاسلام . ذلك الدين الذى نظم أمور الدين وأمور الدنيا .

جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة ، قد انهارت ، ولم يك ثَمَّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة متفرقة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ التباثل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النشليم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهياب بدلا من الاتحاد والنظام ، وبهذا صارت المدنية التي كانت كشجرة ضخمة منفرعة ، امتد ظلها إلى العالم كله ، صارت واقفة تترنخ ، وقد تسرب إليها الدطب حتى اللباب .

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ، وبس الرجل الذي كان خير دواء لهذا الداء .

الباب الثاني

تكوين الفرد المسلم

كيف تكون محمد أول مجتمع إسلامي

جاء محمد صلى الله عليه وسلم والعالم كما وصفنا ، وكان ظهوره في جزيرة العرب القاحلة الجرداء ، التي قلت فيها الحضارة والرقي وكثرت الحروب والغارات ، جاء عليه السلام فكوّن في هذا المجتمع ، وفي الجزيرة المتنافرة أول مجتمع إسلامي • كيف كونه ؟ وما مظاهر ذلك المجتمع ؟ وينبغي قبل كل شيء أن يتضح أن المجتمع الاسلامي الأول تكوّن في المدينة لا في مكة ، فقد كان المسلمون قبل الهجرة قلة بمكة يعيشون فيها أحيانا ، ويهاجرون منها فرارا بدينهم أحيانا أخرى ، فلم يكونوا من القوة ولا من العدد بحيث يكونون مجتمعا ، وعلى هذا فلم تكن مكة هي المدينة الاسلامية الأولى ، وانما كانت يثرب هي المدينة التي تكوّن بها أول مجتمع إسلامي •

وفي الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي قدمت الكثير من التفاصيل عن جهود الرسول صلوات الله عليه بالمدينة ، تلك الجهود التي شملت الرسول كداعية ومثرب^١ للدعاة ، ووصفت حياة الرسول بين أصحابه ، وبيّنت موقف الرسول من الشباب ، ومن العمل ، ومن تربية الولاة ، والقضاة ، وغيرها من الموضوعات المهمة (١) •

تكوين الفرد المسلم بمكة

شيء مهم جدا بدأ في مكة : ذلك هو تكوين الفرد المسلم النذى منه تتكون فيما بعد المجتمع الاسلامي بالمدينة ، وتكوين الفرد المسلم الذي بدأ في مكة عملية مهمة جدا في التاريخ ، وانه لمن أبرز الأهداف التي حققها الاسلام بل حققها بسرعة هو تحويل الرجل العربي الى رجل مسلم ، وليست المسألة أن العربي أصبح مسلما ولكنها أعمق من هذا بكثير ، لأن

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٢٧٤ — ٤٤١ (الطبعة

الثانية عشرة) .

الاسلام غير الشخص الربى تغييرا شاملا حتى كأنه خلقه خلقاً جديداً
ولإيضاح ذلك نثبت المقارنة الدقيقة التالية :

من الوثنية إلى التوحيد :

فالرجل الذى كان يسجد لغير الله ، ويعبد اللات والعزى ومناة ،
ويقدم لها القرابين ، ويطوف بالكعبة مردداً :

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى
فانهن الغرائيق العلى وإن شفاعتن لترتجى

هذا الرجل ينقله الاسلام فى هذا الباب مرحلة واسعة ، فيجعله يؤمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإن الإنسان ليحس بدهشة بالغة عندما يفكر فى ذلك الموضوع ،
فقد كان العربى فى عبادته منغمساً فى المادة ، يفتد الى اللات والعزى ومناة
من مختلف البقاع ، ويحدث هذه الآلهة ، ويطلب منها ، ويقدم لها القرابين ،
كيف استطاع بسرعة أن يترك هذا الإله وأن يهدمه بيده ، ثم يتجه فى
عبادته الى إله لا يراه كما كان يرى الأصنام ، ولا يكلمه كما كان يكلمها

إن عبادة المادة ترتبط بحاجات الناس ، وقد عبد العربى اللات موقناً
أنها تنفحه وتضره ، ومن الممكن أن يدع الإنسان عبادة شىء مادى ليتحول
إلى شىء مادى آخر ، يرى نفعه أعم وأشملاً ، كالحقصة التى أوردتها القرآن
الكريم : « فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربى . فلما أقل قال : لئن
لم يهدنى ربى لأكون من الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال :
هذا ربى هذا أكبر . » (١) ولكن التحول الذى أحدثه الاسلام فى العربى
شدها واسع جداً ، لقد نقله من المادة كلها الى عبادة الله الواحد الأحد ،
ونزلت حساسية العربى وسمت نفسه فلم يعد يفكر فى المنفعة العاجلة ،

(١) سورة الأنعام الأيتان ٧٧ - ٧٨ .

ولم يعد يقنع بأن ضوء الشمس وحرارتها كافيان لجعل الشمس إليها يُعْبَدُ
فما بالك بحجر ينحته بيدد وينصبه بقواه •

على أن إيمان العربي بالله وصل الى درجة عالية من العمق ، وصلا،
الى درجة الحب والتفانى ، فقد رأينا العربي يدافع عن الاسلام بحماسة
بالغة يرجو بها أن يصل الى إحدى الحسنين ، أن ينتصر فينتشر دين الله
وينال رضاه ، أو يموت فيلقى ربه ويحظى بقربه ، وقد رؤى أن عبد
ابن الحمام كان يحارب قريشا مع المسلمين في غزوة بدر ، فأحس بالجوع ،
فاعترل المعركة ليأكل ، وأخرج من جرابه بكَحَاتٍ يهدىء بها ثورة الجوع ،
فسمع وهو يأكل قارنًا يتلو قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدأ عليه
حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا
ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (١) ، ولما سمع عمير هذه
الآية الكريمة تاق للقاء ربه ، والتمتع بالجنة التى عرضها السموات
والأرض ، ونظر الى البلح الذى وضعه أمامه وقال : كيف يشغلنى هذا
البلح عن لقاء الله ؟ لئن حبيت حتى آكله إنها لحياة طويلة • وألقى البلح
عنه ، وأسرع الى المعركة يخوض غمارها ، ومازال يقاتل فى سبيل الله
حتى قتل (٢) •

من السيف إلى المسألة :

والرجل الذى كان يحكم السيف فى أموره دون تفكير ، وينصر أخاه
ظالماً أو مظلوماً ، أصبح هادىء الطبع لا يدافع حتى عن نفسه إذلاً
اعتدى عليه ، فالتاريخ لم يسجل حادثة واحدة دافع فيها مسلم عن
نفسه بمكة ، وكان رائدهم فى ذلك الرسول صلوات الله عليه ، فلقد أودى
بالوان من العنت دون أن يرد عن نفسه أذى بأذى وأوذى أصحابه

(١) سورة التوبة الآية ١١١ •

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٨٨ •

ولأتباعه حتى مات منهم تحت العذاب من مات ، دون أن يقابلوا اعتداء باعتداء أو صفة بصفة ، حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة ، وبالذفاع عن أنفسهم بقوله « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (١) فهل كان من الممكن أن نتوقع هذا أو ما يقرب منه من العرب في الجزيرة العربية وهم الذين كانوا يشعلون حربا تدوم عشرات السنين لأتفه الأسباب ؟

من القوة الى القانون :

وكان العربي يرى في القوة دستوره ورائده ، وكان يحترمها ويجلها ، يخضع لها ويخضع غيره بها ، كان يستطيع أن يهجم على الرجل يسير مع زوجته أو ولده فيحاربه ، فان غلبه أخذ منه متاعه وأهله ، وليس للمغلوب أن يشكو ، لأن المهاجم استعمل سلاح القوة ، وهو عندهم قانون وشريعة .

وجاء الاسلام فشرع النظم ووضع القوانين ، وألزم المسلمين اتباعها والخضوع لها ، ودان المسلم للحق وأصبح القانون دستوره والعدالة رائده ، وما كان له إلا أن يتبع ذلك بعد أن امتلأ سمعه وقلبه بقوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » (٢) « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٣) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤) . وقد لخص أبو بكر هذا الدستور الجديد في خطبته التي افتتح بها خلافته حيث قال : الضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه .

-
- (١) سورة الحج الآية ٣٩ .
 - (٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .
 - (٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .
 - (٤) سورة النساء الآية ٦٥ .

التهرب الى الامانة :

وكان العربى يعيش حيت السلب والنهب والعدوان ، وقد سبق أن ذكرنا أنه بالقوة كان العربى يأسر العربى أو يأخذ أهله ، أما المال فكان أقل شأنًا بطبيعة الحال ، وكان نهبه فى جنح الظلام أو فى وضح النهار عملاً عادياً لا يمنعه الا شدة الحراسة ويقظة الحراس ، بل وجدت فى الجزيرة العربية طوائف تحترف النهب وتعيش عليه هى جماعات الأعراب •

ماذا أخذت الإسلام بالإنسان العربى فى هذا المجال ؟

لقد أصبح خُلُقُ الأمانة بعض كيان المسلم ، فلقد روى أن أحد جنود المسلمين عثر على تاج كسرى عقب هزيمة الفرس فسلمه لصاحب الغنائم دون أن يطلع فيه أو يأخذ منه جوهره تكفل له الغنى ، وروى الطبرى قصة أخرى من هذا النوع قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الغنائم أقبل رجلٌ ومعه حَقٌّ من الجوهر الفريد ، ودفعه الى صاحب الغنائم فِعجب صاحب الغنائم ومن معه من ذلك الحَقِّ وقالوا : ما يعمله كل ماجمعنا اليوم • وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به • فقالوا : من أنت ؟ فأجاب : والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى ثوابه •

من الثأر الى القصاص :

ويتصل بالقوة موضوع آخر هو موضوع الثأر ، فقد سبق أن قلنا إنه كان على المطلوب أن يستكين ويستسلم ما دام ضعيفاً ، فإذا تقوى أو وجد من ينصره ويعينه اجأ إلى السلاح الذى هزمه وهو سلاح القوة ليثأر لنفسه ، وعلى هذا كان الأخذ بالثأر أبرز صفات العربى ، وكان العربى يدين بالقامة العربية التى تقول إنه إذا قَتَلَ رجلٌ من قبيلة فرداً فيحقق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل • ودخل العربى الإسلام فأدرك آداب الإسلام فى هذا الاتجاه ، عرف أنه لا تزر

وازره وزد أخرى ، وعرف كذلك أن القصاص يقوم به ولى الأمر ، وعرف تحديد القصاص في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنتى بالأنتى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) وقوله : « أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٢) وعرف ذلك الرجل المصير القاسى الذى يستحقه إذا اعتدى ، عرف ذلك من قوله تعالى « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٣) وقوله « ومن قتلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » (٤) بل عرف هذا الرجل ما هو أعظم من ذلك ، فقد علمه الاسلام خلقاً أسمى من العدل وهو خلق العفو ، قال تعالى « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله » (٥) .

من الحياة القبلية الى المسئولية الشخصية :

وكان العربى يفكر بتفكير قومه ، أو قل كان لا يفكر ، وانما كان يخضع لتفكير جماعته ، كان عضواً في قبيلته ، يسالم من سالمته ، ويقاوم من قاتلت . دون أن يسأل نفسه مرة واحدة : لماذا يقاوم ؟ وهل القبيلة على حق أو على باطل فيما تشنه من حروب وما تقوم به من هجوم ؟ وجاء الاسلام فبنى في العربى شخصيته وعرفه مسئوليته « لا يضركم من ضل

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ — ١٧٩ ..

(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٣٣ .

(٥) سورة النحل الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ .

رنا استديتكم» (١) ووضح الإسلام للعربى أنه إن يعشروا من المسئولية إذا اتبع غيره ولو كان ذلك الغير أباه أو أمه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢) ووضح القرآن للعربى أن يتبع طريق المحسنين البررة وألا يتبع طريق العصاة ولو كان هؤلاء العصاة أقرب الناس إليه « وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » واتبع سبيل من أناب إلى » (٣) .

وخطا الإسلام فى هذا الاتجاه خطوة أبعد وأسمى ؛ فقد كان العربى كما قلنا يعيش لقبيلته ، ثم كان يركز حبه فى أولاده وعشيرته وماله ، أما الإنسانية ، وأما الحياة الروحية ، فلم يكن لها نصيب كبير فى نفسه ، فهتف به القرآن فى حزم وتهديد « قل إن كان آباؤكم ، وأبنائكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فترضوا حتى يأتى الله بأمره » (٤) . وقد روى أن العرب عندما سمعوا هذه الآيات قالوا فى إيمان وبيقين : الله ورسوله أحب إلينا من كل ذلك . وروى أن عبد الله بن أبى بن سلوك رأس المنافقين بالمدينة حاول مرة أن يثير فتنة بين المهاجرين والأنصار . فأشار عمر على الرسول بالأمر بقتله ، وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبى — وكان مسلماً حسن الإسلام — غلطة أبيه واحتمال أن يأمر الرسول بقتله . فجاء إلى الرسول يقول له : « يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت فاعلاً فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه . . . » وهكذا كان يعيش المسلم للإسلام ومبادئه أكثر مما يعيش لأهله وذويه .

-
- (١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .
 - (٢) سورة التوبة الآية ٢٣ .
 - (٣) سورة لقمان الآية ١٥ .
 - (٤) سورة التوبة الآية ٢٤ .

من امتحان المرأة إلى إجلالها :

تدلنا الروايات التاريخية على أن المرأة في كثير من القبائل بجزيرة العرب كانت مُمْتَهَنَةً ، وقبل أن نحطى هنا بعض التفاصيل نحسب إنصافاً للحقائق أن نقرر أن هذا الامتحان لم يكن شائعاً في جميع القبائل ، وأن المرأة في بعض قبائل العرب كانت تحتل مكانة مرموقة في بعض النواحي ، ولكن الإسلام غير مكانة المرأة على العموم ، وغير نظرة الرجل للمرأة وحظيتها ، جميع النساء في حِمى الإسلام بحقوق لم تحظ بها المرأة الأوربية إلا في هذا القرن الذي نعيش فيه ، بل لسنا مبالغين إذ قررنا أن المرأة الأوربية لم تتل بعد كل ما حققه الإسلام للمرأة من حقوق .

وكانت العادات التي سنذكرها قانون تلك القبائل ، وليس هناك من غضاضة في اتباعها ، بل الغضاضة في مقاومتها أو التمرد عليها ، وجاء القانون السماوي فسرعان مادان به العربي ، واتبعه ودافع عنه .

يذكر بعض مؤرخي اليمن أن التمثلك كان مشاعاً بين أفراد الأسرة في عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك المشاع ، فكانت زوجة أو خليلية الأفراد الأسرة كلها ، فإذا دخل أحدهم خبائها لوطر ركر عضاه عند الباب ، فلا يفتحها عليه أحد ، لكن مبيتها كان مع رب الأسرة دائماً (١) .

وشاع في كثير من القبائل ذلك المنكر الذي حرمه الله بقوله « لا يحل لكم أن تترثوا النساء كترثوا (٢) فممن كان من حق وارث الميت أن يرث أرملة أيضاً بأن يذهب لها بعد موت زوجها فيلقى عليها رداءه ، وحينئذ يكون له أن يتزوجها أو يزوجها من غيره ويقبض مهرها .

(١) المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل : الفاروق عمر ج ٢ : ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

ولم يكن للمرأة نصيب من الميراث ؛ فلا ترث البنت من أبيها ، ولا الزوجة من زوجها ، إلا الأُم من ابنها ، إذ كان العرب يجعلون الميراث دقصورا على من حمل السيف وطعن بالرمح وذاد عن حصى القبيلة .

وتأتى بعد ذلك القسوة الطاغية التي تمثلت في وأد البنات ، فقد كان من العرب من يحمل ابنته ويحفر لها ويُدّها دون ذنب جنته ، أو جريرة اقترفتها « وإذا الموعودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١) ولم يكن الدافع له على هذا العمل العنيف الا خوف العار أو الفقر ، وقد ظل يرتكب هذا الفعل المنكر حتى صاح به القرآن « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيرا » (٢) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٣) .

وعلى العموم فقد عبر عمر بن الخطاب تعبيرا شاملا عن رأى العربى فى المرأة بقوله : **والله إنا كنا فى الجاهلية لا نعد النساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم** .

كيف تحوّل المسلم فأصبح يُجِلُّ المرأة بعد أن كان يَمْتَنُّها وماذا أنزل الله فى النساء وقسم لهن ؟

قيل أن نجيب على هذا نجب أن نوضح أنه ليس الرجل فقط هو الذى خضع للأمر الجديد وأحنى له الرأس ، بل إن المرأة أدركت ما حققه لها الاسلام وتمسكت به ودافعت عنه ، يقول الدكتور هيكل (٤) : **ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق ، ولم يكن للرجال أن يكرهه عليهن ، أو يناقشوهن فيه ، وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله** .

(١) سورة التكوير الآيتان ٨ — ٩ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٤) الفاروق عمر ص ٢٥٢ .

وإذا ذهبنا نصور هذا الحق نجد أنه انقلاب عظيم في تاريخ حياة العربي ، انه السمو للمرأة لتتساوى بالرجل مساواة كاملة في المركز الإنساني ؛ فلقد رفع الاسلام عن المرأة ما أثقلتها به حياة الجاهلية من مظالم ، لقد كانت المرأة كما قلنا مشاعا بين أفراد الأسرة في بعض البقاع • ومعنى كونها مشاعا أنها متاع لهم ، فجاء الاسلام فنظم هذه العلاقة على أساس جديد من تقديس العلاقة بين الرجل وزوجته ، وكانت المرأة متاعاً أيضا عندما كانت تورث كسائر المركة التي يتركها ميت كما سبق القول ، فجاء الاسلام فنقلها من متاع يورث الى انسان يرثه ، فأصبحت تأخذ من تركه زوجها وذويها نصيبا مفروضا وتقف مع باقى الوارثين على قدم المساواة •

وكان السيف هو من أهم الصلات والأسباب التي تتيح الميراث ، لذلك كانت البنت والأم والأخت تحرم من الميراث ليناله المناضلون من الرجال فجعل الاسلام النسب والمصاهرة والولاء هي الصلات المعتمدة •

وهاجم القرآن الكريم وأد البنات وجعله من الجرائم القاسية • وحدد الاسلام عدد الزوجات بعد أن كان مطلقا ، وأثر الزوجة الواحدة إذا خيف عدم العدل •

وفي أسمى المواضع من آى القرآن الكريم أى بعد تقرير التوحيد وهو المبدأ الأسمى في الاسلام يقرر كلام الله ضرورة الاحسان للوالدين ، ويرتفع بهذا الاحسان الى درجة عالية لا تبيح لابن أن يتأفف ، أو يظهر الضجر من أفعال الأب والأم قال تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب أرحمهما كما ربياني صغيراً » (١) • وخص الاسلام

للأم بمزيد من الرعاية « حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لى ولو الديك » (١) .
 من الإباهية الى الطهر :

والرجل الذى شاهد العهر والفسوق وكثيرا ما أخذ منهما بنصيب ، الرجل الذى رأى نساء بنى عامر كما يروى الأورخون (٢) يَطْمُنُّنَ الرجل الكعبة عراة أو حاسرات ، يرددن أشعارا فيها إغراء وإثارة ، هذا الرجل يكسوه الاسلام حلة من الطهر والعفة ، فيغض الطرف ويبعد عن الزلل ، فإذا غلبه الشيطان وارتكب الفاحشة سارع واعترف مطالبا بتطهير نفسه بأن يلقى حتفه مرجوما تكفيرا عما ارتكبه من إثم ، روى مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن معاذ بن مالك الأسمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى » فرده الرسول ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إنى قد زنيت » فرده الرسول ثانية وأرسل إلى قومه يسألهم : أتعلمون بعقله بأساً أو تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وراقى العقل . فأتاه الثالثة فرده الرسول . وأعاد السؤال عنه فأخبر أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفرت له حفرة ثم أمر به الرسول فرجمه » .

ومثل هذا ما فعلته الغامدية التى جاءت الرسول لتقول له : يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى . فردها الرسول . فلما كان الغد جاءت وقالت للرسول : تريد أن تردنى كما رددت معاذاً ، ولكنى والله حملت من الزنا ، فقال لها الرسول : اذهبنى حتى تلدى . فلما ولدت أنته بالصبي فى خرقة فقالت : قد ولدته . قال اذهبنى حتى ترضعيه إلى أن يطعم الطعام فلما فطمته أنته بالصبي فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وأكل الخبز فدفع الرسول بابنها الى رجل صالح يعوله وأمر بها فرجمت ، وكان بين من رجموها خالد بن الوليد فتطاير رشاش من دمها عليه ،

(١) سورة لقمان الآية ٤ .

(٢) محمد يونس الحسينى : الفكر الاجتماعى ص ١٤٧ .

فسيبها ، فقال له الرسول : مهلا يا خالد • فوالذي نفسي بيده لقد تابيت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له « (١) ثم أمر فصلى عليها ودفنت • وهكذا بلغ الظهر بالعربي درجة من السمو والصفاء يندر أن يوجد لها مثل ، أو يكون لها نظير •

من نظام الطبقات إلى المساواة :

والرجل الذي كان يخضع لنظام الطبقات ، ويؤمن به ، ويسير على هديه ، وينظر الى العالم على أنه "أسر" أو قبائل متفاضلة ، تتفاوت تبعاً للدم والنسب • هذا الرجل أعاد الاسلام تكوينه • فإذا بالتفاوت عنده يخضع لعامل آخر هو عامل التقوى والعمل الصالح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢) وورد في الحديث قول الرسول : أيها الناس ، إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى • رواه أحمد .

من الانزواء بالجزيرة الى السيطرة على الفرس والروم :

وكان العربي منزوياً في الجزيرة العربية ، يرهّب الفرس والروم ويقبل راضياً أو كارهاً أن تخضع كثير من مناطق الجزيرة لنفوذ كسرى ولنفوذ قيصر ، وكانت نظرتهم للفرس والروم نظرة رهبة وإجلال عبث عنها عبد الرحمن بن عوف بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر حدّ حديد وركن شديد ، وكانت نظرة الفرس والروم للعرب نظرة استعلاء وترفع ، عبر عنها شهريان في رسالته أنتى أرسلها الى المثنى بن حارثة الشيباني الذي قاد جيوش المسلمين لغزو فارس ، قال شهريان : « إني قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولبست أقاتك إلا بهم » •

(١) ابن رشيد القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ٤ ص

٣٠٦ — ٣٠٧ •

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وكانه شهريز أن كان يعتقد انه يكتب للعربي الذي عهده منزويا صمينا ، ونسى الحدث الأعظم الذي دخل على العربي فغيّر من شأنه . وخلق منه بطلا مغواراً قُدّر له أن يحطّم ملك القياصرة ويهدم عروش الأكاسرة ؛ ويفتح البلدان ، ويكوّن الامبراطورية الاسلامية الفسيحة . وأن يقف أمام الجيوش المستعدة المزودة بالسلاح والمؤن ، وسلاحه الرئيسي هو الايمان ، يضرب به فتفرّق قلوب الرجال وتنخلع نفوس الأبطال . قال الهرمزان لعمر بن الخطاب معللاً ضعف العرب قبل الإسلام وقوتهم بعد الإسلام : يا عمر كنا وإيّاكم في الجاهلية وقد خلّى الله بيننا وبينكم فغلبناكم ، إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .
غرس أخلاق الإسلام في الفرد :

لم تكن هناك مقاييس ثابتة للأخلاق قبل الاسلام ، لا في الجزيرة العربية ولا في غيرها ، فالعدل كان أحياناً يُعدّ من الأخلاق العالية ، ولكن الجور أحياناً كان يعد بطولة ، وكانت الأمانة ضرورية داخل الأسرة ، ولكن خارج الأسرة والقبيلة كان السلب محمداً ، وهكذا فلما جاء الإسلام ألغى حدود الزمان والمكان والجنس بالنسبة للأخلاق ، وحدد الفضائل والذائل ، وجعلها مستقرة ثابتة في كل الظروف ، فالصدق ، والاخلاص في العمل ، والكرم ، والوفاء بالوعد ، والصبر ، والحلم ، والعفو ، صفات يلتزم بها المسلم ، والكذب ، والكبر ، والظلم ، والرشوة ، والحسد ، والغيبة ، والنميمة ذائل يجب أن يبتعد عنها المسلم .

وقد بذل الرسول جهداً كبيراً لتثبيت الفضائل وتطهير المسلمين من الذائل ، ونجح نجاحاً كبيراً في تثبيت الأخلاق الاسلامية في نفوس المسلمين .

كيف تربي هذا الرجل المسلم ؟

تلك نماذج قليلة وسريعة سنعود الى بعضها بشيء من التفصيل فيما بعد ، ولكنها هنا تدلّنا دلالة واضحة على مدى تحوّل الرجل المسلم في مكة المكرمة ، وكيف أصبح عنصراً صالحاً تكوّن منه فيما بعد المجتمع الاسلامي في المدينة المنورة . كيف تربي هذا الرجل ليرحل هذه الرحلة الطويلة من رجل

فيه طبقية وأثنية ... الى مسلم يدين بالمساواة ويتحرف بالسماحة والإيثار؟

الجواب عن ذلك أن هناك عاملين مهمين أحدثا هذا التغيير العظيم ، وهذان العاملان هما : الاسلام في مبادئه السمحة ، والرسول في شخصيته الفذة ، الفريدة في صفاتها ، التي هي خير قدوة يقتدى بها الصالحون ، وسيظل هذان العاملان معنا طوال هذا الحديث نقتبس منهما وتسترنسدهما ، ولكنى هنا أبادر فأسوق قصتين تبرزان كيف كان الرسول يربى العرب لينقلهم الى صفوة من المسلمين .

كان أبو ذر الغفاري يناقش عبدا في حضرة الرسول صلوات الله عليه ، وطال النقاش بين الاثنين ، فغضب أبو ذر ، وقال للعبد : يا ابن السوداء ! وسرعان ما التفت له المعلم العظيم وقال له : « طف المصاع ، دلف المصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح » وما إن انتهى الرسول من قوله حتى كان أبو ذر قد هوى من استعلائه الى عالم المساواة في لحظة قصيرة ، فوضع خده على التراب وقال لاسبد : قم فدايا على خدي .

وكان فضالة بن عمير بن الموح من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويضمرون الكفر للهجرة لله ورسوله ، وقد «م» مرة أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا انبرأ الرسول الشريف في بيته أو ربما له حتى له بذلك ، فبادره الرسول قائلا : أفضله ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : استغفر الله يا فضالة ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وبرئت نفسه من الكفر . قال فضالة : والله ما رفع يده عن صدري حتى كان أحب الناس لي (١) .

ذلك لون من ألوان التربية التي اتبعتها الرسول صلوات الله عليه إيثاق بها أفرادا كانوا عناصر طيبة تكوّن منها المجتمع الاسلامي الذي نؤمنه لنحدث عنه .

الباب الثالث

لمجتمع الأسيلا في عهد الزاهر
وأشس تكوينم

المجتمع الإسلامي :

إن تشييد قصر سامخ يحتاج إلى فن راق وكفاءة ومقدرة ، والمادة الأولية من أخشاب وحديد وأحجار وغيرها ليست كل شيء في تشييد البناء ، وإن كانت تكثر عنصرا مهما لإقامته ، فتكوين القصر له هندسة وخاصة وطرق معينة في استغلال المادة الأولية التي يجب الحصول عليها بأدنى ذى بدء ، وهذا مثال يبين لنا الجهد الذي يستلزمه تكوين مجتمع إسلامي حتى بعد أن يربى الفرد المسلم ويعدّه ليكون عنصرا صالحا لبناء هذا المجتمع ، فلبناء المجتمع فلسفة خاصة بجانب إعداد الأفراد الذين سيتكون منهم .

ولحسن الحظ بنى الرسول بنفسه المجتمع الإسلامي الأول فعلمنا كيف يتكون المجتمع الإسلامي ، وما الأسس التي يجب أن تتوافر فيه ، ولقد بنى الرسول المجتمع الإسلامي الأول بالمدينة عقب هجرته إليها من مكة ، فلننظر كيف بناه ، ثم لنفسر مع هذا المجتمع الإسلامي لنرى كيف نما ، وكيف أصبحت المدينة بلدةً ضمن بلاده العديدة وأقطاره الفسيحة .

الطوائف بالمدينة عقب الهجرة :

التقى في المدينة عقب الهجرة عدة عناصر أهمها الطوائف الثلاثة الآتية :

- ١ — المهاجرون ، وهم الذين فرّوا بدينهم من مكة إلى المدينة .
- ٢ — الأنصار ، وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين .
- ٣ — اليهود ، وهم بقية من بني إسرائيل مع من تهود من العرب .

ويدخل مع كل صنف من هذه الأصناف قبائل وجماعات لجئوا لها وعاشوا في جوارها ، فكان على الرسول أن يكون من هذه الطوائف مجتمعا سليما يضع له قوانينه ونظم حياته ، يهذب نفسه وروحه ، وينظم سلوكه ومعاملاته ، وعلى الجملة يجمع في تشريعاته وسياسته خير الدين

والدنيا ، واتجهت فكرة الرسول الى غاية سامية هي حجر الزاوية في تكوين المجتمع الاسلامى ، وهى تكوين أسرة جديدة من المسلمين تحل محل الأوس والخزرج ، ومحل بنى عبد مناف وبنى هاشم وغيرهما ، وتصبح هى الأسرة الاسلامية التى ينتمى لها المسلمون فى المدينة أيا كانت قبائلهم وأيا كانت ديارهم ، فإذا تمَّ له ذلك خطا الخطوة الثانية وهى ربط هذه الأسرة الاسلامية بغير المسلمين من الجماعات التى تعيش معهم مكوناً المجتمع الاسلامى ، فالمجتمع الاسلامى هو المجتمع الذى تسوده روح الاسلام ويتعاون أعضاؤه — أيا كانت ديانتهم — فيما يحقق الخير للمجتمع .

أسس تكوين المجتمع الإسلامى :

وقد اتبع الرسول أسسا قويمه ثبتت بغيان العالم الاسلامى ، ورفعت شأنه ، وهذه الأسس هى :

- أولا — بناء المسجد ليكون ملتقى للمسلمين .
- ثانيا — المؤاخاة بين المسلمين .
- ثالثا — المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين .
- رابعا — وضع أسس للنظام السياسى (الثورى) .
- خامسا — وضع أسس النظام الاقتصادى .
- سادسا — القدوة الحسنة .
- سابعا — سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع .

وستتحدث عن هذه الأسس واحدا بعد الآخر فيما يلى

أولا - المسجد ملتقى المسلمين

كانت أولى الخطوات التي اعتمد عليها الرسول لتكوين المجتمع الاسلامي بناء مسجد المدينة ، ولم يكن الهدف الأسمى لبناء المسجد إيجاد مكان للعبادة فحسب ، فالدين الاسلامي يجعل الأرض كلها مسجدا للمسلمين ، ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من هذا وأقوى ، لقد أراد الرسول فيما يبدو لى أن يبنى مكانا لا ينتمى لهذه القبيلة أو تلك ، ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة ، بل أن يشيد مكانا يؤمّه الجميع ، هو بيت الله أو بيت الجميع ، وافي هذا البيت يلتقى المسلمون للعبادة ، وللمشاورة ، وللقضاء والتجارة وللسمر ، وفيه يلتفنون حول الرسول يأخذون عنه مبادئ الدين ، ونظم المجتمع الجديد ، وآيات القرآن الكريم ، وفي هذا المكان أو هذا المنتدى أو هذه المدرسة أو هذا المسجد ستمترج النفوس والعقليات وتقوى الوحدة وتتألف الأرواح ، ومنه سينبعث الأذان خمس مرات في اليوم يعطره جوه المدينة ، ويعلم أن كلمة الله أصبحت الكلمة العليا •

وتدلنا الروايات التاريخية على أن أهل المدينة كانوا يتخذون المسجد منتدعى لهم ، يجتمعون فيه للسمر وإل نشاد الشعر ، وللحديث في شئون التجارة ، بجانب العبادة والقضاء والتعليم حتى كان لفظ المتسامرين والتجار أحيانا يعلو على أصوات المصلين والمتقاضين ، مما جعل عمر يخصص مكانا بجانب المسجد متصلا به لمثل هذه الأحاديث ، ليقى المسجد خصيصا للعبادة والقضاء والتعليم •

المسجد الآن كما ينبغي أن يكون :

ومن أجل هذا يتجه الفكر الجديد الآن الى العودة بمسجد اليوم الى

روح الاتجاه الذي يبنى على أساسه المسجد الأول في عصر الإسلام ،
نريد أن يكون مسجد اليوم «مجمعاً» به مكان للعبادة ، وبه مكتبة إسلامية ،
وثقافية وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، وبه استعداد للإسهامات
الصحية السريعة ، وحوله مكان للشبان يمارسون به بعض الرياضيات
المباشرة ، حتى إذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا إليها ، ونريد أن يكون بكل
مسجد مكان مخصص للنساء ، تصالين به وتتدارسن فيه شؤونهن .

ونحن بهذا نخلق مركزاً دينياً سيكون واسع الأثر في خدمة الإسلام
والمسلمين ، كما كان مسجد المصادر الأول للإسلام .

ثانياً - المؤاخاة بين المسلمين

ومع بناء المسجد خطا الرسول خطوة أخرى لها خطرها العظيم في تكوين المجتمع الاسلامي في المدينة ، وتلك الخطوة هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكانت هذه الخطوة استجابة لقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله : والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض » (١) وللم تكن المؤاخاة التي حصلت مؤاخاة بين المهاجرين من جانب والأنصار من جانب آخر فقط ، وإنما تمَّ بعضها بين مهاجر ومهاجر ، فالرسول اتخذ علياً بن أبي طالب أخاً له ، وبعضها بين أنصاري وأنصاري ، والكثير منها بين مهاجر وأنصاري كما سنرى ، وقصد الرسول بذلك أن يقرب أيضاً بين الأوس والخزرج إذ كانت الحروب بينهما قريبة عهد ، وأن يقرب بين بعض قبائل المهاجرين وبين البعض الآخر ، كما قصد أيضاً أن يؤكد المساواة في الإسلام بطريقة عملية ، فأخى بين أفراد من أعظم القبائل العربية وبين بعض الموالى والعبيد ، وفي ضوء هذه المبادئ دعا الرسول المسلمين ليتأخوا في الله أخوين أخوين . فكان هو وعلى بن أبي طالب أخوين ، وكان أبو بكر وخارجه بن زهير أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الخزرجي أخوين ، وكان جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وكان أبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن معاذ أخوين ، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن الربيع أخوين . وكان الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين ، وكان طلحة بن عبيد الله ولعيب بن مالك أخوين ، وكان عمار بن ياسر حذيفة بن اليمان أخوين ، وكان سلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين ، وكان بلال وأبو رويحة عبد الله الخشعمي أخوين ، وتأخى عدد كبير من المهاجرين بأفراد من الأنصار ، وجعل الرسول لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب (٢) قال الإمام عبد الرحمن الخشعمي في كتابه الروض الأنف إن الرسول

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٩ .

صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليُذْهِبَ عَنْهُمْ
وحشة الغربة ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشدُّ أزر بعضهم
ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ولذبت الوحشة أنزل الله سبحانه
« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) أعنى في الميراث .
ثم جعل المؤمنين كأنهم إخوة فقال « إنما المؤمنون أخوة » (٢) يعنى في
التواد ويشمول الدعوة (٣) .

ومن هذا يتضح أن هذه المؤاخاة كان من نتائجها التوارث بين الأخوين
والتعاطف والإيناس ، وقد وضعت الآية الكريمة السابقة « وأولو
الأرحام بعضهم أولى ببعض » حدا للتوارث بين الأخوين من هذا النوع ،
ولكننا نجد هذه المؤاخاة قد قويت وتصلت بين كثير من هؤلاء حتى
أن حمزة بن عبد المطلب كتب وصيته قبل أن يخوض غمار الحرب يوم
أحد لأخيه زيد بن حارثة (٤) .

وبهذه المؤاخاة انصهرت هذه المجموعات وهؤلاء الأفراد في بوتقة
الاسلام ، وتشكلت منها أسرة اسلامية جديدة متحابية متعاونة ، يربطها
رباط التوحيد وتقوى بينها مواسيق الحب والتعاطف ، وقد نسى كل من
هؤلاء نسبه وعصبيته ونزعاته الجاهلية ، وتطلعوا جميعا الى النسب السامى
وهو العلاقة الاسلامية والرباط الدينى المتين ، ومن العجيب أن الزمن مر ،
وتتابع الأحداث ، وتغيرت الظروف التى دعت للمؤاخاة فى هذا الوقت
العصيب وهذا المحيط الضيق ، ولكن هؤلاء الإخوة لم ينسوا المؤاخاة التى
عقدتها الرسول بينهم ، يحكى ابن هشام (٥) ، أن بلالا كان قد خرج للشام
مجاهداً واستقر هناك منذ عهد أبى بكر ، فلما جاء عهد عمر بن الخطاب ،
ودون الدواوين سأل عمر بلالا : إلى من يكون دينان الشام يا بلال ؟

- (١) سورة الأنفال : الآية ٧٥ .
- (٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .
- (٣) الروض الأنف ج ٢ : ص ١٨ .
- (٤) ابن هشام ج ٢ : ص ١٨ .
- (٥) سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ١٩ .

قال بلال : الى ابي ربيعة يا امير المؤمنين ، فاني لا احب ان افارقه
للاخوة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بيني وبينه
فاستجاب له عمر .

كيف تمت هذه المؤاخاة وهذا التآلف بين من كانوا بالامس أعداء
متشاكسين ؟ إنه فضل الله وقدرته التي ما فتئها قدرة ، وقد صور القرآن
الكريم ذلك في قواه تعالى : « وانذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ،
فآلف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » (١) وقوله : « وآلف بين
قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما آلفت بين قلوبهم ، ولكن الله
آلف بينهم ، إنه عزيز حكيم » (٢) .

ويجب أن نذكر هنا المون ، وحسن الاستقبال ، وكرم الضيافة ،
والحفارة التي قدمها الأنصار المهاجرين ، وقد زادت المؤاخاة هذه العلاقات
قوة ، فأصبح الأنصار للمهاجرين أملا ، أفسحوا لهم صدورهم ، ولم يظنوا
عليهم بمالهم « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٣) .

لقد أنتجت هذه المؤاخاة هذه أسرة اديابية واحدة ، تكونت من
الأنفال المتحدية والاشواق التي انتفتح ، ونسب التي أوجهته ومعتاده ومثبه ،
يتألف في الاالااد من التي التي ، ناله به بين قلوب مستتقيه ، وانحج جمهور
من الذين في القلوب من الذين الذين ، وما جماعة المشايخ ، وبجماعة في
الذي الذي ، وفي قلوب من اليهود . فالتألف تلك الرسول سارات له عليه أن
يفتخر في قوة جبهية ويصنق برا التماثل بين سكان المدينة جميعا ، ويفضرب
المثل السامي للتعاون بين أتباع الديانات المختلفة ، على أن من
احترام الشريعة وحرية الدين والعبادة ، وسنتكم عن هذه الخطوة الجديدة
فيما يلي :

- (١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
- (٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .
- (٣) سورة الحشر : الآية التاسعة .

ثالثا - المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين

جعل الدين الاسلامي توحيد الله أساسا قويا يمكن أن يتعاون في ظله اتباع الديانات السماوية المختلفة قال تعالى : « يا أهل الكتاب ، تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (١) فإذا ارتقى الانسان بإنسانيته ، وسما بعقله وروحه وترفع عن عباده الصنم والحيوان والشمس والقمر ، وآمن بالله وحده ، ورفض أن يشرك به شيئا ، فان ذلك الانسان مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا تربطه صلة قوية بمن شاطره هذه العقيدة وإن اختلف معه في الدين ؛ « ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (٢) .

وفي ضوء هذا المبدأ عقد الرسوا معاهدة بين المسلمين وبين اليهود وأقليات أخرى صغيرة كانت تعيش في المدينة ، وتعتبر هذه المعاهدة من أنفس المعاهدات الدولية وأمتعها وأجدرها بتقدير الناس جميعا على اختلاف أديانهم ، وهي بالاضافة الى ذلك تنير السبيل للمؤمنين ، وتبين لهم كيف يتعاونون مع أتباع الأديان السماوية الأخرى ، ويكونون معهم وحدة تتمتع كل مجموعة فيها بالحرية الدينية .

ويتعهد الموقعون على هذه المعاهدة بالتعاون في الدفاع عن بلدهم المشترك ضد أي اعتداء قد يقع عليه ، وأن يتعاونوا ماليًا في الأزمات الاقتصادية ، وأن يرجعوا جميعا عند اختلافهم لقضاء الرسول ، وفيما يلي مقتبسات مختارة من هذه الوثيقة الهامة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ،

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) البقرة : الآية ١٥٦ .

الذين من قريش شلى ربيعتهم ينماقلون بينهم وهم يكفرون عانيهم
بالمعروف وانفسط بين المؤمنين (اى هم على امرهم الذى كانوا عليه من
تعاونهم فى القصاص والديات ولكن حسبما تقضى النظم الاسلامية) ،
وينو عرف وينو الحارث (من الخزرج) وينو ساعدة (من الأوس) على
ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وكل طائفة تندى عانيها بالمعروف والقسط بين
المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بدين أو غرم) بينهم ،
بل يعطونه بالمعروف فى فداء أو عقل • وإن المؤمنين على كل من بنى
أو ارتكب إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وأن ايديهم عليه جميعاً
ولو كان ولداً أحدهم •

ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن •
وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا
متناصر عليهم •

وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن ذون مؤمن •
وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش (كانت قريش على الشرك آنذاك)
ولا نفساً •

وإنه من اعتبط (قتل ظلاماً) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به
إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل (الدية) وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل
لهم إلا قيام عليه •

ومهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده الى الله والى محمد •

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين •

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ،
إلا من ظلم أو أثم •

وإن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ••• مثل ما ليهود بنى
عوف إلا من ظلم أو أثم •

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن يربط بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لا يأتهم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يثرب حرام جوفها (لا تجوز الحرب بداخلها) لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده الى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جارٌ لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١) .

والذى يتمن هذا الميثاق يجد أن الدولة الاسلامية ظهرت للوجود ، وأصبح جميع المؤمنين رعايا لها متساوين على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم ، وتتعاقد الدولة الاسلامية مع أتباع الأديان الأخرى تعاقدًا أساسه النصر للمظلوم ، والنصح والبر ، وحرمة الأوطان المشتركة ، وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائهم وحرمتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان (٢) .

لقد كان الرسول في المؤاخاة يربى أرواح أتباعه وعواطفهم وييسرهم بمشاعرهم ، ولكنه هنا ينظم المجتمع الاسلامي ، فيلاحظ من فيه من غير المسلمين ، ويضع لهم وللمسلمين هذه المرة القواعد والقوانين والدستور الذى يلزم أن يتبعه الجميع ، كانت المؤاخاة فلسفة روحية عالية عميقة ، وجاءت هذه الوثيقة قانونًا محددًا ، ينظم الروابط بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر . والروابط بينهم وبين غير المسلمين ، وقد شملت هذه الروابط الناحية القضائية والمالية ، والقصاص ، وحرية الأديان ، والتعاون الأخرى وغير ذلك مما يكفل لهذا المجتمع الجديد نجاحًا ، ويضع أمامه :
«أ يهديه السبيل» .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦ — ١٩ .

(٢) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٨٨ .

رابعاً : الثَّورَى (*)

وضع الرسول صلوات الله عليه في ذلك العهد المبكر أسس الحكم في المجتمع الإسلامي في مختلف الشئون ، والدعامة الرئيسية لهذه الأسس هي اتباع النص الصريح إذا وجد ، فاذا لم يوجد فالشورى والاجتهاد .

ومن المعروف أن الإسلام عثىَ عناية كاملة بأمر الدين والدنيا ، فهو عقيدة وهو في نفس الوقت نظام ، فكما دعا الإسلام للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وضع كذلك نظاماً مفصلاً أو قابلة للتفصيل عن مشكلات الأسرة كالزواج والطلاق والميراث ، وعن مشكلات المجتمع الإسلامي كالتعاون والقضاء وفض المنازعات والمساواة ، وعن مشكلات المجتمع العالمي كالحروب والمعاهدات .

وان الرسول صلى الله عليه وسلم هو زعيم المجتمع الإسلامي الأول ، وكانت في يده السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو باسم السلطة الدينية كان يتلقى التشريع من الله ويفسره إن احتاج إلى تفسير ، ويفصله إن احتاج إلى تفصيل ، وباسم السلطة الزمنية كان ينفذ هذا التشريع ، ويقود المجتمع في ظلّه إلى الغاية الحميدة في الدنيا والآخرة .

وكانت آيات القرآن الكريم التي نزلت في مكة تقتصر تقريباً على أصول الدين والدعوة التي هذه الأصول . كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها ، أما في المدينة فقد شملت آيات القرآن جميع الأمور المدنية كالبيع والإجارة والربا ، والأمور الجنائية كالقتل والسرقه ، والأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث .

(*) للاطلاع على بحث علمي كامل عن التنظيم السياسي في الإسلام ندعو القارئ للرجوع إلى كتاب « السياسة في الفكر الإسلامي » للمؤلف .
(م ٥ - المجتمع الإسلامي)

وبذلك استطاع الرسول في المدينة أن يهدم المجتمع الجديد بالأفكار الإسلامية التي توَّجَّهه وهو يسير .

ومن الملاحظ أن التشريع في القرآن لم يأت دفعة واحدة ، وألا كان انتقالاً ضخماً لم يتعوده القوم وربما نفروا منه ، بل جاء التشريع متتالياً ، وتبع حاجات الناس ، فقد كان الرسول يُسأل عن أشياء أو تحدث أمامه حادثة تحتاج إلى فتيا ، فكان ينتظر أن يوحى إليه بالجواب ، وكثيراً ما ورد الجواب مرتبطاً بالسؤال الذي وجه للرسول كقوله تعالى :

— يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما (١) .

— يسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير (٢) .

— يسألونك عن المحيض ، قل هو أذى (٣) .

— يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات (٤) .

وأحياناً كان يجيء الجواب غير مرتبط بصيغة السؤال وذلك هو الغالب ، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم الرشد طلب المال فهنعه عمه ، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم (٥) » .

وفي بعض الأحوال كان الرسول لا يتلقى جواباً من الله ، وكان ذلك يعتبر إيذاناً من الله بالاجتهاد لمحاولة إيجاد حل لهذه المسألة ، فكان الرسول

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤ .

(٥) سورة النساء : الآية ٦ .

يجب (استشارة أصحابه) ، ولهذا الروايات التاريخية أنه لما بكر عن استشارته فهم حتى قال أبو هريرة « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكان أبو بكر وعمر في مقدمة الصحابة الذين كان الرسول يعتمد عليهم ، وقد روى عنه أنه قال لهما « وأيم الله لو اتفقتما على أمر ما خالفكما فيه أبداً » ، وفي ضوء اجتهاده واستشارته كان الرسول يصدر قضاءه في المسائل التي لم ينزل فيها قرآن ، فان صادفه التوفيق في قضائه كان بها ، وان أخطأه التوفيق نزل الوحي مدليماً ، وحينئذ يدع الرسول ما قضى به على حالة تقديراً لقرآن الاجتهاد ، ويتبع القرآن فيما يجيزه من أحداث تنطبق عليها الآية الجديدة ، فلا يتردد للآية أثر رجعي ، وبما ورد فيه قرآن مخالف لما قضى الرسول به مسألة أسرى فزوة بكر ، فقد روى أنه عليه السلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم الدياس وعقيل بن أبي طالب وكانوا يطعمون أن يفدوا أنفسهم بالمال ، فاشتار الرسول أصحابه فقال أبو بكر : قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر : اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء . ومال أغلب الصحابة الى رأى أبي بكر فقضى به الرسول ، ولكن سرعان ما نزلت الآية الكريمة : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » (١) . فقررت هذه الآية أن شرط الفداء هو سيطرة الاسلام وقوة جانبه وانكماش الكفر وضعف سلطانه . واسم يكن الإسلام قد وصل الى مكانة المروءة والسيطرة بالقياس الى الكفر في ذلك الحين ، ولذلك كان إزال الكفار وإخساف المحاربين أرجح من قبول الفداء .

ومن ذلك أيضا ما نزل في غزوة تبوك ، إذ استأذن بعض الناس في التخلف عن الغزو مع الرسول واستجاب لهم الرسول قبل أن يتحصرى حقيقة نواياهم ، فنزل قوله تعالى « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (١) .

على أن ما صححه القرآن للرسول كان قليلا ، أما الغالب فإن رأى الرسول الناتج عن تفكيره واستشارته لأصحابه كان هو الأساس لسير الأمور .

وهناك أمران هامان يتصلان بالتشريع في هذه الفترة وعلاقته بالقرآن الكريم وهذان الأمران هما :

١ - القرآن وإن كان أساس الشريعة وأصلها الأول ، جاءت دلالاته على الأحكام التشريعية الفقهية في كثير من الأمور على نحو كلي لا جزئى ، فالصلاة والزكاة لم يرد لهما تفصيل في القرآن ، ومن ثم نشأت الحاجة للرسول وإلى الأحاديث لتبين ما أبهم ، وتفصيل ما أجمال ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٢) .

على أن الرسول لم يفسر من القرآن إلا ما دعت إليه الحاجة في عهده ، وكان هذا من حكمة الله وهديه ، إذ أن الرسول لو فسر القرآن كله لفسره ملائما لروح العهد والبيئة التي كان فيها ، ولقيدنا هذا التفسير الصادر عن الرسول ، ولكن الرسول ترك ما لم تدع حاجة ماسة لتفسيره ليفسره العلماء عندما تدعو لذلك الحاجة ، ملائمين بينه وبين الأزمنة التي يعيشون فيها ، والظروف التي تحيط بهم في حدود المعانى الكلية لروح الاسلام ، وعلى ألا يختلف التفسير الجديد مع ما سبق فيه شرح أو إجماع .

وكان أصحاب رسول الله يدركون عدم رغبته في تفسير ما لم تدع له الحاجة ، ولذلك ما كانوا يسألونه إلا عند الضرورة ، روى عن ابن عباس

(١) سورة التوبة : آية ٤٣ .

(٢) سورة النحل : آية ٤ .

... قال : ما رأيتم يوما قط كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم ، وكان عمر بن الخطاب يلحن من سأل عما لم يكن •

٢ — نصوص القرآن كلها قطعية الثبوت ، لا ريب في صحتها لو صدر لها إلينا بطريق التواتر ولقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) إلا أن دلالة هذه النصيرص على الأحكام ليست قطعية دائما ، بل قد تكون قطعية إذا لم يحتمل النص الا تفسيريا واحدا كأكثر آيات المواهب وآيات الحدود ، وقد تكون دلالة النص ظنية لا يقطع بها ، لاحتماله أكثر من تفسير بسبب ما اشتمل عليه من لفظ عام أو مشترك مطلق ، ودل ذلك قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة » (٢) • فان افظ الميتة عام يشمل ميتة البروميتة البحر ، فهل المراد ذلك كله ؟ أو المراد ميتة أحدهما فقط ؟ ومن هنا كانت دلالة النص ظنية فجاءت السنة وحددت الحلال والحرام بقول الرسول عن البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » •

فأنت ترى بيسر ووضوح أن هذا المجتمع كان يسير على هدى القرآن والحديث وهدى الشورى التي كان الرسول يركن اليها ويسأل أصحابه رأيهم ويستفيد بأفكارهم عندما لا يوجد نص قرآنى يعتمد عليه ، وكان ذلك عملا بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » (٣) وقوله : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » (٤) •

وفى حدود الدستور الذى كانت تلك مراجعه نعم هذا المجتمع بأسعد حياة •

-
- (١) سورة الحجر : الآية التاسعة .
 - (٢) سورة المائدة : آية الثالثة .
 - (٣) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
 - (٤) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

خامساً - وضع أسس النظام الاقتصادي للإسلام *

في هذه الفترة وُضِعَتِ الأسس الاقتصادية للإسلام ، هذه الأسس التي ترمى الى أن تخلق بين المسلمين جواً من الحب والتعاون والائثار ، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يوجد جائع يعيش بجوار متخم ، وعار يرى الآخر وهو يبرفل في الحرير والدياج .

والإسلام لا يحارب الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، مادام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وأَدَّوْا حَقَّ الله فيه . ويبيح الإسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغنى ما يكفي بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة ، وفي ظل التفكير الإسلامي الاقتصادي طالما اختفى الفقر ، وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء ، حتى كان الغنى يبحث عن يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده .

والإسلام في سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوروبية ، وهاك ملامح هذه الفاسفة .

١ - مبدأ الملكية الفردية :

يقرُّ الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذي حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نَسَبَ القرآنُ الأموال للناس في الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (١) وكذلك في قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار » (٢) . ويقرُّ الإسلام كذلك التفاوت في الغنى بقدر الجهد الذي يبذله كل مسلم ، وبقدر التوفيق الذي يصادفه ، وقد ورد القرآن

(*) عن الاقتصاد في الإسلام يراجع القارئ ما كتبه المؤلف بكتابه :
الاقتصاد في الفكر الإسلامي .

(١) سورة النعابن : الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤ .

الكريم مقررا هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » (١) وقال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورنعنا بعضهم فزق بعض درجات » (٢) .

وعلى هذا فالاسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية ، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها الى ورثة المالك عن طريق نظام الميراث في الاسلام ، ولا يجيز الاسلام للحكومة التدخل في هذه الملكيات الا اذا تعارضت مع الصالح العام ، ويكون تدخل الحكومة حينئذ بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذى أقره الاسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضا أساس من أسس التشريع الاسلامى .

ولا نزاع أن التفاوت في الثراء طبيعى جدا ، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من الثراء وأنفس منه ، إنهم متفاوتون في الصحة ، والقوى العقلية ، والذكاء ومتفاوتون في الجمال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون في مقدار توفيقهم في الزواج أو الجوار أو الصحبة ، ومتفاوتون في مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية في صحتهم وعقولهم وأولادهم عددا ونوعا وتوفيقا .. وغير ذلك ، فالنهج الاسلامى في إباحة التفاوت في الغنى نهج طبيعى واضح .

٢ — مكانة المال :

بماذا يفضل المسلم المسلم ؟ وهل للمال نصيب في رفع شخص عن آخر درجة في التقدير والاحترام ؟

الجواب لا ، والرسول صلى الله عليه وسلم خير مثل لذلك الموضوع ، لقد عاش فقيرا ومات مدينا ، ومع هذا نال في حياته وبعد موته أسمى

(١) سورة النحل : الآية ٧١ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

درجة من الأجلال والتعظيم ، وقد ورد في الحديث (إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وحددت الآية الكريمة مكان التفضيل بين المسلمين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فالله سبحانه وتعالى صوراً للمسلمين أكرمهم وأعظمهم درجة ، بأنه أتقاهم وأكثرهم صلة بالله وبعداً عن نواهيه .

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه يوماً أتدرون منَ المُفلسِ ؟ قالوا : المُفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : المُفلسُ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيحطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه ، ثم طرح في النار .

ذلك هو المفلس في الاسلام مهما كان ماله ، والغنى في الاسلام هو الغنى في خلقه ، الغنى في عمله ، الغنى في تقواه ، عن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أناس فسألوه : من أحسن عباد الله الى الله تعالى ؟ فأجاب : أحسنهم خاتماً (٢) . وفي رواية ابن حبان أنهم سألوا : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فأجاب : خلق حسن .

ونسوق الآن آيتين كريمتين قارنتا بوضوح بين المال وسواه ، وبينتنا مكانة المال ، يقول الله تعالى « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمَسْمُومَةِ ، وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ » (٣) . فاللحاح بصنوفه متاع الحياة الدنيا لمن تغرهم الحياة الدنيا ، أما عند الله

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٢) رواه الطبراني .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤ .

« المال الصالح هو الذي يبذل بحسن المآب ، ويقبل تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (١) .

هذه هي مكانة المال في الاسلام ، على أن المال إذا أحسن صاحبه التصرف فيه ، ونفع به ، يقوده الى أعظم الجزاء ، قال عليه السلام « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، وكجَاهلُ سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل » (٢) .

٢ - التقريب في المظهر بين التفاوتين في الغنى :

هذه فكرة اسلامية ذبيلة للغاية ، فالاسلام مع اهتمامه بالتقريب في المستوى المادى بين المسلمين على ما سيأتى ، يهتم أيضا بالتقريب بين الغنى والفقير في المظهر ، ويكره الاسلام وجود التفاوت الضخم في اللباس والمتاع ، لأن ذلك ربما خلق نوعا من السخط أو الحسد قليلا كسان أو كثيرا .

وطريقة التقريب التي يقترحها الاسلام رائعة ، يجب أن يشترك للوصول إليها الغنى والفقير جميعاً ؛ فسيُحْرَمُ على الغنى الترف ، وقد نسب الله للمترفين السبق في مجاهدة الرسل والكفر برسالاتهم ، قال تعالى « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » (٣) ونسب لهم أنهم قادة الشر ورواد الضلال : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلحنا السيئاً » (٤) وذكر سبحانه أن الترف والمتاع يتسببان الذكر ويقودان للبوار والخسران : « سبحانه ما كان

(١) سورة الكهف : الآية ٤٦ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) سورة سبأ : الآية ٤٣ .

(٤) سورة الاحزاب : الآية ٦٧ .

ينبغي لنا أن نتخذ من أولياء ، ولكن مشغعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بوراً » (١) والمترفون هم الذين يستجيبون لداعى الفسوق ببسر وسهولة : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (٢) والمراد بقوله تعالى : أمرنا مترفيها ، هو : أكثرنا مترفيها ، وليس المراد بقوله تعالى أردنا أن نهلك .. معنى الارادة الذى يتبادر للذهن من الرغبة فى عمل الشيء والتهيئة له والاجبار عليه ، وإنما المقصود تهيئة الأسباب والمسببات ، فطبيعة المترفين ستؤدى للفسق ، والفسق سيؤدى للخراب والدمار (٣) .

ومن أحاديث الرسول ما يؤيد تحريم الترف واستهجانه ، فقد روى أبو داود « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج لأحدكم بنجيات معه قد أسمنها ويمر بأخيه قد انقطع فلا يجمله ، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباج » ويحذر الرسول من السرف والخيلاء فى قوله « كل ما شئت والبس ما شئت ما خطأك اثنتان : سرف ومخيلة » (٤) .

وحرم الاسلام على الرجال لبس الحرير والترين بالذهب ، كما حرم استعمال آنية الذهب والفضة فقد روى حذيفة « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة فانها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » أما النساء فيجوز لهن لبس الحرير والترين بالذهب لأن ذلك يناسب المرأة لضرورة أن تبدو لزوجها فى مظهر حسن ، ثم لأن الرجال أكثر اختلاطاً بالحياة العامة ، فالترف معهم يؤذى الفقير ويؤله ، بخلاف المرأة لأن اختلاطها بالحياة العامة محدود جداً عن اختلاط الرجال .

ويجب أن يكون واضحاً أن تحريم الترف ليس معناه الشخف

-
- (١) سورة الفرقان : الآية ١٨ .
 - (٢) سورة الاسراء : الآية ١٦ .
 - (٣) اقرأ الكشاف ج ٢ : ص ٣٣٥ .
 - (٤) رواه الترمذى .

والمتكشف ، فالاسلام لا يعرف هذه الخشونة المحصنة • ويهتف بالمسلم :
 « وأما بنعمة ربك فحدث » (١) ويقول تعالى في آية أخرى « قل من حرم
 زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) وقد نهى الاسلام عن
 البخل والتقتير ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبذرها
 كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً » (٣) وروى أبو الأحوص الجشسي عن
 أبيه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أطمار فقال : هل لك من
 مسال ؟ قلت : نعم • قال : من أى المال ؟ قلت : من كلِّ قد آتتني
 الله من الثمالة والإبل • قال : إذا آتاك الله مالا فليزأثر نعمته عليك •
 فالرسول يرى أن عدم إظهار النعمة إنما هو ضرب من إنكار فضل الله
 وعظائه • وروى جابر أن الرسول رأى رجلاً أشعث قد تفرق شعره فقال :
 أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال :
 أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟

انتهيناً الآن من إيضاح النصيب الذي يُلزم الشرعُ الغنى أن
 يسهم به للتقريب بين مظهره وبين مظهر الفقير ، وهذا النصيب هو
 ترك الترف مع عدم الوصول إلى الشطف والتكشيف والخشونة ، أما
 النصيب الذي على الفقير أن يؤديه فهو أن يرتفع بمستوى مظهره حتى
 تضيق الهوية بينه وبين الغنى • وطريقة ذلك أن يتبع تعاليم الاسلام
 التي تحث الفقير على العمل والسعى في طلب الرزق بإخلاص ومثابرة
 ونشاط ، قال تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٤) وقال :
 « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » (٥) وقد
 وردت أحاديث كثيرة في هذا الشأن ، فقد روى الترمذي أنه صلى الله
 عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »

-
- (١) سورة الضحى : الآية ١١ .
 - (٢) سورة الاعراف : الآية ٣٢ .
 - (٣) سورة الاسراء : الآية ٢٩ .
 - (٤) سورة الملك : الآية ١٥ .
 - (٥) سورة الجمعة : الآية العاشرة .

وسوءى الله سبحانه وتعالى بين العامل المكافح وبين المجاهد في سبيل الله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » (١) وروى أن الرسول كان جالساً يوماً مع أصحابه ، فرأوا شاباً ذا جلد وقوة قد بكر يسعى ، فقال أحد الجالسين : وَيَحَ هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال عليه السلام : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » بل ان الاسلام جعل منزلة العمل أسمى من منزلة الانقطاع للعبادة ، فقد روى أن قوماً قدموا على النبي عليه السلام فقالوا « إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر فقال : أيكم يننى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا . قال : كلكم خير منه . ويروى أن عمر بن الخطاب نظر الى رجل مظهر للنسك متملوت فحققه بالدرة وقال : لا تثمت علينا ديننا أمانك الله (٢) .

وهناك حديث شريف يرقى بكسب العبد الى ارقى الدرجات ، حتى أنه يغرى بالعمل ، ويجعل النفس تتوق اليه وهو قوله عليه السلام « أحلّ ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح » .

وكان عمر بن الخطاب اذا رأى غلاماً فأعجبه سأل : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا قال : سقط من عيني (٣) .

فإذا عمل الفقير وكسب ما يسد به حاجته ، فإن عليه بعد هذا أن يحسن مظهره وبخاصة في المجتمعات التي ستجمعه مع الغنى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٤) . وينزل الغنى درجة تبعد عن الترف ،

(١) سورة الزمل : الآية ٢٠ .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ : ص ٥١٠ .

(٣) ابن الجوزي : مناقب عمر .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣٠ .

وصعود الفقير درجة بكسبه وأخذه زينته ، يتحقق هدف الاسلام السامى من التقريب بين الفنى والفقير في مظهريهما ، كما يتضح اتجاه الاسلام في تعظيم العمل ، والحث عليه ، وبيان فضله وأنه يصدّ عبادة من العبادات •

٤ — المال مال الله :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول ، ولكن المقصود من هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل إنه ملكية الظاهر أو ملكية الانتفاع ، أما المالك الحقيقى لكل شىء فهو الله سبحانه وتعالى : « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » (١) • « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٢) والمالك الأعظم الذى « لم يكن له شريك فى الملك » (٣) متّح حق الانتفاع أو متّح الملكية الظاهرية التى نسميها الملكية الفردية الى بعض خلقه ، قال تعالى :

- هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها (٤) •
- ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٥) •
- وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٦) •
- وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه (٧) •
- وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٨) •

وهناك آية أخرى تدل على أن الله خلق الكل للكل : قال تعالى :

-
- (١) سورة المائدة : الآية ١٧
 - (٢) سورة المائدة : الآية ١٢٠
 - (٣) سورة الاسراء : الآية ١١١
 - (٤) سورة هود : الآية ٦١
 - (٥) سورة لقمان : الآية ٢٠
 - (٦) سورة الجاثية : الآية ١٣
 - (٧) سورة الحديد : الآية ٧
 - (٨) سورة النور : الآية ٣٣

« وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعه أيام سواء للسائلين » (١) فان الآية تدل على أن الرزق قدّر في الأرض لكل سكان الأرض ، وكلمة «سواء» تفيد الشمول للخلق جميعاً ، دون أن يختص بالرزق أحد على أحد . وكلمة « للسائلين » تعنى الساءء بن للرزق ، الطالبين له ، المبتغين من فضل الله .

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا ابن آدم ، تقول : مالى مالى ، ومالك من مالك إلا ما أكلت فأغثيت ، أو لبست فأبأيت ، أو أعطيت فأمضيت (٢) .

وقد سبق القول ان الاسلام يحرس الملكية الفردية ، ومعنى هذا أنه ليس لإنسان أن يعتدى على ما استخلف الله فيه شخصاً آخر ، أو أن يعمّره هو مادام الله وكل عمرانه لشخص آخر ، وينسى كثير من الناس هذه الحقيقة وهى أن المال عارية مستردة فيطغون به « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (٣) » . وتشنتط طبيعة النسيان والجحود في بعض الناس فيتباهون بما في أيديهم ، ويعتقدون أنه مالهم كسبوه بخبرتهم ومواهبتهم ، وتكون عاقبة هؤلاء أن يسترد الله منهم ما آتاهم ، وربما مسوم هم الضر مع زوال المال نتيجة لما اقترفوه من الجحود والكفران ، وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ، ونحن نورد منها: مثالين لا يحتاجان الى تعليق ، قال تعالى :

« وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها وأم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالها نهرا ، وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن

(١) سورة فصلت : الآية ١٠ .

(٢) البقره : الكمال ج ١ : ص ٣٢٩ .

(٣) سورة العلق الآيتان : ٦ - ٧ .

تبيد هذه أبدا ، * * * * * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا » (١) ويختم الله سبحانه وتعالى هذه القصة بقوله « هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبي » ومعنى الولاية النصر والعون ، وقرأ حمزة والكسائى الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان فالملك والسلطان فى مثل هذه الظروف يظهران للعيان أنهما لله الحق وحده جل جلاله ،

أما المثال الثانى فيرتبط بقارون وثروة قارون التى هى حتى الآن مضرب المثل فى الضخامة ، والتى أزالها الله وأزاله معها فى لمح البصر ، قال تعالى « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناهم من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أوى القوة ، إذ قال له قومه : لا تقرح ، إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال : إنما أوتيته على علم عندى * أو لم يعلم أن الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون فخبسنا به وبداره الأرض ، فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم « إن لله عند قوم نعمة أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج الناس ، ما لم يملكوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم » .

ويترتب على هذه الحقيقة الهامة وهى أن المال مال الله استخفاف فيه

(١) سورة الكهف : الآيات ٣٢ — ٣٣ .
(٢) سورة القصص : الآيات ٧٦ — ٧٧ .

البشر ، أن الانسان ليس مطلق التصرف فيما تحت يده ، أو في الذى نطلق عليه مجازا أنه ملكه ، ولو كان هذا الشيء ملكا خالصا للشخص لكان له أن يتصرف فيه على ما يَحب ، ولكنه في الحقيقة وكيل فيه ؛ ولذلك فهو يخضع في التصرف في هذا المال الى نظم معينة وضعها المالك الحقيقي سبحانه وتعالى ، وأهم هذه النظم ما يلي :

١ — لا يجوز له أن يكنزه بل لابد أن يطلقه للتعامل فينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، فإذا كنزه استحق غضب الله عليه « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشروهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » (١) •

٢ — لا يستعمله في رشوة فإن استعمله في رشوة فقد عصى المالك واستحق غضبه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتثدوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الراشى والمرتشى في النار » •

٣ — لا يسرف في استعماله فإذا أسرف تعرض لقت الله وغضبه « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (٣) ، ومدح الله المعتدلين وذم المسرفين والمفتريين في قوله « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٤) وجعل الله المسرف أخصا للشيطان : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٥) •

(١) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ — ٣٥ •

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٨ •

(٣) سورة الانعام : الآية ١٤١ •

(٤) سورة الفرقان : الآية ٦٧ •

(٥) سورة الاسراء : الآيتان ٢٦ — ٢٧ •

٤ — لا يَسْتَعْمِلُ الْمَالَ فِي الْاِحْتِكَارِ وَانْتِهَازِ الْفُرْصِ وَإِلَّا تَعْرُضُ لِسُخْطِ اللَّهِ وَبِرِيءِ اللَّهِ مِنْهُ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « مَنْ اِحْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَرِيدُ بِهِ الْغَلَاءَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ اللَّهِ وَبِرِيءِ اللَّهِ مِنْهُ » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا « الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمَحْتَكِرُ مَلْعُونٌ » وَقَالَ « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » •

ومن صور الاحتكار التي يميقتها الاسلام ويحاربها بعنف نوع كثير الانتشار في هذه الأيام ؛ فهذا تاجر مبتدئ افتتح له حانوتا يبيع فيه نرعا من الأنواع رجاء أن يربح قوته وقوت أولاده ، ولكن الرأسماليين لا يريدون أن يفتحوا الطريق للنائسين ، وحينئذ يطن هؤلاء الرأسماليون حربا مالية ضد هذا المسكين ، فيعمدون الى الأصناف التي يبيعها فيخفصون أثمانها بقدرٍ بارز ، ويقع هذا المسكين في حيرة ، فسان جارا هم في خفض الأسعار جر على نفسه الدمار ، وإن بقى محتفظا بأسعاره أعرض عنه المشترون فلحقه البوار ، ولا يقوى هذا الناشئ على المقاومة الطويلة فيترك لهم المجال ، ويذهب ضحية من ضحايا طغيان الرأسمالية • ومثل هذا التصرف تمرشد على القانون الإسلامي الرشيد •

٥ — لا يَسْفِهْ فِي تَصْرِيْفِ الْمَالِ ، فَإِنْ سَفِهَ فِي اسْتِعْمَالِ مَالِهِ حَجْرٌ عَلَيْهِ ، وَسُئِبَ مِنْهُ حَقُّ التَّصْرِفِ فِي ذَلِكَ الْمَالِ ، قَالَ الْفُقَهَاءُ : وَالْحَجْرُ يَكُونُ عَلَى الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ وَالسَّفِيهِ وَالْمُبْذِرِ لِمَالِهِ وَالْمُفْلِسِ الَّذِي ارْتَكَبَتْهُ الدِّيُونُ ، وَلِيُنَوِّبَ وَلِي كُلِّ عَنَهُ فِي التَّصْرِفِ فِي الْمَالِ حَتَّى يَرْتُدَّ السَّفِيهِ أَوْ يَكْبُرَ الصَّغِيرَ ، وَقَدْ قَرَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَخْذَ حَقِّ التَّصْرِفِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْحَهُ لِأَوْلِيَائِهِمْ قَالَ تَعَالَى « فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا (صَغِيرًا) أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ (أَيَّ مَجْنُونًا) فَلْيَمْلِكْ وَايَهُ بِالْعَدْلِ » (١) ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢ •

ونظم الفقهاء الولاية فجعلوها للاب ، فالجد ، فالوصى ، ثم الحاكم لقوله عليه السلام « السلطان ولى من لا ولى له » (١) .

٦ — لا يستعمله في ربا : إذا تحقق المبدأ الرئيسي الذي نتكلم عنه وهو أن المال مال الله ، فلا يجوز أن يتخذ مخلوق من البشر وسيلة لتعذيب البشر ، ثم إن طريق الحصول على المال هو العمل ، أما أن يجلس المرابي ، ويربو ماله على حساب جهد المحتاج وعرقه ، فهو ما يجرمه الاسلام تحريما قاطعا ، ولا نظن ان المشرع الحكيم قسا في شيء قسوته على المرابي قال تعالى « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) وقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٣) ولا يقف جرم الربا على المرابي ، بل يدخل معه كاتبه وشاهده ودافعه . قال جابر « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده ، وقال : هم سواء » (٤) .

ولابد في الحديث عن الربا أن نعطي بعض تفاصيل الأهمية ذلك الموضوع : ولعل أهم ما نبادر باثباته أن الأديان السماوية جميعا قد حرمت الربا ، فاليهودية حرمت الربا ، وعلى الرغم من ذلك اتخذ اليهود الربا صناعة مفضلة لهم ، وبرعوا في الاتجار بالمال ، والمسيحية كذلك حرمت

(١) انظر باب الحجر في كتب الفقه الكثرة .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٤) رواه مسلم .

الربا وهاجمته وهاجمت المتناملين به ، وليست الأديان السماوية قدما هي التي حرمت الربا ، بل إن المفكرين العاديين استطاعوا أن يدركوا ما في الربا من خطر على الفرد والمجتمع فقالوا بتحريمه ، ولعل أقدم من حرم الربا من المفكرين هم المصريون القدماء ، وفي العصر الحديث نجد كارل ماركس وهو الذى وضع الخطوط الرئيسية للمذهب الشيوعى يقول أيضا بتحريم الربا .

وإذا جاز لقوم أن يناقشوا حل الربا وحرمة فإن المسلمين بالذات لا يجوز لهم — فيما أعتقد — إلا أن يسلموا بالنظرية القائلة بتحريمه ، وليس ذلك لأنهم مسلمون فحسب ، بل لأن الدول الاسلامية فى العصر الحديث قاست الواناً من الاستبداد ، والاستعمار والاستغلال ، وهذه كلها جاءت ولبدة الربا ، فالاستعمار فى البلاد الاسلامية بدأ عن طريق المرابين من الأفراد والشركات الذين وفدوا إلى الشرق الاسلامى وأقرضوا الناس ، وأقرضوا الحكومات ، وبمرور الزمن تحكّم هؤلاء فى ثروات البلاد وأصبح الأفراد والحكومات مدينين لهم ، ثم كانت الخطوة التالية وهى تدخل الدول التى جاء منها هؤلاء المرابون لتحميم هذه الدول وتحصى أموالهم ، وهكذا عانت مصر من صندوق الدين ألوانا من العذاب ، وعانت إندونيسيا من اللجنة الهولندية صنوفا من الضغط ، وعانت كل البلاد الاسلامية والشرقية نفس النتائج المصيبة ، ومضى الزمن ، واشتد الاستعمار ، واستحكمت خلفاته ، وتحكّم فى مصير الدول الاسلامية ، وابتز أموالها ، وأوقف سياستها ، وقضى على الحريات بها والدّين لا يزال ينمو وينمو ، حتى إن إندونيسيا بعد أن سلب الهولنديون ثروتها ومنجاتها أكثر من ثلاثة قرون ، خرجت من الاستعمار وهى مدينة بمئات الملايين من الروبيات دينا لا يرتكز على عدل أو قسطاس مما جعل الحكومة الإندونيسية تعلن فى الرابع من سبتمبر سنة ١٩٥٦ إلغاء هذه الديون الظالمة الجائرة .

ولماذا حرم الإسلام الربا ؟

حرم الإسلام الربا ليحارب جشع الغنى الذي يسعى ليزيد ماله من عرق الفقير ، إنها في الحق قسوة عاتية أن يزداد مال الغنى على حساب المحتاج وعلى حساب الذي يستدين ليعالج ابنه أو أهله من مرض ، أو يرد عادية من عادات الزمن .

إن على الغنى أن يقرض الفقير قرصاً حسناً لا ربح فيه ، وأن ينتظره إلى ميسرة إن جاء أو أن السداد والمدين ذو عسرة ، بل في هذه الحالة ينبغي أن يحطّ الغنى عن المدين بعض الدين أو كله عملاً بقوله « وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم » وعلى الفقير أن يجتهد في تسديد دينه وسيساعده الله على ذلك ما أخلص في نيته ، فقد جاء في الحديث الشريف « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه » (١) وليحذر المدين المظلّم عند المقدرة على السداد فقد قال الرسول عليه السلام « مظلّم الغنى ظلم » (٢) فإذا تعذر على الفقير السداد سأل عنه من مال الزكاة من سهم الغارمين .

تلك هي فكرة الاسلام فيما يتعلق بالربا ولا نزاع في أنها فكرة إنسانية رائعة ، إنها تتلخص في مبدأ رائع ، هو أن الاسلام يكره أن ينال شخص السعادة على حساب شقاء الآخرين ، وربما غالى هذا المرابي فتمنى للناس الأزمات والضيق حتى يلجئوا إلى الاقتراض منه ، ومثل هذه الأمنية تمحق المجتمع ، وتقطع أوصاله ، وتقتضى عليه .

٥ - مبدأ حق الفقير في مال الغنى :

هذا المبدأ من أهم المبادئ في التشريع الاسلامي ، ويهمننا أن نبرز هنا كلمة « حق » بمداولها الكامل ، فالذي يأخذه الفقير أو يأخذ الدولة

(١) رواه النسبة

(٢) رواه البخاري .

من مال الغنى ليس منحة ، وليس عطاء ، وليس تفضلاً ، ولكنه حق ، فاذا نكص الغنى عن تسليم ذلك الحق ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه ، ولو بالقوة والسلاح ، وقد روى عن أبي بكر قوله : والله لو منعوني عقال بغير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه .

وكلمة « حق » هذه وردت في القرآن بهذا النص إبرازاً للمعنى الذي شرحناه ، قال تعالى :

- وآت ذا القربى هقة والمسكين وابن السبيلى (١) .
- وآتوا هقة يوم حصاده (٢) .
- وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٣) .

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى مال الغنى ، ويهمننا أن نوضح قصور هذا الرأى ، ويهمننا أن نذاع الحقيقة فى هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الإسلامى على وجهه الأكمل ، فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق هما :

(أ) حق محدد ، ثابت ، دائم ، هو الزكاة ؛ فهى مقادير محددة ، فى وقت معين ، وتُدفع فى جميع الظروف ، وهذا الحق هو القدر الأدنى فى مال الغنى .

(ب) حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم ، وذلك القسم هام جداً فى التفكير الإسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة ، وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند

(١) سورة الاسراء : الآية ٢٦ .
(٢) سورة الانعام : الآية ١٤١ .
(٣) سورة الذاريات : الآية ١٩ .

الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس بُو الدولة ، ويستط إذا لم توجد هذه الحاجة • ويمكن أن نسميه الإنفاق الواجب للصالح العام •

وستتكم بشيء من التفصيل عن كل من هذين النوعين :

١ — الزكاة :

الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة ، وهى ركن حافل بالثقافة الروحية ، ولقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العالم فى أثناء هذه الرحلة فينضا من الدماء وألوانا من الحروب التى تسببت عس المال بسبب التراحم عليه ، والتكالب لنيه ، وقد وصف الاسلام الدواء للبشرية منذ أربعة عشر قرنا ، ولكن كثيرين من الناس صمّوا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة ، وهبت الحروب وأريقّت الدماء ، ثم وجد العالم أن لا بُد من أخذ قسط من مال الغنى وردّه الى الفقير ، بل بالنت بعض التشريعات فأزالت الملكية تماما ، وحددت التوارث أو منعه ، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصواب ، فحصر الثروات فى أيّد قليلة شر لا يقره العقل ولا يقره الاسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (١) ، والمساواة التامة بين الناس شىء يناقض الطبيعة ، فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والجمال والصوت وغيرها كما سبق القول ، فكيف نسوّى بين الناس ؟

والطبيعة تجعل الأبناء يرثون آباءهم فى كثير من صفاتهم أو فى كلها ، فكيف نحرم الأبناء من ميراث مال الآباء ؟

إن المنطق والعقل يريان أن السبيل الصحيح هو الطريق الوسط ، هو اتجاه الاسلام ، وتحقيق مبادئه الاقتصادية •

و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٢) • وطبيعة الانسان الشح « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكنم خشية الإنفاق ،

(١) سورة الحشر : الآية السابعة .

(٢) سورة الكيف الآية ٤٦ .

وكان الإنسان قتورا « (١) والإنسان يعمل لينمّي ماله في تجارة أو زراعة أو غيرها ، ثم يقدم الزكاة من هذا المال العزيز الذي كده في جمعه وتنميته والذي هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنها رياضة روحية رائعة فرضها الاسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح ، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التي لا يُشغَل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم ، فالاسلام بالزكاة ينقل الانسان من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الفردية إلى دنيا الجماعة ، فيحس أنه فرد في هذا المجتمع ينتفع به وينفعه .

وقبل الاسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغنى ، يدفعها من عرقه وجهده ، فإن لم يكف العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه ، فجاء الاسلام وصحح الوضع ، فجعل الضريبة على الغنى يدفعها لصالح الفقير .

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لها تحدث في عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذي يأخذ الخير كله لنفسه ، فيهبذ في وجهه ، وتراق الدماء ، وتكثر الضحايا من الجانبين ، وهذه الكلمات تكتب وهناك في بعض البلاد دماء تسيل ، وأرواح تزهق من هذا النوع ، ولكن الاسلام شهد حربا من نوع آخر ، إنها حرب أشعلها الحاكم لمصلحة الشعب ، إنها تلك الحرب التي قادها أبو بكر وهو يهتف هتافه الذي أوردناه أنفا : « والله لو منعوني عقال بغير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ، ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ .

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحاني بالغ العناية ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

(١) سورة الاسراء الآية ١٠٠ .

وتزكيتهم بها» (١) . ووضع النظام الاسلامي أسس العدالة الاجتماعية في أسسها معانيها ، فجعل (المال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة وتنميه ، ثم تنتفع به الأمة كلها) يخرج من أحد جانبيها ويقع في الجانب الآخر ، فهو منها تكافل ، ومنه اليد العظيمة واليد الآخذة إلا يدان العسيرة واليد كالتكافل . والتمسك بذلك الخصوصية ، ولا ينادم فيها ، ولا يستنوم ، ولما هما مفادان انسانية واحدة هي شخصية المجتمع الذي لا تقوم له ولا ياء إلا (٢) . ويترتب القرطبي (٣) الزكاة بأنها مأخوذة من التركيبة أي التطهير ، فكان الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعله الله فيه للمساكين .

وآيات الزكاة التي وردت ، في القرآن كثيرة ، وغالبا ما ترد مع الصلاة قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٤) . وقال « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (٥) .

والأنواع التي تجب فيها الزكاة خمسة :

التقدي (الذهب والفضة) — عروض التجارة — السوائم — الزروع — الثمار .

ويشترط لوجوب الزكاة في كل من هذه الأنواع أن يصل المال الى مقدار معين جعله الشارع دليلا على الغنى واليسار ، فإذا لم يصل المال الى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والغناء ، وأن

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٤ .
 (٢) الاسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، ص ٨٧ — ٨٨ .
 (٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ، ص ٣٤٣ .
 (٤) سورة البقرة : الآية ٤٣ .
 (٥) سورة المؤمنون : الآيات ١ — ٤ .

تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حدّ قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها .

وأول نصاب الأبل خمس، وفيها شاة . فإذا بلغت عشرة ففيها شاتان .

أول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أنثى ستة أشور ، فإذا بالوا أربعين ففيها مسنة أتمت سنة .

وفي أربعين شاة إلى مائة وعشرين شاة ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه وفي أربعمائة أربع شياه ، ثم في كل مائة شاة .

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر .

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سقيت بالسيح أو الأمطار ، فإذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر .

وقد ذكرت ذلك لأدون ملاحظة مهمة هي أن زكاة الزروع والثمار أكثر جدا من زكاة سواها ، فهي العشر أو نصف العشر على الأقل ، ولكنها ربع العشر في النقد وعروض التجارة وأقل من ربع العشر في السائمة ، ويبدو لي في الإجابة عن هذه الملاحظة أن الشارع كان أكثر اهتماما بالطعام منه بغيره ، وأن ظهور الزرع للفقير وطول بقائه في الحقل أمام عينه ، جعل الفقير أكثر طمعا في الزروع منه في غيرها من التجارة والنقد ، تلك التي لا يراها الفقير إلا للما .

وهناك تعليل آخر هو أن زكاة الزروع والثمار هي زكاة في ثمرة ، أما رأس المال وهو الأرض الزراعية . فغير داخلية في التقدير الحسابي ، أما ما عدا الزروع والثمار من نقد أو تجارة أو سوائم ، فرأس المال داخل في النصاب ، ويُدفع قدر الزكاة عن رأس المال ومن الربح جميعا .

وفي مجتمع المدينة كان عامل الزكاة يتولى جمعها وتقديمها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يتولى توزيعها على مستحقيها الذين

ورد ذكرهم في الآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » (١) وكان توزيع الزكاة يتم بمجرد أن يتسلمها الرسول ، وقلما كان يبقى منها شيء يزيد عن حاجة المستحقين ، وحينئذ كان يحتفظ به الرسول حتى تحين الحاجة إليه ، ويروى الماوردي أن بعض الابل والماشية بقيت لدى الرسول مرة فمكيزها عن غيرها من أموال المسلمين بمراع خاصة بالبقيع يعبرون عنها بالحمى ، كما وسمها الرسول بمسيم خاص حتى تميز عن سواها (٢) .

وقبل أن نترك الزكاة ينبغى أن ندون ملاحظتين هامتين :

أولاهما : حرص المسلمون على أن يؤديوا زكاة أموالهم الى مستحقيها .
وثانيهما : عفة الفقراء من المسلمين ، فقد كانوا بين كاسب قوته بعمله ، وبين قانع بالكفاف يناله من الزكاة دون أن يطمع في المزيد .
وقد نتج عن هذين الاتجاهين أن أصبح المسلم في أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يحمل زكاته ويطوف بها فلا يجد من يأخذها منه (٣) .

وكثيرا ما أسهمت الزكاة في خلق فرص العمل للفقراء ، فمن الواضح أن من الزكاة ما يدفع للعاجز أو الضعيف حتى يحتمل المجتمع ذلك العضو الذي هاض وأضمحل ، ومن الزكاة ما يدفع للفقير القادر على العمل ليكون رأس مال له في تجارة ينميها أو زراعة أو صناعة يعرفها ، ولمثل هذا كانت الزكاة تدفع مرة أو أكثر حتى يستقيم أمره ويشتد عوده ، وكان

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ ، وائرا « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » للمؤلف .

(٣) تكتور عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٢٣ .

عمر بن الخطاب يحدث الرعاة أن يبتاعوا غنماً يهديهم من الزكاة أبيضاً
ثروة يفتخرونها ، وكان أكثرهم يستجيبون لعمر ويعملون بنصيحته .

(ب) الإنفاق الواجب للصالح العام :

تمر بالدولة أو بالأفراد ظروف خاصة ، أو أزمات و حرج ، وتستلزم
هذه الظروف وتلك الأزمات أن يسهم الأغنياء بنصيب آخر غير الزكاة من
مالهم لرد الخطر عن الدولة أو لإزالة الأزمة عن الفرد ، فالظروف
القاسية هنا ليست خاصة بالدولة فقط ولا بالفرد فقط ولكنها تشملهما
جميعاً ، وهي في حالة الدولة يُسأل عنها جميع الأغنياء في الدولة ، وفي
حالة الفرد تُسأل عنه الدولة ويسأل عنه من عرف ذلك من الأغنياء
كأقاربه وجيرانه .

ربما ظن البعض أن هذه الأفكار جديدة ، ولقول لهؤلاء : نعم إنها
جديدة من ناحية الإذاعة والإعلان عنها ، ولكنها ، ليست جديدة فيما
يختص بالتشريع الاسلامي ، بل إنها قديمة فيه ، ووجدت منذ العهد المبكر
للإسلام ، وطبقت في المجتمع الاسلامي الأول الذي نتحدث عنه ، والذي
كونه الرسول عليه السلام في المدينة .

والأدلة على هذا النوع من الإنفاق صريحة وواضحة في مصادر
التشريع الاسلامي ، يقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة
والكتاب والنبیین ، وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى ، والمساكين
وابن السبيل والمسائلين ، وفي الزقَاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » (١) .
فمن الواضح أن الآية الكريمة ذكرت اعطاء المال لذوى القربى واليتامى
وغيرهم ، ثم عرجت فذكرت دفع الزكاة . ومن هنا يتضح أن الزكاة شيء ،

وَأَنْ اغْتَاةَ الْمُهَوَّبِ وَسَدِ الْخَلَّةِ سُبَيْهِ آخِرٌ • وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ الْعَفْوُ » (١) • أَيْ الْفَضْلَ الَّذِي يَبْتَقَى بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ دُونَ بَأْوِغِ الْجِهْدِ ، وَتَرْتَبِطُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِقِصَّةِ رَجُلٍ نَالَ مَرَّةً بَيْضَةً مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَاءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَالَ لَهُ : خَذَهَا مِنِّي صَدَقَةً لِلْفُقَرَاءِ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسُولُ وَاسْتَدَارَ ، فَدَارَ الرَّجُلُ حَتَّى وَاجَهَ الرَّسُولَ مَرَّةً أُخْرَى وَأَعَادَ قَوْلَهُ ، فَأَعْرَضَ الرَّسُولُ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا كَرَّرَ الرَّجُلُ هَذَا الْعَرَضَ أَخَذَهَا الرَّسُولُ مِنْهُ وَهُوَ مَغْضَبٌ ، وَقَالَ : يَأْتِي أَحَدَكُمْ بِمَالِهِ كُلَّهُ يَتَصَدَّقُ بِهِ وَيَجْلِسُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ، أَمَّا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنَى (٢) •

وَيَقُولُ النَّسْفِيُّ (٣) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَا نَصَّه : « الْعَفْوُ مَعْنَاهُ الْفَضْلُ • أَيْ أَنْفَقُوا مَا فَضَّلَ عَنْ قَدْرِ الْحَاجَةِ ، وَكَانَ التَّصَدُّقُ بِالْفَضْلِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ فَرَضًا ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَاحِبَ زَرْعٍ أَمْسَكَ قَوْتِ سَنَةٍ وَتَصَدَّقَ بِالْفَضْلِ ، وَإِذَا كَانَ صَانِعًا أَمْسَكَ قَوْتِ يَوْمٍ وَتَصَدَّقَ بِالْفَضْلِ ، فَتَنَسَخَتْ آيَةُ الزَّكَاةِ الْعَفْوِ » وَنَحْنُ نُوَافِقُ النَّسْفِيَّ عَلَى أَنَّ آيَةَ الزَّكَاةِ نَسَخَتْ كَوْنِ التَّصَدُّقِ بِالْفَضْلِ فَرَضًا دَائِمًا ، فَفِي الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ تَكْفَى الزَّكَاةُ • أَمَّا فِي الظُّرُوفِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ فَيَتَحْتَمُّ عَلَى الْقَادِرِينَ أَنْ يَدْفَعُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَسُدُّ الْحَاجَةَ •

وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ : « مَا آمَنَ بِي رَجُلٌ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ جَائِعًا إِلَى جَانِبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ » وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « أَيُّمَا أَهْلٍ عَرَضَتْ أَدْبِحَ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعًا فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ » (٤) • وَقَدْ اتَّضَحَ مِنَ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ لَمْ يُعْتَفَ هُوَ لَاءٌ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ عَدَمِ دَفْعِ جَدِيدِ زَائِدٍ عَنِ الزَّكَاةِ

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٩ •

(٢) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٤٦ •

(٣) تفسير النسفي ج ١ ص ٧٦ •

(٤) مسند أحمد •

إذا كانت الزكاة لم تكف لسدِّ الحاجة • وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث صريح (١) « إن في المال حقا سوى الزكاة » •

ويقول ابن حزم الأندلسي (١) : « وفرض " على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقودوا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تنقم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأتون من القوت الذى لأبد منه ، ومن اللباس المشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكتفهم من المطر والشمس وعيون المارة • وبرهان ذلك « فأت ذا القربى حته والمسكين وابن السبيل » (٢) •

ويقول ابن حزم الأندلسي في موضع آخر (٣) . ولا يعتبر المسلم مضطرا لأكل لحم الميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عند صاحبه المسلم أو الذمى ، لأن فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع فإذا كان ذلك فليس به مضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فان قُتِلَ فعلى قاتله القود ، وان قُتِلَ المانعُ فإلى لعنة الله ، لأنه منع حقا. وهو طائفة باغية ، قال تعالى « فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفىء إلى أمر الله » (٤) ، ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق •

ويقول ابن تيمية (٥) : « إذا قُدِّرَ أن قوما اضطروا الى سكنى فى بيت إنسان إذ لم يجدوا مكانا يأوون إليه الا ذلك البيت فعليه أن يسكنهم ، وكذلك لو احتاجوا الى أن يعيرهم ثيابا يستدفنون بها أو الى آلات يطبخون بها أو يبنون أو يسقون ، فانه يجب أن يبذل صاحبها هذا مجانا إذا كان مستغنيا عن تلك المنفعة وعن عوضها •

(١) رواه الترمذى .

(٢) المحلى ج ٦ ص ١٥٦ .

(٣) سورة الروم : الآية ٣٨ .

(٤) ص ١٥٩ من الجزء السادس سالف الذكر .

(٥) سورة الحجرات الآية التاسعة .

(٦) السبىة فى الاسلام ص ٣٧ - ٣٨ .

وروح الدعوة المحمدية واضحة في أن الزكاة وحدها لا تبرىء أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، ، فما دام هناك محل للبرِّ والصدقة فهي واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة ، فيجب إذاً أن نستلهم من شريعة الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لنؤازرَ بين الثروات والحاجات ، ونقيم التكامل الاجتماعي ، ونقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (١) .

وكما أن هذه النفقة غير دائمة فهي غير ثابتة الوقت ، فمن المعلوم أن وقت زكاة الزروع هو وقت الحصاد ، وزكاة التجارة تتوقف على الحول ، أما هذه النفقة التي نتحدث عنها فليس لها وقت محدد ، وإنما تحين وقت الحاجة لها من جانب الدولة أو جانب الفرد ، ووقت القدرة على دفعها من جانب الغنى .

ومقدار هذه النفقة غير محدود أيضاً فهو يتوقف على ظروف الحاجة وعلى ظروف الدافع ؛ ومن الممكن عند الاقتضاء أن يرتفع فيشمل نصف المال أكثر من النصف حسب الظروف والأحوال .

وإذا سخا الأغنياء فقدموا من تلقاء أنفسهم للدولة ، أو للأفراد ما يسد الحاجة كان في ذلك الكفاية ، فاذا ضنوا بالمال ، أو كان بذلهم غير كاف فإن الإمام أن يصدر التشاريح التي تحتّم عليهم دفع ما يسد الحاجة كما ذكر ابن حزم فيما سبق ، والمجتمع الإسلامي في الفترة التي نتحدث عنها كان ورعاً ، تغلب عليه الجانب الروحي ، وضعفت قيمة المادة لديه ؛ ومن أجل هذا كان عطاء الناس موسوماً بطابع السخاء . مما جعل الرسول صلوات الله عليه يحاول أن يرد ما تصدق به بعض المسلمين ، لاعتقاده أنهم يتصدقون بما هم في حاجة إليه كما مر في قصة الرجل الذي أراد أن يتصدق ببيضة الذهب التي كانت كل ما يملك .

(١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٧٩ .

ونجد الأتصار كذلك يقدمون بسخاء من أموالهم ودورهم للمهاجرين « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) .

وكان المجتمع الاسلامى فى هذه الفترة سمحا كما سبق القول ، ولذلك لم يلجأ الرسول الى التشريع ، وكان يكفى أن يهيب بالناس فيستجيب الناس ، ولعل غزوة تبوك كانت من أقسى الامتحانات التى مرت بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العهد ، فالثقة بعيدة ، والغزوة فى وقت الحصاد ، والمركة ضد الروم ، مما يبعث على الخوف ، ولكن المجتمع الاسلامى نجح فى التغلب على هذه الصعاب ، وعلى ما أثاره المنافقون من تثبيط ومخاوف : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » (٢) . قال ابن هشام (٣) : (ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جد في الاعداد لاسفر ، وأمر الناس بالجهاز ؛ وحض أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله ؛ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) وقد ذكر بعض المؤرخين أن ما أسهم به عثمان فى هذه الغزوة كان تسعمائة وخمسين بغيراً وخمسين فرساً ، وألف دينار (٤) .

وعندما حل بالحجاز جذب وتطلع الناس الى ما قد يرد من الشام من حب وزيت ، أقبلت لعثمان ألف بغير تحمل براً وزيتاً وزبيبا ، فجاءه التجار يريدون أن يشتروا منه ما حملت العمير ، وأن يتربحوه الدرهم درهمين أو ثلاثة ، ولكنه قال لهم : أعطيت عشرة . فسألوه : من أعطاك

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .

(٢) سورة التوبة : الآية ٨٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ٣١٦ .

(٤) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ، ص ٣٣ .

عن الدرهم عشرة ؟ سأجاب : أعلماني الذى يقول « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) فهل عندكم أكثر من عشرة ؟ فقالوا : لا . فقال أشهدكم أن هذه العير وما حملت صدقة للفقراء والمساكين .

وعن جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله بالمدينة فجاءه قوم بكيت ثيابهم . فظهر الحزن على وجه الرسول لما رآه فيهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن ولما اجتمع الناس ، خطب فيهم فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لعد » (٣) .

ثم قال : ليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بروه ، من صاع تمره ، حتى يقال ولو بشق تمره .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كوميذ من لسان وذياب ورأيت أموالا كثيرة ، ورأيت وجه رسول الله يتهلل كأنه مذهبة (صفحة مطليبة بالذهب من شدة بشره وسروره) فقال الرسول وهو يعطى الفقراء : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا (٤) .

على أن تدخل الحاكم (هو فى هذه الفترة الرسول صلى الله عليه وسلم) وقع أحيانا ، وكانت الضرورة تدعو لتدخله ، فمن المصروف أن

-
- (١) سورة الانعام : الآية ١٦٠ .
 - (٢) سورة النساء : الآية الاولى .
 - (٣) سورة البقرة : الآية الثامنة .
 - (٤) رواه مسلم .

الأسيرين وخذوا إلى المدينة فقراء لا مال معهم ولا ثروة ، لأنهم كانوا بين فقير لا مال له ، وبين غنى ترك في مكة ماله ودياره وهاجر إلى المدينة بدينه ، وقد سبق القول أن الأنصار أكرموا المهاجرين غاية الكرم ، وآثروهم على أنفسهم ، ولكن بعض المهاجرين كانت فيهم عفة لم تسمح لهم أن ينالوا شيئاً من أموال الأنصار ، ومن المهاجرين من قنع بالقليل من عون الأنصار ، وعلى كل حال فقد كان واضحاً أن غالبية المهاجرين يعانون بعض الضنك إذا قيسوا بغالبية الأنصار ، ولعل الأنصار كانوا مستعدين أن يزيدوا في المنح والعطاء ، ولكن إياء المهاجرين كان يجول دون ذلك . واستمر الحال على هذا ، حتى جاءت موقعة بنى النضير التي تسببت عن تأمر اليهود ضد الرسول صلوات الله عليه ومحاولتهم الفتك به ، ولهذا هاجمهم الرسول وحاصرهم ، فطلبوا الكف عن دمائهم والسماح لهم بالخروج من المدينة على أن يأخذوا معهم ما تحمل الأبل من المال إلا الدروع ، فخرجوا على ذلك ، وأخذ الرسول ما تركوه من أموالهم على أنه فيء ليس للمقاتلين فيه نصيب إذ لم يحصل هناك قتال ، وإنما يترك كله للرسول ليتصرف فيه كما يرى ، وقد أنتهز الرسول هذه الفرصة فلم يوزع الفئ بالتساوي بين المسلمين ، ولكنه استعمله ليعيد به نوعاً من التوازن في الغنى والثراء ، فمنحه للمهاجرين بوجه خاص ولرجلين فقيرين من الأنصار ، وقد يؤكد القرآن الكريم وجهة نظر الرسول وبين أن الثراء يلزم أن يكون مشتركاً متنقلاً ، ولا يجوز أن يقف عند مجموعة من الأغنياء يتداولونه ولا يتعداهم لغيرهم : قال الله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فالله وللمرسول وأذى القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » (١) .

(١) سورة الحشر : الأيتان ٧ - ٨ .

نفقة التطوع :

نفقة التطوع هي أن تقدم مزيدا من الفضل غير القدر الضروري الذى يجب تقديمه للمعطى اليه ، كأن تقدم له بيتا أفسح من بيته ، أو تزوجه وليس الزواج ضروريا له ، أو تزويد من رزقه وعنده ما يكفيه .

وقد انتهينا فيما سبق من الكلام على الحق الواجب فى المال ، سواء فى ذلك الحق المنتظم وهو الزكاة ، أو الحق غير المنتظم وهو الانفاق للصالح العام ، الذى يجب فى ظروفه الضرورة ، ولكن هذين ليسا وحدهما كل ما استمتع به المجتمع الإسلامى الأول ، بل كان هناك نوع آخر أشمل وأوسع ، انه غير واجب على جماعة المسلمين ، ولكن الشرع حث عليه وجعله مندوبا ، وأقبل عليه المسلمون اقبالا يجعل من الحق أن نقرر أن العدالة الاجتماعية كانت طبيعة هذا المجتمع ، فالأغنياء كانوا يجودون بمالهم حتى لو لم توجد حاجة ماسة تستلزم أن يدفع الأغنياء بعض ما يملكون ، والفقراء كذلك كانوا يجودون بما يملكون مهما قل ولو أن الشرع يعفيهم من الاعطاء لضيق ذات يدهم كما سبق القول ، ولم يكن ذلك عند الضرورة فقط ، بل أيضا عند عدم الحاجة بقصد المزيد من التوسعة على الفقراء ، وبين أيدينا وفى الذهن أمثلة تتراحم ، والتاريخ الإسلامى به نماذج رائعة لهؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ولا نزاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان زعيم المؤثرين وقدوة الكرام الفجرة ، قالت له خديجة فى ذلك : « إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » ، وعن جابر بن عبد الله قال : ما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : لا ، وأكبر دليل على ذلك ما روى من أن رجلا جاءه يسأله فقال له : ما عندى شيء ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شيء قضيناها ، فقال عمر ما كلفك الله ما لا تملك . فكره النبى ذلك من عمر . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من

ذی العرش اقلالا • فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه ،
وقال : بهذا أمرت •

واقتنى بالرسول أصحابه في ذلك ، روى أن عمر بن الخطاب أصاب
أرضا بخير فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أصبت أرضا
بخير لم أصب مالا أنفس عندي منها ، فماذا تأمر فيها ؟ فقال الرسول :
إن شئت حبست أصلها وتصدقت بريعها • فقبلها عمر « وقفا على التراء
وذوي القربى ، وفي الرقاب ، وفي سبيل الله ، وللضعيف ، ولا جناح على من
وليها أن يأكل منها بالمروف ، ويطعم صديقا محتاجا منها ، وخرج عمر بذلك
من أعز ماله » •

وقد ضرب لنا بعض المسلمين مثلا عاليا في السخاء ، فقد سئل أحد
العلماء : كم يجب للزكاة في مائتي درهم ؟ فأجاب : أما على العوام بحكم
الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع •

وليس لنا أن نستطرد في ذكر الأمثلة الرائعة التي شهدها المجتمع
الاسلامى في فتراته الزاهرة ، ونكتفى بأن نذكر أن هذه الروح الطيبة كانت
استجابة للتعليم الاسلامى ممثلا في القرآن الكريم والحديث الشريف ،
ومنهما نقتبس بعض نماذج لتوضيح هذا الدستور الاسلامى السامى
الذى اعتنقه المسلمون الأول فارتقوا بمجتمعهم الى أسنى الدرجات ،
قال تعالى :

— من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ،
والله يقبض ويبسط (١) •

— مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع
سنابل في كل سنبل مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء (٢) •

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦١

— مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، ونشيطين في
أنفسهم كمثل حبة ربيعة ، أصابها وابل فانتك أكلها صديق ، فإن لم يصبها
وابل ساقط (١)

... الذين يفتنون أموالهم بالليل والنهار ، بالرغزية ، فاقبوا
عند ربهن ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢)

— ولا يأكل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤا أولوا التور
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليسفوا وليصاحبوا ، ألا تظنون
أن يغفر الله لكم (٣) .

— وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٤) .

— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شحم
نفسه فأولئك هم المفلحون (٥) .

— فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا
لأنفسكم ، ومن يوق شحم نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله
قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلِيم (٦) .

— ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم
لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٧) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح
العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٥

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤

(٣) سورة النور الآية ٢٢ .

(٤) سورة سبأ الآية ٣٩ .

(٥) سورة الحشر الآية التاسعة .

(٦) سورة التغابن الآيتان ١٦ — ١٧ .

(٧) سورة الانسان الآيتان ٨ — ٩ .

ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » (١) ، وقال : ثلاثة أقسم عليهن ... ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلمَ عبد مظلماً صبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة (جلس يتسول) الا فتح الله عليه باب فقر (٢) .

ويحث الاسلام المسلم أن يرعى ذريته ويدخر لهم ما يجعلهم بمأمن من الفاقة وسؤال الناس ، وفي الحديث « لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عائلة يتكففون الناس » ولكن الاسلام يحذر أن يثقل المسلم بذريته وينسى المجتمع الذى يعيش فيه وما يجب عليه نحوه من تبعات ، وانه لحق أن يقدم المرء لأولاده ولا يقدم لنفسه بمنح صدقة تعود عليه فائدتها في الدنيا والآخرة .

يروى أنه تجمع لعمر بن عبد العزيز بعض من المال الصلال ، فاستشار وزيره مزاحم فيما يصنع بهذا المال ، فقال له مزاحم : ولدك يا أمير المؤمنين أحق به .

قال عمر : أدعهم لله يا مزاحم .

قال مزاحم : هو مالك يا أمير المؤمنين وقد أحلّ الله الميراث .
وعرف عبد الملك بن عمر ذلك فأسرع لمزاحم يقول له : بئس الوزير أنت ؟ تحب أولاد الخليفة أكثر مما تحب الخليفة ؟ هلا نصحته أن يدفع المال لبيت المال فينال من الله الثواب ؟

وذهب عبد الملك الى أبيه ، ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال ، وحذّره من وزراء السوء .

ليت شبابنا يتعلمون من الشاب عبد الملك بن عمر هذا التصرف النبيل .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن ماجه .

وانها لأنانية أن يعيش المرء لأولاده وينسى المجتمع الذى يحيط به ، مع أن المرء وأسرته وحدة من وحدات هذا المجتمع ، على أن حياة الرجل لأسرته فقط تجعل هذه الأسرة محرومة من حُبِّ الناس ورعايتهم • وربما حرمت هذه الأسرة أيضا هذا المال الذى ركَّز المرء جهده لجمعه لها ، روى عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال : « نشر الله عبيد من أكثر لهما من المال والولد ، فقال لأحدهما أى فلان ابن فلان • قال : لبيك رب وسعديك • قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى • قال : كيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة • قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلا ولبكيك كثيرا ، أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم •

وقال الله سبحانه وتعالى للآخر : أى فلان بن فلان • قال : لبيك رب وسعديك • قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى • قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : أنفقت فى طاعتك ، ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك • قال تعالى له : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيرا ولبكيك قليلا ، أما إن الذى وثقت به قد أنزلت بهم » (١) •

وفيما يتعلق بهذا الموضوع نقودنى تجاربي الخاصة الى أن أعارض بشدة ما هو شائع من أن بخل الناس انما هو للحرص على مستقبل أولادهم ، والذى يبدو لى أن البخل طبيعة فى بعض النفوس ، وكثيرا ما يحاول البخلاء أن يستتروا خلف أولادهم ليخفوا اللوم عن أنفسهم ، ولكننا نتدبر فنجد كثيرين من البخلاء لا أولاد لهم ولا أمل فى الأولاد ، ومع هذا فالواحد منهم ممسك اليد ، وكم رأينا بخيلا يقتر على أولاده بل يجرمهم ، ولو كان يدخر لهم لأعطاهم فى حياته ما يحتاجون اليه ، إن البخل فيما أعتقد طبيعة فى بعض النفوس أو مرض "يجدر بمن بلى به أن يحاول أن يتخلص منه •

الإعطاء :

سبق أن ذكرنا أن ما يأخذه الفقير من مال الغنى إنما هو حق له في المال ، وعلى هذا فأداؤه له يجب أن يأخذ صفة أداء الحقوق إلى أصحابها ، دون أن يصحب ذلك رياءً ولا منً ولا أذى ، فإذا صحب الإعطاء رياءً أو منً أو أذى ضاع الثواب ، وربما لحق المعطيَ إثمٌ وسوء مصير . قال تعالى : الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حلیم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذى ينفق ماله رياءً الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثلته كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وثبیتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » (١) .

وقد علق ابن القيم (٢) ، على هذه الآيات الكريمة بقوله : وقد يعرض للصدقات ما يثضيع ثوابها كالرياء والمن والأذى ، فالرياء يمنع انعقاد الثواب ، والمن والأذى يبطل الثواب ، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان — وهو الحجر الأملس — عليه تراب فأصابه وابل — وهو المطر الشديد — فتركه صلدا لا شيء عليه ، وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلاله ، فإن الحجر ومُضَعٌ في مقابلة قلب هذا المرائي أو المان أو المؤذى ، فقلبه في قسوته عن الإيمان والاحلاص والاحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذى عمله لغير الله بمنزلة التراب الذى على ذلك الحجر ، فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل ، فليس له مادة متصلة فيقبل الماء

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٢ — ٢٦٥ .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

وينبت الكلا ، وكذلك قلب المرائى ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهى والقضاء والقدر ، فاذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذى كان عليه ، فبرز ما تحته حجرا صلدا لا نبات فيه ، وهذا مَكْلٌ ضَرَبَهُ اللهُ سبحانه لعمل المرائى ونفقته •

ومن آداب الاعطاء أن يكون خفية بقدر الامكان حتى يكون خالصا لله ، لا رياء فيه ولا سمعة ، وحتى لا يشق على نفس الفقير ، فقد يؤذيه أن يظهر بمظهر الآخذ المحتاج ، والآية الكريمة تقول : « إن تبدوا الصدقات فنما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » (١) •

والذى بيدو لى أن صدر الآية « إن تبدوا الصدقات فنما هي » يقصد به إخراج الصدقة علنا دون أن يؤذى الفقير ، كإعطائها لسائل لا يستتفك أخذها علنا ، أو إخراجها علنا دون أن يعرف لمن تعطى ، كأن يخرج بها أتباع الغنى علنا ثم يتسللون بها الى بيوت الفقراء • أما اذا أعطيت للفقير بصورة علنية يتأذى بها ، فقد ضاع ثوابها « لا تبطلوا صدقاتكم بالمان والأذى » والرسول عليه السلام يؤكد هذا المعنى بقوله مستحسنا عمل رجل أخفى صدقته : « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أخرجت يمينه » (٢) • وذلك تصوير يبين منتهى الحيطة والتكتم عند إعطاء الفقير حقه فى مال الغنى •

ومن النظم الاسلامية التى تلاحظ فى إخراج حق الفقير أن يكون نصيب الفقير فى مستوى الثروة من حيث الجودة ، فاذا تخير الغنى للفقير أقل الانتاج قيمة أو نظافة فقد أضاع ثوابه وهبط بأجره ، يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣) •

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١ •

(٢) رواه الشيخان •

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٢ •

التفاوت في الدفع والتفاوت في الاستحقاق :

من المبادئ المهمة في الاقتصاد الاسلامى الأخذ بمبدأ التفاوت فيما يجب أن يدفعه الأغنياء ، ويكون هذا التفاوت تابعا لدرجة تفاوتهم في الغنى ، وذلك ما يسمى في الاقتصاد الحديث بالضريبة التصاعدية .

ومن المبادئ المهمة أيضا في الاقتصاد الاسلامى الأخذ بمبدأ التفاوت في الاستحقاق بحسب الحاجة وبحسب عدد أفراد الأسرة ، ذلك ما يسمى في الاقتصاد الحديث بالعلوة الاجتماعية .

ولسنا — بطبيعة الحال — نقصد أن الاسلام أعطى تفاصيل دقيقة عن هذين الموضوعين ، لكننا نقرر أن الاسلام أقر المبدأ ووضحه في التشريع الاسلامى ، أما تفاصيله فقد تركت لتكون موضوعا للبحث حسب الظروف والعهود المختلفة .

أما مبدأ الضريبة التصاعدية فيتضح أولا في الزكاة حيث لا تجب إلا في نصاب معين ، وما دون هذا النصاب يترك لسدِّ حاجة الأسرة فان لم يكمل النصاب أعفى مالكة من الدفع .

وتتضح الضريبة التصاعدية فيما سبق أن ذكرناه من أن المقدار الذى يؤخذ من الأغنياء للإنفاق الواجب على الصالح العام يتفاوت بحسب درجات الغنى والميسار .

وقد ضرب الاسلام مثلا دقيقا للضريبة التصاعدية في الجزية التى فرضها على الذميين بدل الزكاة التى يدفعها المسلمون ، وبدل الجهاد الذى يلتزم به المسلمون (١) وقد جعل الاسلام هذه الجزية متفاوتة كالاتى :

(١) يخلو لبعض الناس ان يهاجموا الاسلام بسبب الجزية ، ولعله انضح من ذلك أن الجزية كانت مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون ، فبالجزية والزكاة كانت تدار شئون الدولة ويعطى المحتاجون من المسلمون والذميين ، هذا الى أن الجزية أقل كثيرا جدا من الزكاة ، ولم يلتزم أهل الذمة بدفع الزكاة لأنها ركن من أركان الاسلام الذى لم يعتنقه الذميون ، ثم أن الجزية كانت بدل الدفاع والجهاد اللذين كانا واجبى المسلمين ، وتدلنا المراجع التاريخية أن بعض المسيحيين أسهموا أحيانا في الحرب بجانب المسلمين فسقطت عنهم الجزية ، وسيأتى بيان ذلك في موضعه من هذا الكتاب .

- ١ — الأغنياء ويؤخذ عن كل فرد ٤٨ درهماً في العام .
٢ — متوسطو الغنى ويؤخذ من كل منهم نصف هذا القدر (٢٤ درهماً في العام) .
٣ — العمال ويؤخذ من كل منهم نصف ما يؤخذ من المتوسطين (١٢ درهماً في العام) .

• أما النساء والعجزة والصبيان فلا تجب عليهم الجزية بتاتاً (١) .

أما مبدأ العلاوة الاجتماعية فقد أثبت الإسلام عنه اتجاهها واضحاً يمكن أن يكون أساساً لدراسات واسعة مفيدة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم فرض للأعزب حظاً من الغنيمة وللأيتام حظين ، وروى عن عمر قوله في الفداء : ما أنا بأحق بهذا الفداء منكم ، وما أحدٌ بأحق به من أحد إلا أننا على منازلنا ، فالرجل وعياله والرجل وحاجته (٢) . وعندما رتب عمر المرتبات أعطى كل أسرة بحسب عدد الأولاد فيها ، وجعل لكل طفل من أطفال المسلمين نصيباً ، وكان عمر في بادئ الأمر يعطى الأطفال إذا تجاوزوا الرضاع — ولكنه عاد فأعطى نصيباً لكل طفل رضيعاً كان أو غير رضيع ، روى ابن عمر أن ركبا من التجار كانوا في اتجاههم إلى المدينة فدخل عليهم المساء قبل أن يكسبوا ، فخطوا رحالهم ، وعلم عمر بذلك فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نسهر عليهم لنحرسهم ونرعاهم ؟ فاستجاب ابن عوف له وسار مع عمر ، فباتا يحرسان الركب ويصليان ، فسمع عمر في جوف الليل طفلاً يبكي بكاء متصلاً فتوجه نحو الركب ، وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى طفلك . ثم عاد إلى مكانه ، وبعد قليل سمع بكاءه مرة ثانية فذهب للمرأة وكرر مقالته لها وعاد إلى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي ، فسارع إلى أمه وقال لها : ويحك إنى لأراك أم سوء ، مالي أرى ابنك لا يهدأ طول الليل ؟

(١) انظر هذا الموضوع في « الاقتصاد في الفكر الإسلامى » للمؤلف .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٥٥ .

خالت المرأة - وهي لا تعرف من تحدث - : يا عبد الله ، عد أبرمتي طول الليل ، إني أعالجه على الفطام فيأبى الا رضاعا *

قال عمر : ولم ؟

قال : وكم لابنك من العمر ؟

قالت : كذا وكذا شهرا *

قال : ويحك لا تعجلية *

وذهب عمر ليصلي بالناس الفجر ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما انتهى من صلاته قال : يا بؤساً لعمر !! كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فاننا نفرض لكل مولود في الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق *

تتغنى بعض الدول بمسلكها الاشتراكي وبالعلوات الاجتماعية التي نمنحها للمتزوجين أو لذوى الأولاد ، فهل درى هؤلاء أن الاسلام أخذ بهذا المبدأ أو اقترح هذا المبدأ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

تلك حقائق واضحة نسجلها للباحثين لعل فيها ذكرى لأولى الأبصار *

الإسلام بين المبادئ الاقتصادية الحديثة

قلنا في مطلع الحديث عن العدالة الاجتماعية إن للإسلام في سياسة المال فلسفة ليست شيوعية وليست رأسمالية وليست من الاشتراكية الغربية ، ولكنها إسلامية ، ولعلنا أوضحنا عناصرها واتجاهاتها ومبادئها فيما أوردناه من أبحاث ، ولعل من الخير أن نختم هذا الموضوع بإيراد دراسة مقارنة موجزة عن المبادئ الاقتصادية الإسلامية بالنسبة لهذه المبادئ الاقتصادية الحديثة .

الاقتصاد الإسلامي والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الإسلامي عن النظم الشيوعية بعدا واسعا ، فقد سبق أن قررنا أن الإسلام يقر الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية وملكية المتاجر والمصانع ، ولا يجيز الإسلام التدخل في هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق ، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والإسلام بذلك يعارض الشيوعية التي لا تدع للإنسان إلا حق الامتلاك الشخصي للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، أو المنزل الذي يسكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصي وتوفير الراحة له ، وحق توريث هذه الملكية الشخصية « (١) » .

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية الأصلية أدركت بُعدَها عن المنطق السليم في آرائها الاقتصادية ، فأدخلت ولا تزال تدخل بعض الأفكار على أسسها ، محاولةً بذلك التوفيق بين الآراء الماركسية وبين الحكمة .
• داجات المجتمع •

(١) دستور اتحاد الجمهوريات السوفيتية .

المفهوم للاقتصاديين الذين يرون في الاقتصاد الرأسمالية - بطيم
 الالفة فمفهوم النظام الرأسمالي هو النظام الذي يملك فيه
 المال الرأسمالي الك واما اقتصاد النظام الرأسمالي فهو النظام الذي
 يملكه الرأسماليين ، نظام الرأسمالي هو النظام الذي يملكه الرأسماليين
 كالمال الذي يملكه الرأسماليين ، أو في بعض الأحيان ، الرأسماليين
 لأن الملك هو الله ، وقد حدد سبحانه الملك المؤقت وهو
 الإنسان الذي يملكه الله ، وهذا بخلاف النظام الرأسمالي حيث يجوز
 للمالك أن يمتلك أو يكتز أو ينضم الرأسمالي كهدايا ، وغير ذلك مما هو في
 الحقيقة طبيعة الرأسمالية .

ومن طبيعة الرأسمالية اعتبار الانسان آلة تتحرك لتجنى الخير
 لأصحاب رعوس الأموال ، فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى
 إذا سقط أو مرض طرحوه ، ولم ينل العمال بعض الحقوق من أصحاب
 رعوس الأموال إلا بعد جهاد طويل شاق ، ولم تعترف الرأسمالية بهذه
 الحقوق إلا بعد ضغط شديد .

والرأسمالية عدوة المجتمعات ، فهي لا تفكر الا في جماعة ثروات
 أصحابها على حساب المجتمع الذي تعدته الرأسمالية سوقا لها تفريه
 وتخدعه لتتسرب ثرواته ، وتأخذ دخله بطريق أو بآخر .

وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لها واحتمال ثورتهم في
 وجهها ، فأعدت العدة للتضييق على الجماهير وكبت ثورتهم ، وذلك
 عن طريق اتصالها بسلطان الحكم إما « بوصول بعض أصحاب رعوس
 الأموال الكبيرة الى الحكم في الدول الرأسمالية ، وإما بالتأثير في رجال
 الحكم بالنفوذ المالي والاقتصادي ، وبذلك خرجت المشاريع الرأسمالية من
 كونها مشاريع اقتصادية الى مشاريع لها أثر واضح قوى في الحياة
 السياسية والدولية ، وبذلك ازدادت سلطة الرأسماليين وأصحاب الأعمال

على العمال وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول ، الأمر الذى أدّى الى اشتداد حالة التوتر بينها ، وانتهى بنشوب الحرب العالمية الثانية « (١) ومن هذا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش الا فى جو سياسى معين ، أو قل ان هذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضا عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الاسلام •

ولا نزاع أن الحرب زادت ثروات الرأسماليين ، وقفزت بفناهم ، ولذلك يسميهم الباحثون المحدثون « تجار الحرب » محاولتهم إشغالها حتى تنمو مواردهم على حساب جثث القتلى وأثلاء الضحايا • ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين : والشعوب لا مصلحة لها فى الحرب ، وانما يدعو لها ويدبرها الرأسماليون ، الذين ينتفعون هاليا من الحرب ولا يهمهم ما يصيب العالم من ويلات (٢) •

ومن نكبات الرأسمالية على الشرق خاصة ذلك الاحتلال العاتى ، وهذا الاستعمار البغيض ، وما كان ذلك الاستعمار إلا نتيجة حتمية لتضخم رءوس الأموال والبحث عن إيجاد سوق لتصرف انتاج الآلات التى يملكها الرأسماليون « فالسيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لأشباع شهوات الرأسمالية وقد وُضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمى الذى قد يقضى على الحضارة كلها » (٣) •

ويقول ستوارد (٤) : إن مبادئ الحرية التى سادت فى الغرب ونودى بها أكثر القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع

(١) دكتور مهر الدين يونس : الانسانية ص ٢٤
(٢) الشرق والغرب ص ٣٦ •
(٣) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٢٤٣ •
(٤) نقلا عن « حاضر العالم الإسلامى » •

السياسية والاقتصادية فمزقتها شرمزق ، وبددت صورها كل مبدد ، إذ أخذ التزاحم يشتد ، والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل ، فاشتعلت الحرب العالمية الكبرى ، واشتد نهم أوروبا وجشعها للتوسع في والاستعمار ومناطق السطوة ونيل الامتيازات ، واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثل .

ويقول البنديت نهرو : إن فساد العالم يرجع معظمه الى فساد نظامه الاقتصادي والسياسي في الوقت الحاضر ، وانه لا سبيل الى الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة ، والاستعمار يسخر أمة لأمة .

الاقتصاد الاسلامي والاشتراكية الغربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن الاقتصاد في الاسلام ، فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ، ونضال الطوائف ، أما الاقتصاد الاسلامي فيقوم على أساس التعاون والاخاء (١) .

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى الى القضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف منها موقف العدا ، ولكن الاسلام لا يتعرض لهذه الثروات مادامت قد تكونت على أساس سليم ، ومادامت بعد تكوينها تابعة لروح الاسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به .

ويضع الاسلام وسيلة هامة يصل بها الى ازالة الطبقة الثابتة ، وهذه الوسيلة هي نظام الميراث الذي من طبيعته أن يفتت الثروات .

والاشتراكية الغربية تكثر من التأميم فتكرب بذلك من الشيوعية التي تعمل على تملك الدولة وسائل الانتاج ، أما التفكير الاسلامي فانه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، ولا يلجأ للتأميم الا للضرورة ، ولذلك يقول المفكرون المسلمون ان الاشتراكية تحارب الغنى ولكن الاسلام يحارب الفقر .

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٥٢ — ٥٤٣ .

والملكية في اشتراكية الغرب ملكية كاملة ، ولكنها في الاسلام
وظيفة اجتماعية ليس غير •

تلك مقارنة موجزة بين النظام الاقتصادي في الاسلام وسواه من
النظم ، ولا شك أن النظام الاسلامي حقق لتابعيه في الفترات التي انتشع
فيها أسمى ألوان النجاح واليمن والبركة •

وبعد الحديث عن العدالة الاجتماعية في الاسلام ، وما تلاها من
مقارنة موجزة بين الاسلام وبين الاتجاهات الاقتصادية الحديثة ، نستطيع
أن نجيب على سؤاين مهمين :

١ - لماذا يلجأ بعض المسلمين أحيانا إلى الشيوعية ؟ •

والجواب على ذلك قصير وواضح ، هو أن المسلمين لجئوا للشيوعية
أحيانا لأن النظم الاقتصادية الاسلامية معطلة ، ولو بحثت هذه النظم
وتطورت حسب مقتضيات الأحوال في ضوء الأسس التي سبق إيرادها
والتي جاء بها القرآن والحديث ، لوجد الناس فيها ضالتهم ولكانت الدول
الاسلامية في مأمن من الزحف الشيوعي ، الذي لا يمكن أن ينمو في تربة
نشط فيها الاسلام والفكر الاسلامي •

٢ - ما موقف الاسلام من الشيوعية ؟

هذا سؤال مهم يلزم أن تكون الشجاعة أساسا في الاجابة عنه ،
فبين الرأسمالية والشيوعية حرب لا تهدأ ، وكل منهما يرى في الآخر
خطرا عليه ، ويتمنى أو قل يحاول أن يمحو هذا الخطر من الوجود ،
وسلاح الدعاية من أهم الأسلحة التي يستعملها أتباع كل من المذهبين في
هدم المذهب الآخر ، ولا ييسر سلاح الدعاية التي يستعمله الرأسماليون
ضد الشيوعية على نهج واحد ، وإنما يتلوّن بحسب القوم الذين يستعمل
بينهم هذا السلاح ، ومن أمثلة هذا التلوّن ما رأيته بنفسى ، وما يمكن أن
يراه كل شخص أتاحت له فرص التنقل بين الأقطار المختلفة •

في البلاد الإسلامية تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس أن الشيوعية تقوم على الإلحاد والاباحية ، وقد انتُخِذَ هذا الأساس بالبلاد الإسلامية لأن لدى المسلمين حساسية دقيقة في ذلك الموضوع ، فإيمانهم العميق بالإله الواحد الأحد ، وبالأسرة ونظام تكوينها ، يجعلهم يمتقنون الشيوعية لما يذاع عنها من إلحاد وإباحية .

وفي إندونيسيا بالذات تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس أن الشيوعيين ألد أعداء المسلمين ، ولو أتاحت لهم فرصة لقتلوا المسلمين واستحلوا دماءهم كما فعلوا في حادثة « مديون » (١) المشؤمة وفي حادثة الجزرالات (٢) .

وفي أوروبا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر غير الإلحاد والاباحية وغير الفتك والاعتداء ، ولم تُتَّخَذْ هذه الأسلحة أسسا للدعاية ضد الشيوعية بأوروبا ، لأن الإلحاد معترف به هناك ، فليس شيئا يثير الجماهير إذ أن الحضارة الأوروبية التي تسود الغرب تشترك مع الشيوعية في هذا الاتجاه ، وهي والشيوعية صنوان في الكفر والإلحاد (٣) ، وكذلك الاباحية منتشرة بأوروبا ، ويراهن الأوروبيون لو ناهن أيران مدينتهم ، ولم يُتَّخَذْ الفتك والاعتداء سلاحا دعائيا ضد الشيوعية بأوروبا لأن هذين هذين هذه البلاد حرمت الفتك بسبب اختلاف الرأي ، وأصبح هذا التحريم عادة لا تتخلف تقريبا .

وعلى هذا حوربت الشيوعية بأوروبا بسلاح جديد يتأججها ، ذلك هو أن الشيوعية تقوم على الانتهازية .

(١) مديون ، مدينة من مدن بلاد الوسطى حدثت بها مذبحة قسام بها الشيوعيون ضد المسلمين .

(٢) اقرأ عنها في الجزء الثامن من « موسوعة التاريخ الإسلامي » للمؤلف .

(٣) محمد الفزالي : الإسلام والأوضاع الاقتصادية .

الأوروبيين ضد الشيوعية ، لأن الأوروبيين حريصون على الحرية ، وعلى
التنظيم الديمقراطي في حياتهم السياسية .

وفي أمريكا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر يثير فائرة
الأمريكيين ، وذلك الأساس هو أن الشيوعية تسعى الى الاستيلاء على
الثراء الأمريكي لصالح الرجل الآسيوي الأفريقي ، والرجل الأمريكي
حريص على الترف الذي تعودده ونعم به ، ولذلك يكره الشيوعية ويحاربها .

وتتخذ الرأسمالية وسائل كثيرة لاذاعة هذه الدعايات ، ويُخدع
بعض المسلمين بطريق أو بآخر فيأخذ السلاح من الرأسمالية ليضرب
به الشيوعية .

الاتحاد السوفيتي والغرب سواء :

وكان الأجدر بالمسلم أن يتذكر أن الشيوعية السوفيتية والرأسمالية
الغربية يستويان في الحقد على الاسلام ومصارعته ، فالشيوعية السوفيتية
عدوة الاسلام ، وقد كانت روسيا قبل النظام الشيوعي وبعده دولة عدوانية
وقد تركز زحفها على جيرانها وبخاصة ابتداء من القرن التاسع عشر
فضمت جورجيا سنة ١٨٠١ ومناطق تركستان سنة ١٨٢٦ وضمت الشركس
والتوقاز سنة ١٨٦٤ ووصلت في حدودها الى أفغانستان ، فأصبحت مرو
وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن الإسلامية التي كانت زاهرة مائجة
بالتفكر الاسلامي ضمن الاتحاد السوفيتي ، وفي العصر الحديث اندفع
الاتحاد السوفيتي لغزو أفغانستان وهو حتى كتابة هذا السطور يدمر
العالم ويقتل الانسان البريء .

وقد اتبعت روسيا سياسة « الترويس » أي نقل المسلمين من
مناطقهم الى فيياتي سيبيريا وغيرها ، ودفع عدد من الروس ليحلوا محل
المسلمين في بتاعهم الخصبة .

وعلى العموم فمسألة الاتحاد السوفيتي بالاسلام صلة دماء وكراهية
على مر العصور .

فاذا جئنا الى الحرب قابلتنا الحروب الصليبية بدمائها وقسوتها ،
ثم الاستعمار الأوربي بما فيه من نهب وتدمير ، ثم غرس الدولة الصهيونية
في قلب العالم العربي والاسلامي وتقويتها بمختلف الوسائل لتكون شوكة
تجعل العالم العربي والاسلامي ينزف دائما ، ولا يحقق ما يرجوه من
تقدم ووحدية ، وان دماء الأحرار من المسلمين الذين قتلتهم أسلحة الغرب
لم تجف بعد في مصر وإندونيسيا والباكستان وسوريا ولبنان والعراق
والجزائر وغيرها .

ولنعد الى الشيوعية لنذكر ان الشيوعية السوفيتية وضعت لنفسها
خطة استعمارية طويلة المدى ، فقد حاربت الاستعمار في وقت من
الأوقات لتطرده من الدول الصغيرة ، فلما نجحت في ذلك قدمت القروض
والمساعدات لهذه الدول ، ثم التهمتها ، والذي ينظر للزحف السوفيتي
الآن يجد أنه امتد الى كل القارات ، فأصبح في انجولا وأثيوبيا ، وفي
أوربا الشرقية ، واقتحم أفغانستان وهدد الباكستان ، وجنوده كالأخطبوط ،
يمتد ويدمر كل القيم ، وقد سكت العالم حتى الآن عن الزحف الشيوعي ،
وفي السكوت وبالله ، وإن الاستعمار العربي هو الذي مهد الطريق للزحف
الشيوعي ، وكلاهما خطر على الاسلام والدول الاسلامية .

سادسا - القدوة الحسنة

هناك عامل كان له أثر خطير في تكوين المجتمع الاسلامي الأول والسير
به قدما الى الأمام ، وذلك العامل هو القدوة الحسنة التي تمثلت في الرسول
صلى الله عليه ، لقد بنى الرسول المسجد ليكون مجتمعا واحدا للمسلمين
وأخى بين أتباعه ليوحد بين قلوبهم وليكون منهم أسرة اسلامية واحدة
ووضع المعاهدة سجلا دستوريا يتبعه سكان المدينة من مسلمين وغير
مسلمين حتى يعرف كل حقه والواجب عليه ، ووضع النظام السياسي

والاقتصادي للمسلمين ، ولكن كان هناك معين "أسمى من الواجب . وكان بعيد الأثر في تكوين مجتمع إسلامي رائع ، ذلك هو القدوة الحسنة التي تمثلت في خلق الرسول صلوات الله عليه وسلم ، ففاض على المسلمين بارشاده وتهذيبه وأدبه ، ذلك الأدب السذي وصفه الرسول بقوله (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وذلك الخلق الذي قال الله عنه « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وقال « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » (٢) وهكذا لم تكن المسألة نظريات تنظّم ، ولا قوانين تنشر فقط ، وإنما وجد كذلك الجانب العملي الذي تمثل في الرسول ، والذي كان لا يقنع بتنفيذ الواجب ، بل كان يضيف من اتجاهه ومن مشاعره الكثير لخدمة الاسلام ورفعته شأن المسلمين وهكذا كانت أخلاق الرسول هديا لهذا المجتمع الجديد ، وكانت صفاته قوة ربطت هذا المجتمع برباط وثيق، وكانت قيادته بلهمة الخير لهذه الأمة الجديدة، ونحن هنا نقتبس من صفات الرسول بعض العناصر التي كانت بعيدة الأثر في سير سفينة هذا المجتمع في خضم الحياة بنجاح وفوز .

لقد تركزت في يد الرسول صلوات الله عليه السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، ولكنه كان يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة ، وكان يقول لأصحابه (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله) وخرج على جماعة ممن أصحابه فقاموا له فقال : لا تقوهوا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا . وكان إذا بلغ أصحابه وهم جلوس جلس منهم حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس في انتظاره أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فاذا فرغ عاد الى صلاته . وكان أطيب

(١) سورة القلم : الآية الرابعة .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

الناس نفسا ، وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ، وكان في بيته يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخفف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين ، وكان إذا وجد أحدا في حاجة آثره على نفسه ولو كان به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئا لعهده حتى لقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله ، وكان جم التواضع ، شديد الوفاء ، يروى أنه قدم من لدن النجاشى وفد فقام بنفسه يخدمهم ، فقال له أصحابه نحن نكيب . فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين وانى أحب أن أكافئهم وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يسمح لأحفاده أن يداعبوه في أثناء صلاته ، بل لقد صلى مرة وهو يحمل « أمامة » ابنة بنته زينب .

ولم يقف بره ورحمته عند الانسان بل شمل الحيوان أيضا ، كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ من حر أو برد أو جوع أو عطش ، وقام مرة بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح الجواد بكم قميصه .

وكان مستعدا أن يعطى كل ما يملك ، إذ كان لا يسمح لشيء مما في الحياة أن يكون صاحب سلطان عليه ، وكانت سياسته أن يكون هو صاحب السلطان على ما امتلكه ، وكان شديد الزهد في الحياة المادية حتى بلغ به أن اتخذ فرائضا خشنا ، وأنه لم يشبع قط ، وكان طامه بسيطا للغاية ، ولقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وفي إحدى المرات شد على طننه هجرا من شدة الجوع ، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام .

ولم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا فرضا من فروض الدين ، فقد جاء في القرآن الكريم « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١) وجاء « وأبتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢)

(١) سورة البقرة : الآية ٧٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧٧ .

ولكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة ، قوة لا يتطرق إليها الضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاعاً أو مالاً أو سلطاناً (١) .

وفي معاملته لأتباع الأديان الأخرى لم ينتقيد فقط تجاههم بما ألزمه في الوثيقة السابقة ، بل راح يصفى عليهم من خلقه أسمح ، ومعاملته إنكريمة وصفاء روحه ، فقد روى أنه كان يخضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم في بيوتهم ، ويكرمهم إذا زاروه حتى أنه فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه حتى يجلسوا عليها ، وكان يقترض من أهل الكتاب ويرهن عندهم أمتعته ، مع أن بين المسلمين كثيرين من الأغنياء الذين كانوا مستعدين لتقديم أموالهم وأنفسهم له ، ولكنه أراد أن يعلم أتباعه الطريقة المثلى في معاملة أهل الكتاب (٢) .

سابعاً : سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع

من العرض السابق ندرك أن المجتمع الاسلامى الأول لم يكن يسير فقط تبعاً لقوانين الاسلام ، بل تبعاً لروحه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم باعث هذه الروح ومركز إشعاعها ، تدل على ذلك الآية الكريمة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٣) فالآية هنا لم تصفه بالعدل أو الصدق وغير ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر فى المسلم بل وصفته بما هو أكثر من الواجب ، وصفته بما لا يمكن أن يوضع فى كلمات أرق وأجمل من هذه العبارات السامية : رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم .

ولعل روح الاسلام التى يمكن أن نستنبطها من هذه الآية تتمثل فى الحب ، حب الله ، وحب الخير ، وحب المسلمين بعضهم بعضاً فى الله .

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٢٣٠ — ٢٣٢ بتصرف .

(٢) عفيف طيارة : روح الدين الاسلامى ص ١٩٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

وإذا وُجِدَ هذا الحب بين الإنسان وبين ربه ، عبده باخلاص
وحرص على تقوية صلته به ، وحينئذ لا تكون صلاته قراءة وركوعاً
وسجوداً ونقراً للأرض برأسه ، ولكنها ستكون انفلاتاً من الدنيا ،
وُخْلُوءاً لله واتصالاً به .

وإذا أحب المسلم الخير عمله ووجد لذة وممتعة في عمله ، تفوق كل
آحر وكل جزاء .

وإذا أحب المسلم المسلم اختفت الحاجة الى القوانين وظهر الإيثار ،
ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة .

فالحب هو ذلك الهدف السامى ، الذى يدرك من قرأ القرآن الكريم
بعناية أنه أعظم ما يمنحه الله ويعطيه ، وأعلى ما يحرمه ويمنعه ، تعال
بنا الى القرآن الكريم لنرى ما الجزاء الذى يمنحه الله للمتوَّاب والمتطهر
والمتقى والمؤمن والمقسط . . وما العقاب الذى ينزله الله بالكافر والظالم
والمفسد والخائن والمحتال شئ واحد ولكنه ينطوى على كل شئ ،
إنه الحب يمنجه الله للتوَّاب والمتقى والمحسن ويحرم منه الكافر والظالم
والخائن قال تعالى :

- فاتبعونى يحببكم الله (١) .
- إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢) .
- فان الله يحب المتقين (٣) .
- والله يحب المحسنين (٤) .
- والله يحب الصابرين (٥) .
- إن الله يحب المتوكلين (٦) .
- إن الله يحب المقسطين (٧) .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٢ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .
(٦) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٧٦ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

— يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بطوم
يحبهم ويحبونه (١) •

— والله يحب المطهرين (٢) •

— إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٣) •

* * *

— إن الله لا يحب المعتدين (٤) •

— والله لا يحب الفساد (٥) •

— والله لا يحب كل كفار أثيم (٦) •

— فإن الله لا يحب الكافرين (٧) •

— والله لا يحب الظالمين (٨) •

— إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً (٩) •

— ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان

خواناً أثيماً (١٠) •

— والله لا يحب المفسدين (١١) •

— إنه لا يحب المعتدين (١٢) •

— إنه لا يحب الخائنين (١٣) •

• (٢) سورة التوبة : الآية ١٠٨ .

• (٤) سورة البقرة : الآية ٩٠ .

• (٦) سورة البقرة : الآية ٢٧٩ .

• (٨) سورة آل عمران : الآية ٥٧ .

• (١٠) سورة النساء الآية ٤٨ .

• (١٢) سورة الاعراف : الآية ٥٥ .

• (١) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

• (٣) سورة الصف : الآية الرابعة .

• (٥) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .

• (٧) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .

• (٩) سورة النساء : الآية ٣٦ .

• (١١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .

• (١٣) سورة الانفال : الآية ٥٨ .

— إنه لا يجب المتكبرين (١) *

وسيطر الحب على هذا المجتمع وانطلق كالسحر قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فإذا هذا المجتمع يسير ليس فقط تبعا للإسلام ، بل تبعا لروح الإسلام ، لقد سبق أن ذكرنا قصة الرجل الذي جاء يسأل الرسول ، فقال له الرسول : ليس عندي شيء ولكن ابتع عليّ * وكيف أن عمر قال لرسول : ما كلتك الله إلا تملك * هل تصرف الرسول في هذه المسألة تبعا لتعاليم الإسلام وأوامره ؟ وهل يمكن أن تكون هناك تعاليم تقضى بأن يستدين إنسان ليمنح إنسانا آخر ؟ لا قاله سبحانه يقول « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (١) ولكن الرسول لم يتصرف هذا التصرف لأنه مكلف به ، بل لأنه يجب الخير * وإن جهدت نفسه في سبيله ، إنه تصرف تبعا لروح الإسلام لا تبعا لقانونه ، هنا رجل محتاج وربما كانت حالته لا تشجع التجار على إقراضه ، والرسول يستطيع أن ييسد حاجة الرجل ولو بطريق القرض ، وسعيته الله على السداد ، تلك هي روح الإسلام أن تحس بأن حاجة الناس هي حاجتك ، وأن تعمل على عون الناس ومساعدتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، لا لأنك مكلف بهذا بل لأنك تحب الخير وتحس بالسعادة أن تقوم به *

وذلك الرجل الذي حسب الإسلام صياما وصلاة وذكرًا فأخذ يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، ويعتمد على الناس في الإحسان إليه ومساعدته بالطعام والشراب واللباس ، هذا الرجل مسلم بلا شك ، ولكن روح الإسلام غابت عنه ، هذه الروح التي تكره أن يعيش الإنسان على جهد سواه ، وألا يسهم في خير الإنسانية وكفاحها * وأن يكون مستهلكا ولا انتاج له ، ولذلك أرشد الرسول أصحابه إلى روح الإسلام

(١) سورة النحل : الآية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٦ .

في هذه القصة ، فسأل أيكم يكفى طعامه وشرايه ؟ فلما قالوا له : كلنا .
قال : كنكم خير منه .

وعندما حادت الهزيمة بالمسلمين في غزوة أحد ، وركزت قريش جيدها
للفتك بالرسول ، وقف مسلمون ببرة يتلقون عن الرسول الردى ويدافعون
عنه وهم مستعدون للموت دونه ، ليس في الاسلام ما يلزم المسلمين
بهذا ولكن حبهم للرسول وادراكهم لروح الاسلام كل ذلك قادهم الى أن
يدركوا مبلغ الخسارة التي يخسرها الاسلام لو قتل الرسول في مثل هذه
الظروف فقدموا أنفسهم فداء له ، ووضعوا أجسامهم هدفا للموت في
سبيله .

ولعلنا الآن نستطيع أن نكتفى بهذا القدر من الحديث عن روح
الاسلام وسيطرتها على ذلك العهد وهذا المجتمع ، ففي الدراسة السابقة
نماذج كثيرة تبين كيف استطاعت هذه النخبة من المسلمين أن تفهم روح
الاسلام وآدابه وفلسفته وأن تساير الرسول صلوات الله عليه في فهمه
العميق لهذه الشريعة السمحاء .

المجتمع الاسلامي ينمو ويتسع

اتسع المجتمع الاسلامي في حياة الرسول حتى شمل جزيرة العرب كلها تقريباً ، وكانت المبادئ التي وضعها الرسول عقب الهجرة لمجتمع المدينة ، تسير مع الاسلام انى سار ، فلما عم الاسلام الجزيرة كانت هذه المبادئ مهيمنة على نفوس المسلمين جميعاً ، وبخاصة أولئك الذين تمكن الاسلام من قلوبهم ، وبقي مبدأ واحد وضع الرسول أصوله أيضاً في مجتمع المدينة ، ولكنه كان أكثر وضوحاً عندما انتشر الاسلام واتسع نطاقه ، ذلك المبدأ هو ما يسميه بعض المؤرخين المحدثين (١) « عصبية الأمم الاسلامية » . وقد نشأ هذا المبدأ كما قلت بالمدينة في عبادة مصبغرة ، ويبدو ذلك من مراجعتنا لنص المعاهدة التي عقدها الرسول بالمدينة ، وبين فيها حقوق جماعات المسلمين وواجباتهم ، وحقوق سكان المدينة من غير المسلمين وواجباتهم ، ففي هذه المعاهدة برزت الدولة الاسلامية كما سبق القول ، وبرز كذلك زعيم الدولة الاسلامية الذي يرجع اليه اذا اشتد أمر أو نشب خلاف واسع ، وبرزت كذلك الأسرة الاسلامية المتساوية المتعاونة المتكافلة ، وبالإضافة الى ذلك برز شيء كان موجوداً من قبل الاسلام ولكن الرسول أبقى منه جانب الخير ونظمه ورتب حدوده ، وذلك هو وحدات هذا المجتمع ، أو قل : الأسرة أو القبيلة في المجتمع الاسلامي ، لقد دعم الرسول التعاطف بين أفراد هذه القبائل ونصت المعاهدة سالفه الذكر على أن بنى عوف على ربعتهم (أمرهم الذي كانوا عليه) يتعاقلون معاقلمهم الأولى (يسيرون على ما كانوا عليه من التضامن في دفع الدية أو أخذها) وكل طائفة تنفدى عانيها بالعرف والقسط بين المؤمنين .، ومثل ذلك المهاجرين من قريش ولبنى الحارث وبنى ساعدة وغيرهم .

فلما اتسع الاسلام وشمل جزيرة العرب كلها كان هذا التعبير

(١) انظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٧٩ .

« عصبه الأمم » أدق دلالة وأوضح معنى ، فقد رد النبيُّ الأمراء إلى امارتهم والمموك إلى ممالكهم بعد أن أسلموا ، ولم تكن في الجزيرة مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب ، وكان العرب يومئذ جميعا سواسية أمام الله في ايمانهم المتين به ، وكانوا جميعا يدا واحدة على من اعتدى عليهم ، أو حاول فتنتهم عن دينهم (١) .

وكان الرسول بذلك يضع الدستور الاسلامي للأجيال القادمة ، ويهييء الأمر للعلاقات بين الدول والممالك الكبرى التي كان يدرك أن الاسلام سينتظمها في يوم ما ، وخلصمة الدستور هو وحدة بلا استعمار ، مركزية في الأهداف ، والسياسة ، والرياسة العليا التي تتكلم باسم الجميع في الشؤون الخارجية والقضايا العامة ولا مركزية في المشكلات الداخلية .

ذلك هو المجتمع الاسلامي الأول الذي كونه الرسول صلوات الله عليه على أساس من الايمان بالله والاخاء والحب فكتب له النصر ، وتقدم من فوز إلى فوز ، وانطلق أفرادهم يحملون هذه الرسالة السامية إلى أركان الأرض ، أو قل انطلقت هذه الرسالة من تلقاء نفسها إلى أركان الأرض ، وكانت تنتشر ولو انهزمت جيوش المسلمين ، وكانت تتقدم ولو تراجع أولئك الذين يحملون قبسها ويدافعون عنها .

ذلك هو المجتمع الاسلامي كما كونه الرسول وأضفى عليه من خلقه السامي وسيرته العطرة ، المجتمع الذي كان مثال الايثار في عالم كله أثره ، المجتمع الذي كان نورا وهاجا في عالم مشحون بالظلمات ، فلنسر خطوات أخرى مع هذا المجتمع لنرى كيف تجاوز الجزيرة العربية ، حاملا الرسالة السامية للعالم أجمع ، ثم لنرى كيف تسرب له الداء ، فأكل من لحمه وأوهن عظامه ؟ وكيف بدأ البعث الجديد ؟ وما الوسائل التي ندعم بها هذا البعث لنجبل مستقبلنا بماضيينا ، ولنستعيد الزمام الذي أفلتت حيننا من أيدينا .

المبحث الاسلامي في عهد الصحابين :

كان الصديق والفروق عضدى الرسول فى أثناء حياته ، واستطاعا أن يصلا الى أسرار الدعوة الاسلامية وكنهها انسامى . ولما لحق الرسول بالفريق الأعلى حملا العبء بكفاءة ممتازة وعبقورية نادرة اذا عن الاسلام بثبت ورباطة جأش عندما تجمعت قوى الشر تعارضه بعد وفاة الرسول وكان للإسلام بقيادتهما الفوز المبين ، ودفعوا عجلة الاسلام خارج جزيرة العرب ، وحطما القوة الرهيبة التى كانت تهدد الاسلام من الشمال ، وكانت تعدّ الجندة للقضاء عليه ، كما أزالا الحاجز الحصين الذى كان يقف حائلا بين الاسلام والشعوب المتطلعة اليه ، وانهارت جيوش قيصر وكسرى التى كانت تدافع عن الباطل أمام جيش الحق والتوحيد ، ووقفت جيوش المسلمين عقب النصر ، وتقدم العلماء يدعون الناس للدين الجديد ويشرحون لهم أسسه ومبادئه وأخلاقه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وانفسح المجتمع الاسلامى وتباعدت أطرافه ، ولكن عين الخليفة كانت ساهرة ، واحاطته بتعاليم الاسلام وروحه كانت كاملة شاملة ، وفى المجتمع الجديد جدت مشكلات ، ولكن الخليفة المهتم الموهوب اقترح للمشكلات الحلول الموفقة ، لا شىء يمكن أن يصف ما أحرزه أبو بكر وعمر من توفيق الا وصف واحد ، هو أنهما كانا ملهمين ، وان شئئين هامين يجب أن يذكر بجانب الخليفتين العظيمين هما أن الخليفتين ومفقا لتوسيع رقعة العالم الاسلامى وموفقا كذلك فيما أدخلاه على الدراسات الاسلامية من تفاصيل وشروح استجابة لمطالب هذا المجتمع الجديد ، فقد كان الرسول على صلة بالله سبحانه عن طريق الوحى ، وكان الوحى يمدده بحلول لمشكلات المجتمع ، فلما انقطع الوحى بوفاة ، اجتهد كل من الخليفتين فى حدود المبادئ الاسلامية والقرآن الكريم والحديث الشريف ، والفهم الكامل لروح الاسلام وتعاليمه ، فاستطاعا أن يحصلوا على حلول موفقة لما صادفهما من مشكلات . وكان عمر فى ذلك الباب نسيج وحده ، لأن المجتمع الاسلامى اتسع فى عهده ، وكثرت مطالبه ، وبرزت فيه حالات

لم تظهر في عهد الرسول وعهد أبي بكر ، ويقول ابن تيمية انه إما تولى
أبي بكر وعمر صارا كاملين في الولاية ، واعتدل منهما ما كان يناسب لكل منهما
في عهد الرسول من لين الأول وشدة الآخر (١) . وسنرى في الدراسة
القادمة صورة لهذا المجتمع الواسع وهو يسير بنجاح محققا خير الدنيا
والآخرة .

عهد أبي بكر

وأول ما يطالعنا في عهد أبي بكر ذلك الدستور الرائع الذي
افتتح به أبو بكر خلافته مبرزا النهج الذي سيسير عليه فيما يتعاقب
بسياسة الحكم ، وفيه يقول :

« أيها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت
فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عند حتى آخذ
له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، أطيعونى ما
أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم . »

« انى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لو ددت أن بعضكم
كفانيه ، ألا وانكم ان كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى
الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله عبدا أكرمه الله بالوحى وعصمه
به ، ولكنى بشرت من أحد منكم » .

وسار أبو بكر في خلافته خير سيرة ، جاعلا الأسس التى وضعها
الرسول للمجتمع الاسلامى نبراسا يهتدى به ، ويسير فى ضوئه . كان
بلا نزاع قدوة حسنة للمسلمين ، وكان عادلا عطوفا على غير المسلمين
ما سألوا . وكانت أعماله لتحقيق العدالة الاجتماعية قوية ناجحة ، وكان
لا يباح بأمر من غير شورى ، الا أن يكون القرآن الكريم أو الحديث

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص ٧ .

الصحيح صريح الدلالة على هذا الأمر ، وحينئذ فاتباع الدستور الاسلامى الخالد ، وكان الناس عنده سواسية لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، وكانت روح الاسلام توجه تفكيره وتقرر اتجاهاته ، وفى الصفحات التالية سنبرز هذه الاتجاهات خلال مواقف خالدة قام بها أبو بكر :

كان موقف أبى بكر عقيب وفاة الرسول دليلاً قويا على عبقرته ، وعمق ايمانه بالله ، وفهمه الكامل لتأموس الحياة حتى ولو زاعت أبصار الآخرين وأثرت فيهم الخطوب والأحداث ، وأول ما يبرز من ذلك ما ذكره المؤرخون من أن انتقال الرسول للرفيق الأعلى أذهل العقول وأطار الأبواب ، حتى أن عمر بن الخطاب مع رجاحة عقله وسداد رأيه راح يهدد بالويل كل من قال إن محمداً قد مات ، ولكن أبى بكر مع عظم المصيبة عليه ، لم تستطيع هذه المصيبة أن تنسيه حقائق الكون وطبيعة الحياة ، فدخل على الرسول وهو مسجى فى جلكد وشجاعة ، وكشف عن وجهه وقبلكه فى جبينه وقال : « بأبى أنت وأمى قد ذقت الميتة التى كتب الله عليك ... ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتا » ثم خرج الى الناس ووقف بينهم وقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » (١) .

وبهذا أعاد أبو بكر الى الناس رشدهم ، وأزال عنهم الأضطراب والشكوك وعرفهم هذه الحقيقة ليتدبروا أمرهم ، وليفكروا فيما يصنعون لدينهم ودنياهم عقب وفاة الرسول .

وكانت الصلوات الجمعة بين الرسول وبين أبى بكر تحتتم أن يكون أبو بكر من أهم من يعنى باعداد جثمان الرسول للدفن ، ويصحب ذلك

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

الجثمان الطاهر الى مثواه ليودعه الوداع الأخير بعد عشرة طويـلة أضفى فيها الرسول على الصديق آيات حبه ورضاه وتقديره ، وقابل الصديق ذلك بالعمون حيث يقل المعين ، وبالاخلاص الجم في حالك الظلمات . ولهذا وقف أبو بكر في صحبة جثمان الرسول يؤدي واجبه المقدس ، ولكن عمر أرسل اليه أن أخرج الينا ، قال أبو بكر لرسول عمر قل لعمر إني مشغول . فرد عمر رسوله ليقول لأبي بكر : انه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره وعجب أبو بكر ، وسأل نفسه : أى أمر يحتم على أن أذع جثمان الرسول في هذه اللحظات الحاسمة ؟ وخرج ليرى .

كان الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، وأوشك أمرهم أن يتم على تعيين واحد منهم خلفا للرسول ، كما عرف أبو بكر ذلك ، أدرك واجبه تجاه عقيدته ، وتجاه المبادئ الإسلامية التي أمضى الرسول زهرة حياته يعامها وينشرها ، فترك جثمان الرسول على كره منه ، وانتزع نفسه انتزاعا من هذا الجوار الحبيب الى نفسه ، ومن هذه الصحبة في لحظاتها الأخيرة ليؤدي واجبه وتولى أبو بكر الخلافة ، وممرت الأيام واهتضر أبو بكر فأخذ يوصي عمر بالآي يشغل نفسه بجثمانه إن مات ، وأن يبادر فيرسل الجنود ليدعم بها جيش المثنى الذي كان يحارب في العراق ، وذكره أبو بكر بما فعله هو حين وفاة الرسول ، وكيف لم يشغل جثمانه الطاهر عن أداء واجبه وان كان ذلك قد ثق عليه ، قال أبو بكر : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم عبيبة وان عظمت عن أمر دينكم ، يومية ويوم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، وتم يصيب الخلق بعقله ، هو الله لو تواتينا من أمر الله وأمر رسوله لأخذنا الله وعاقبتنا ، فأصغرمت المدينة علينا نارا »

وهكذا كان التراث الإسلامى في مقدمة ما يعنى به أبو بكر ، وهكذا كانت روح الإسلام تقوده وترشده .

ولنعد الى الحديث عن خلافة أبى بكر : لما بويح أبو بكر خليفة رآه الناس فى اليوم التالى يحمل تجارته فى طريقه الى السوق ، فاعترضه من رآه من المسلمين وفيهم أبو عبيدة الذى قال له : ان هذا الأمر لا يصلح مع التجارة • فسأل : وكيف أعيش وأطعم أهلى ؟ فتدبّر المصاحبة الأمر ، وفرضوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله • ولو أننا تخطينا عدة شهور كما فعلنا من قبل لنرى أبأ بكر وهو مشرف على الموت كيف لم تطب نفسه بما أخذ من مال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم ، فقال : « ردوا ما أخذته من مال المسلمين اليهم فانى لم أصب منه شيئاً، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما قد أكون أصبت من أموالهم ، ويروى عن عمر أنه قال بعد أن نفذ وصية أبى بكر : « يرحم الله أبأ بكر ، لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ، ولقد أتعب أبو بكر منّ يجيء بعده تبأ شديداً » •

ولقد بلغ أبو بكر من التنزه حدا يحسبه أهل جيلنا ممعنا فى المبالغة ، لم تغير الخلافة من حياته شيئاً ، ولم تنتقل به من داره الصغيرة البدوية فى السنح الى غيرها ، وقد نسى منذ تولى أمور المسلمين نفسه ، ونسى أهله وأبنائه ، وتجرد لله تجردا مطلقا ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج تحقيقا لمعنى الإخاء فى أسمى صوره • وإيذا بنا بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر بذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة • وإنما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعا فى ظلّ هذه الحدود آمنين مطمئنين (١) •

مشكلات ومواجهتها :

وواجه أبو بكر عقب بيعته مشكلات قاسية صعبة ، فقد كان كثير من العرب حديثى عهد بالاسلام ، وكثيرون منهم اعتنقوه رهبة من حرب أو رغبة فى خير ؟ ولم يكن الإيمان قد تعمق فى قلوبهم بعد ، فما ان سمعوا

(١) الدكتور محمد حسين هيكىل : الصديق أبو بكر ص ٣٦٢ — ٣٦٣ •

نبا وفاة الرسول حتى تطلّعوا الى الفتلص من سلطان الاسلام ، وأرادوا العودة الى جاهليتهم الأولى حيث الحكم للقوة لا للقانون ، لذلك أرتد كثير من العرب عن الاسلام ومنع آخرون الزكاة ، وتطلّعت كل من اليهودية والنصرانية الى استعادة مجدها الزائل وشمسها الغاربة ، وخرج أوغاد في الجزيرة العربية يدعون النبوة ويقولون انهم رسل الله ، وانتفضت الجزيرة كلها انتفاضا على مهلى مكة والمدينة والطائف وبن تمسك معهم بالدين الحنيف .

لقد تزعزعت عقول كثيرين من المسلمين إزاء هذه الأحداث الجسام بك صرح بعضهم ألا طاقة للمسلمين بحرب العرب جميعا ، وسجل التاريخ خلافا في الرأي بين أبى بكر وعمر ، ولكنه كان خلافا غير متوقع لقد تعود المسلمون أن يروا عمر صليبا يميل للشدة والصرامة ، وأن يروا أبا بكر سمحا يميل للين واليسر ، ولكن الخلاف في هذه المرة كان على عكس ما عهدته الناس ، كان عمر يتجه للين وعدم الحرب ، وشاركه هذا الرأي جلة الصحابة ، وقد يكون اجتهادهم قادهم الى هذه الطريق ، ولكن الذى لا نزاع فيه أن انتفاض الجزيرة كلها ضد الاسلام والمسلمين كان له أثره على أصحاب هذا الرأي ، ولكن أبا بكر بقى كالطود الشامخ ، لم تصلّ هواجس الخوف الى قلبه ، وأحس أنه المسئول عن مستقبل الاسلام والمسلمين ، وكأنما غمتر قلبه إحساس قوى بأن الاسلام سينتصر وأن النعمة ستترفع ، فصاح بعمر : كنت أدخرك للشدائد فجيئت تخذلنى . وصاح بالمسلمين وهو يتحدث عن مانعى الزكاة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عى منعه » (١) . واذا كان ذلك هو موقفه من مانعى الزكاة فكيف يكون موقفه من المرتدين أو مدعى النبوة ومن تبعوهم ؟ وبإدراك أبو بكر شعقد الألوية لأهد عشر قائدًا . وجمع حول كل قائد نخبة من صفوة المحاربين ، وسيّرهم الى مواقع الفتن والغدر ، كما أرسل للمرتدين ولمانعى الزكاة

كتبوا يدعوهم فيينا فالعودة لهزيمة الاسلام ، ويهددهم إن استمروا في طغيانهم ولم تنقض فترة طوييلة حتى كان أبو بكر قد أعاد للجزيرة العربية هدوءها وكثفت الغشابة عن ضلوا ، وكتب للنصر المبين • يتول ابن تيمية (١) : وظهر من أبي بكر من شجاعة القلب في قتال أول الردة وغيرهم ما برز به على عمر وسائر العرب •

ويقول السير توماس أرنولد (٢) عند الحديث عن ذلك الموضوع وتتويج هذه الجهود بالظفر والنصر راجع الى الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين •

وكان الرسول في أثناء حياته يرسل القضاة والمعلمين الى البقاع المختلفة في جزيرة العرب ، وكان يرشدهم أن يتبعوا في قضائهم الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا فيها الحكم المطلوب اجتهدوا وحكموا حسبما يقضى به اجتهادهم فلما مات الرسول جدت مشكلات كثيرة لم يقع نظير لها في أثناء حياته ، فاجتهد أبو بكر واستشار أصحابه ، وأقدم بشجاعة على ما أداه اليه اجتهاده من نتائج ، ولعل من أعظم المشكلات التي صادفت أبا بكر في مطلع خلافته مشكلة جمع القرآن •

جمع القرآن :

كانت حرب اليمامة أعظم حرب وقعت بين المسلمين والمتمردين وعلى اثرها آذنت دولة المتمردين جميعا بالانكماش فالزوال ، ولكن ضحايا المسلمين فيها كانوا كثيرين ، فقد استشهد فيها ألف ومئتان من المسلمين من بينهم عدد كبير من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن ، وكان من بين القتلى زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وقد حزن عليه عمر كثيرا ، يروى أنه لما رأى ابنه عائدا من الغزوة قال له :

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية ص ١٧ •

The Caliphate p. 18. (٢)

ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى ؟

قال عبد الله : سأل الله الشهادة فمنحه إياها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها • على أن حزن عمر على أخيه لم يشغله عن أمر ذى بال ، فقد رأى أن كثيرين من الحفاظ ماتوا في هذه المعركة ، فأسرع إلى أبى بكر وهو في مجلسه بالمسجد وقال له : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وانى لأرى أن تجمع القرآن • وكان ذلك الموضوع مفاجأة لأبى بكر لأنه لم يكن قد فكر فيه ، ولذلك أجاب أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسوا لله صلى الله عليه وسلم • قال عمر : هو والله خير • وفكر أبو بكر في الأمر واقتنع بأن من مصلحة المسلمين أن يجمعوا القرآن ولو أن الرسول لم يفعل ذلك ، فقد كان أبو بكر يدرك أن على المسلمين أن يجتهدوا ليحلوا ما يصادفهم من مشكلات ، ولعل ذلك كان مطلع الاجتهاد في أمر اختلفت فيه الآراء بين الاتباع المطلق وبين الاجتهاد في ضوء الظروف الجديدة وفي حدود التعاليم الاسلامية والمصلحة العامة ، وقد انتصرت هذه الفكرة ، وعندما طلب أبو بكر من زيد بن ثابت أن يجمع القرآن ، وكان عمر حاضراً ، قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فدافع أبو بكر عن رأيه ورأى عمر حتى شرح الله قلب زيد لهذا الرأي ، وانضطع بهذه المسؤولية العظمى ، فجمع القرآن من الرقاع والشعشب وصدور الرجال •

ماذا بعد موت الخليفة الأول ؟

وهناك اجتهاد آخر أقدم عليه أبو بكر في محيط الانظم السياسية ، وذلك هو تعيين خلف له بعد استشارة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ومن الثابت عند جمهور المسلمين أن الرسول صلوات الله عليه لم يعين خلفاً له ، وعلة ذلك واضحة ، فان الرسول لو اختار للمسلمين من يخافه لظن القوم أن هذا الاختيار هو من وحى الله تعالى ، ولخضعوا للخليفة دون

أن يحاسبوه أو يراقبوه ، والرسول لا يضمن ألا يخطئ الخليفة أو يكره ، وكان الرسول يدرك أن تعيينه خلفا له سيعطى هذا الخلف نوعا من الحصانة ، فلا يستطيع الناس خلعه أو الخروج عليه لو جاوز الصواب ، لهذه الأسباب ترك الرسول مسألة الخلافة دون أن يؤثر فيه فيها توجيه واضح ، ولكن هذه الأسباب كانت كما ترى خاصة بالرسول ، فماذا يمنع أبا بكر من الاجتهاد والتفكير في هذه المسألة عظيمة الشأن ؟

ثم إن الظروف التي أحاطت بالفترة الأخيرة من حكم أبي بكر كانت خطيرة ، فالجيوش الاسلامية تخوض معارك طاحنة ضد الفرس والروم وهذه الجيوش في حاجة متصلة الى المدد والزعاية ، كان أبو بكر لا يزال يذكر الخلف الذي حصل عقب وفاة الرسول ، وخشى أبو بكر إن اختلف المسلمون على الخلافة بعد موته أن يؤدي هذا الخلاف الى الاضطراب ، واضطراب العاصمة وعدم استقرار الحكم سيؤديان إلى أوخم العواقب بالنسبة للمحاربين المسلمين •

إزاء ذلك كان لابد الأبي بكر أن يجتهد وأن يستشير الصحابة ، وقد أداه ذلك الى تعيين عمر ، وكتب بذلك وثيقة حفظت على المسلمين وحدتهم وضمنت للمحاربين الرعاية التي أدت الى النصر المبين ، وعقب البيعة أتجه أبو بكر لله وقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرا وأقواهم وأحرصهم على المرشد •

وضرب أبو بكر مثلا عاليا للحكام ، يحثهم على أن يقف كل منهم وثقة من حين الى آخر يحاسب نفسه ويفكر فيما قدّم من خير وفيما وقع فيه من أخطاء ، فمثل ذلك الحساب جدير أن يقود الى طريق الخير والرشاد ، روى عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر بعد أن كتب وثيقة تعيين عمر قال : إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتني وددت أنى تركتني ، وثلاث تركتني وددت أنى فعلتني • • والذي يقرأ هذه

القصة يدرك بساطة الأخطاء التي اعتقد أبو بكر أنه ارتكبها وتمنى لو لم يفعلها ، ولكن الأهم من ذلك أن القارىء يدرك أن أبا بكر لم يكن ينفر لنفسه الهفوات وكان يجمع زلاتها ويخضعها لحساب مرير *

وكان أبو بكر شديد البر والعطف على الفقراء والمعوزين ، وكان يتولى بنفسه رعايتهم ، فان ضاق بذلك مال بيت المال اتسع له ماله الخاص ، وكان حريصا على أن يقدم للمساكين ما يحتاجون اليه دون أن يعلم بذلك أحد ، روى أن عمر بن الخطاب كان يتعهد امرأة عمياء ، ولكنه كان كلما جاءها ألفاها وقد قضيت حاجاتها ، فتصد عمر يوما ليعرف من الذي يقوم بخدمتها دون فتور ، فاذا به أبو بكر ، ومما أثر عنه قوله : إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فمنهم من إذا ملك زهده الله فيما بيده ورغبته فيما بيد غيره *

« ولا حاجة الى القول بأن مثال أبي بكر كان أسوة عُمَّالِه في سائر بلاد شبه الجزيرة ، وإن طمأنينة العرب الي عدل الخليفة وانصافه ، والى بره ورحمته ، والى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر في نجاح سياسته » (١) كما كانت من أهم العوامل التي ضمنت أن ينعم المجتمع الاسلامي في هذه الفترة بكل عناصر السعادة والتوفيق *

عهد عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب جدير بما ناله من اهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، وسأحاول أن أكبح قلمي لأكتب عن هذا الخليفة من ناحية اتصاله بالمجتمع الاسلامي ، خرف أن ينقلت القلم مبهورا بسيرته الزكية وأعماله الجسام *

وقد سبق أن أشرنا الى مكانة الصديق والفاروق من الرسول ، وأن المصاحبين أكملوا البناء الشامخ الذي وضع الرسول أسسه الثابتة ، كان أبو بكر

(١) الصديق أبو بكر ص ٣٧٦ *

ر، خليفة ولكن الشهادة أنه لم يكن وحده ، بل كان عمر معه ، كان كل منهما يكمل الآخر •

قال أبو بكر لعمر عندما اشتد الجدل في سقيفة بني ساعدة : ايسط
بيك نبايح لك •

قال عمر : أنت أفضل منى •

قال أبو بكر : أنت أقوى منى •

قال عمر : إن قوتى لك مع فضلك •

وهكذا يمكننا أن نقول دون تحرج : ان كرسى الخلافة سفل في وقت واحد بفضل أبى بكر وقوة عمر • وقد كان الناس يدركون ذلك ، ويحسون بسطان عمر ونفوذه في عهد الصديق العظيم ، حتى قال بعضهم لأبى بكر : والله ما ندرى أنت خليفة أم عمر ؟

قال أبو بكر : إنه هر لو كان شاء •

وكان هناك فارق واضح يلحظه الباحث بين الصديق والفاروق ، وهذا الفارق يرسم صورتيهما رسما دقيقا ، استمع لخطاب أبى بكر الذى اففتح به خلافته : أيها الناس إنى وايت عليكم ولست بخيركم ••• والى خطاب عمر في موقف مماثل : أيها الناس إنى وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأفواكم عليكم وأشدكم اضطلاعا بما ينوب من دهم أموركم ، ما وليت ذلك فيكم ، ولو علمت أن أهدا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من ان أليته •

تواضع سمح من أبى بكر يتفق مع نفسه السهجة الرضية • واعتداد بالنفس من عمر يتفق مع طموحه وقوته ، ثم قل من ناحية أخرى إن سماحة أبى بكر كانت تتفق مع الظروف التى تولى فيها الخلافة ، حيث

كان العالم الاسلامى محدودا بالجزيرة العربية ، وحيث كانت تعيش النخبة الطيبة من أصحاب الرسول فى تواضعهم وصفاتهم ، أما عمر فقد تولى الأمر وقد امتد الاسلام الى أرض الفرس والروم ، وكثر المسلمون عدداً ، واتصلوا بحضارات الأمم المفتوحة ، وتطلع بعضهم الى الاستمتاع بالنعيم الذى كان يرفل فيه حكام هاتين الإمبراطوريتين وقادتهما ، كان عمر على صلة تامة بهذا التطور طيلة عهد سلفه ، ولذلك كان لابد له أن يتولى هذا الأمر فى قوة واعتداد بالنفس ، ليكبح جماح الطامعين •

وهناك ملاحظة أخرى تبرز فى حياة عمر وتتصل بالتطور الاجتماعى أيضا اتصالا وثيقا ، تلك هى العطف واللين والرحمة التى ملأت نفسه ، وأصبحت أبرز خصاله عقب توليته الخلافة ، فقد عرفَ الناسُ عمرَ فى عهدى الرسول وأبى بكر شديدا حازما ، وصوّرَه التاريخ لنا على أنه الشخص الوحيد الذى هتلك منذ دخل الاسلام حتى تولى الخلافة دور الشدة والقوة بجانب الرسول وبجانب الخليفة الأول ، حتى إذا آل له الأمر انقلب رخاء ويسراً ورحمة •

نجدَه فى غزوة بدر يصر على إعدام أسرى قريش ، ويهتف بالرسول قائلا : هؤلاء أئمة الكفر ، اضرب أعناقهم ، مكنتى من أقربائى فيهم ، ومكنت عليا وحمزة من أخويهما فنضرب أعناقهم •

ونجد شدته قد ذاعت ، وأصبح اسمه مقترنا بالجد والحزم عند الصغار والكبار ، فلقد روى أن جارية سوداء فى بيت الرسول ، نذرت مرة إن عاد الرسول سالما من إحدى غزواته أن تضرب بالدف فرحا وسورا ، فلما عاد الرسول سالما استأذنته أن تقي بنذرها فأذن لها ، وأخذت الجارية تضرب بالدف أمام الرسول ، ودخل أبو بكر وعثمان وعلي وغيرهم من أئمة ، وجلسوا مع الرسول والجارية مستمرة فى فرحها ونشاطها . ثم دخل عمر فسرعان ما وجهت الجارية وأسرعت تخفى دفاها ، فقال الرسول : يا أبا بكر ، انظر الى هذا الشيطان ليخاف منك يا عمر •

ويستمر عمر في شدته وحزمه في عهد أبي بكر ، حتى إذا أصبح عمر خليفة برز ما كمن في نفسه من عطف ولين ورحمة ، ولا شك أن أصدق تصوير لنفس عمر ما حدثت به عن نفسه في هذا الموضوع ، قال :

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . »

« إننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته في اللين والرحمة ، وكان — كما قال الله — بالمؤمنين رعوفا رحيفا ، فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعى فأمضى ؛ فلم أزل كذلك مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . »

« ثم ولى أبو بكر أمر المسلمين فكان من لا تتكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخذت شدتى بليته ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، فالحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . »

« ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد ضوّعت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فإننا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف . »

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن رحمة عمر الكامنة في نفسه لم يكن هناك ما يدعو لإبرازها في عهدى الرسول وأبى بكر ، فقد فاضت رحمة الرسول ورحمة أبى بكر حتى لم يبق لعمر مجال في هذا الاتجاه ، فلما آل له الأمر

وأصبح مسئولاً عن الرحمة والشفقة ، وملجأ الخنان للمعوز والمظلوم ،
ومصدر الحزم للظالم والجائر ، وفي " عمر بهذين الهمدين وزاد "

نماذج من حزم عمر :

فأبو سفیان ، مع حوِّله وطوله يظلم مسلماً فيأمره عمر بأن يرد
للمسلم حقه ، فيتردد أبو سفیان ، وحينئذ يهوى عليه عمر بالدرة ولا يدعه
حتى يعيد الحق إلى نصابه .

وسيف الإسلام خالد بن الوليد القائد الذي لم يهزم قط ، والذي
أبلى أعظم بلاء في نصرته الإسلام ، يأخذ عليه عمر بعض المآخذ فيقرر عزله .

وجبله بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يدخل الإسلام ويذهب ليطوف
بالببيت ، وهناك يظأ أعرابي ذيل إزاره سهراً ، فليثقت الملك إليه ويلطمه لطمه
قاسية . ويقضى عمر للأعرابي أن يئثر لنفسه ، ولا احتج جبله بأنه ملك"
والأعرابي سوقة ، أجابه عمر : لقد سوى الإسلام بينكما .

تلك صورة موجزة من شدة عمر ، وهي ومثيلاتها تدل دلالة قوية على
أنها قسوة في الحق ، قسوة لا تعرف الطغيان ولا التشفى وإنما تقييم
العدل وتكسر حدة الظالم .

ونماذج من لينه وسماحته :

وبجانب ذلك نجد نفس عمر تفيض رحمة ولينا وسماحة ، نجده يسرع
إلى دار الدقيق ليحمل منها عدلاً لامرأة فقيرة وصغارها الجائعين ، وفي
دار الدقيق يقول لمولاه « أَسلم » : احملْ علي هذا العدل . فيقول أسلم :
أنا أحماه عنك يا أمير المؤمنين ، ويكرر عمر قولته ويكرر أسام جوابه ، فيضيق
به عمر ويصيح : لا أم لك ، أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ احملة
عليّ . ويسرع عمر إلى المرأة ، ويساعدها في الطبخ وتبريد الطعام وإطعام
الأطفـال .

ويذهب مرة في تسمه الى فطام الدينة فيسمع اثنين امرأة ، ويتساءل عنها ، فيخبر أنها قد جاءها المخاض ، فيمنزل عمر ليسأل : من معها يساعدها ؟ فيرف أنها امرأة غريبة فقيرة نزلت هي وزوجيا في هذه البقاع حديثا ، فيسرع عمر الى زوجته ويسأليها : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ ويخبرها الخبر ، فتواثق على الذهاب لمساعدة المرأة ، ويصحبها عمر حاملا على ظهره دقيقا وشحما ، وتحمل زوجته ما يصلح للولادة ، ويجلس عمر مع الزوج يحادثه ولا يعرف أحدهما الآخر ، ثم تنادى زوج عمر : يا أمير المؤمنين بسّرّ صاحبك بغلام . فيدرك الرجل أنه في حضرة الخليفة العادل الرحيم ، فيثنى عليه ويشكر له .

وليس من الممكن أن نستمرس في ذكر هذه القصص الرائعة فقد أوردت منها كتب الأدب والتاريخ مجموعة كبيرة ، وكلشها تشترك في أنها تصوّر عمر حاكما مسلما مثاليا ، وقدوة حسنة لولاته وأتباعه .

ضور من أخلاق عمر :

بقى علينا أن نصور في نفس عمر جوانب غير جانب الاعتداد بالنفس والرحمة الفياضة ، وتلك الجوانب الجديدة ستصوره الحاكم الذي يترتب على صلاحه صلاح الرعية : « صنفان دن أهتى إذا صاحها صاح الناس ، وإذا فسدا فسدا الناس : العلماء والأهراء » :

لعمر في مال المسلمين سياسة وضحها بقوله : ألا إني أنزلت نفسي من مال المسلمين بمنزلة ولى أمر اليتيم ، إن استغنيت استعفتت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف تقرشم البهيمة بالبادية : القضم لا الخضم (أى كما تأكل فائسية البادية قليلا قليلا بأطراف أسنانها دون أن تملأ فمها بطعام تحتاج إلى الأضراس لطحنه) .

وهكذا كانت سياسة عمر وحياته ، بيت صغير قليل الأثاث ، طعام

طلالما تَكُونُ من الخبز والزيت والملح : ملابس ان اختلفت عن ملابس المسلمين فهي أقل منها ، وعفة عن مال المسلمين بلغت الغاية وزادت .

كان سارية بن زَيْمٍ يقود جيشا من جيوش المسلمين في حرب فارس ، وقد كتب له النصر ، وكان له مما ظفر به المسلمون سَقَطَ فيه جواهر ، فاستوهبه سارية من الجند وبعث به وبخبر النصر الى عمر ودخل رسول سارية بيت عمر وقت الظهيرة ، وطلب عمر طعاما لنفسه ولضيفه ، فجاء الغداء : خبز وزيت وملح جريش ، ونادى عمر زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، فقالت : انى لاسمع حسَّ رجل ، ولو أردت أن أبرز للرجال اثثريت لى غير هذه الكسوة . فأجاب عمر ألا يكفيك أن تكونى بنت علي بن أبي طالب وزوجة عمر ؟ فقالت : ما أقل غناء ذلك عنى .

وبعد أن فرغ الطعام قدّم رسول الجيش لعمر هدية الجيش له ، فتجهّم وجه عمر وصاح : لا ولا كرامة ، عد الى الجيش وقدم لهم ما غنموه ، وفتح الباب يطرد الرجل من بيته ، واعتذر الرجل ، وذكر أنه أنضى بعيه ، فأبدله عمر بغيرا من إيل الصدقة وجعل بعيه مكانه ، ورجع الرجل أسفا كاسف البال .

وكان عمر شديد الاحساس بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وهناك قصة شهيرة تعود المؤرخون أن يذكروها ويعلقوا عليها باعجابهم بحساسية عمر وشعوره بحق المسلمين عنده ، وقد سبق لنا أن أشرنا اليها ، ولكنى هنا أعيد الاشارة اليها وأعلق عليها من جانب آخر :

بينما كان عمر يمى اذ رأى نارا فأتجه لها فرأى امرأة وحولها صببية يتضورون جوعا ورأى قدرا منصوبة . . . فسأل عمرُ المرأة عمًا يُبْئى بنيتها . فقالت : الجوع ، جزى الله عمر . قال وما يجرى عمر بكم ؟ قالت المرأة : يتولى أمورنا ويغفل عنا . . . فأسرع عمر الى بيت الدقيق

وحملَ دقيقا وشحما وسارع للمرأة ، وأخذ يساعدها في طهو الطعام وتقديمه
للأطفال وهي تقول له : أنت أولى بهذا الأمر من عمر .

والذي نعجب له في هذه القصة هو إدراك المسامين لحقهم عند الخليفة ،
وإدراكهم لواجب الخليفة تجاههم ، وهذا يدل فيما أرى على نضج ديمقراطي
رائع ، شمل المرأة والرجل ، والمتعلم والجاهل ، والغنى والفقير .

ومن هذا أيضا ما حكى أن عمر جاءته برود فوزعها على المسلمين بردا
بردا لكل منهم ، وأخذ هو أيضا أحد هذه البرود ، وبعد أيام صعد المنبر
وناب الناس للجهاد ، فوقف رجلاً وقال : لاسمع ولا طاعة لسأل عمر :
ولم ذلك ؟

قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ، لقد خرج نصيبك من البرود بروداً
واحداً ، وهو لا يكفيك ثوبا ، فكيف فصكته قميصا وأنت رجل طويل ؟
فالتفت عمر الى ابنه وقال : أجبه يا عبد الله . فقال عبد الله : لقد ناولته
من بردى ما أتم به قميصه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

وهكذا كان عمر يسمح للناس بمحاسنته علانية ، وفي جمهرة من
الناس ، وكان يرى أن هذا حقهم ، فلم يغضب مرة ، ولم تأخذه العزة
بالإثم .

ومن إحساس عمر بالمسئولية إعلانه أنه مسئول عن أخطاء ولاته ،
ولا يعفيه من المسئولية أنه يحسن اختيارهم ، وقال مرة لمن حوله : أرأيتم
إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ؟
قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظر في عمله لأرى عمل بما أمرته أم لا .

ومن احساسه بالمسئولية أنه جعل موسم الحج موسم استطلاع
ومحاسبه ، يستقبل فيه ولاته فيسمع منهم ، ويستقبل المسلمين من جميع
الجهات ليسألهم عما يشكون منه ، ويستقبل عيونه الذين كان يوفدهم

ليروا أحوال الناس وسلوك أولاده ، ثم يعطى كل ذى حق حقه دون تردد أو إهمال •

على أن إحساسه بالمسئولية وصل الى درجة عالية عندما قرر ألا يبقى في الحجاز ليفد له الشاكون والمظلومون ، وخاف أن يكون بُعد الشقة حائلا دون بعض المسلمين من الحضور للمدينة ، أو إيصال شكواهم اليه ، ورأى من واجبه أن يسعى هو لهم يرى أحوالهم ويسمع منهم • قال عمر : « لئن عشت ان شاء الله لأسيرن » في الرعية حولا كاملا ، فانى أعلم أن للناس حوائج تفتطح دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى • فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين ؟ والله لتعم الحول هذا » •

المؤمن في ميزان عمر :

ولعمر في تقدير المؤمن ميزان رائع ، نظر فيه الى أن يكون المؤمن عضوا صالحا في المجتمع ، قال : « لا تنظروا الى صيام أحد ، ولا الى صلاته ، ولكن انظروا من اذا حدث صدق ، واذا ائتمن أدى ، واذا هم بالمعصية زجر نفسه وكبح جماحها » وقال : « لا يعجبكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة وسلم الناس من لسانه ويده » •

صور من اجتهاد عمر :

وكان عمر في القضاء والاجتهاد موهوبا موهوبا ، وقد بدت مواهبه هذه منذ عهد الرسول حتى قتل عليه السلام فيه : « قد كان قبلكم رجال عاقلون من غير أن يكونوا أنبياء ، فان يكن في أمتى أحد فعمر » وقد كان عمر جريئا في اجتهاده ، يعرض رأيه ويدافع عنه ولو كان للرسول رأى سواء وكذلك ننان في عهد أبى بكر ، وفي بعض الحالات كان القرآن الكريم

يؤيد رأى عمر كما حدث فى أسرى بدر ، ولنا هنا أن نلاحظ أمرا ذا بال هو أن عمر كان يحترم رأى الآخرين كما يحترم رأى نفسه ، جاءه رجل يمرض عليه قضية فأحاله الى على بن أبى طالب الذى كان يتولى القضاء ، ففضى على فيها باجتهاده ، فلما رأى عمر الرجل سأله عن فضيل

قال الرجل : قضى على بكذا *

قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا *

قال الرجل : فما يمنعك والأمر لك ؟

قال عمر : لو كنت أردك الى كتاب الله أو الى سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك الى رأى ، والرأى مشترك ولست أدرى أى الرايين أحق عند الله *

وقد وصل عمر فى الاجتهاد مرحلة عالية بعيدة الأثر فى حياة الدولة الاسلامية ، فاقترح الخراج وأعاد النظر فى توزيع الغنائم ، وفى عطاء المؤلفه قلوبهم وغير ذلك مما سنشير اليه عند الحديث عن عمر والمجتمع الاسلامى *

وفىما يتطرق بالشورى جعل عمر من كبار المسلمين مجلس مشورة له ، لا يبرم أمرا ولا ينقضه الا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مآثورات النبى وأحاديثه *

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلاً من راجعه فى ذلك : « أكره أن أدنسهم بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بهسـن تصرفه وصادق تدبيره ، فهم كانوا مجلس الأمة ، وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان (١) *

(١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

وكان كثيرا ما يلجأ للشورى العامة ، فيدعو الناس الى الاجتماع في المسجد ، ويعرض عليهم الأمر الذي يهمه فيستمع لآرائهم ، ويستفيد باتجاهاتهم وأفكارهم •

وكان يأمر الولاة والقادة بالألا يستبدثوا بأمر وأن يستشيروا من معهم من الصحابة ، ومما ورد في كتابه الى أبي عبيد الثقفى قائده فى العراق قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله وأشركهم فى الأمر » •

على أن أهم ما نحب إبرازه بصدد الحديث عن الحكم وسياسة الحاكم أن الرسول وخليفته كانت حياتهم كلها لمصلحة الرعية ، حتى ليمكن القول إن الحاكم كان خادما للحكومين ، ولم ينل أحد منهم لنفسه شيئا قط ، ولكنه أعطى من ماله ومن جهده عطاء لم ينتظر من الناس له جزاء ، كان كل منهم بذلك أسمى قدوة للحكام جميعا مهما اختلف الزمان والمكان (١) •

عمر والمجتمع الاسلامى :

تحدثنا فيما سبق عن شخصية عمر ، ولكننا قد تخيرنا من أخلاقه ما يتصل بالمجتمع لننظر فى حدود الإطار الموضوع لهذا البحث • ونريد أن نتحدث عن المجتمع الاسلامى نفسه فى هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ •

بدأ التوسع الاسلامى فى عهد الصديق فى السنة الثانية عشرة للهجرة ، ومات أبو بكر فى العام التالى والحرب لا تزال دائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وفى عهد عمر كانت الدولة الاسلامية قد امتدت واستقرت ، وهدأت الحروب ، بعد أن شملت الدولة الاسلامية العراق وفرنس والشام ومصر وبرقة •

(١) اقرأ كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

لم تعد الدولة الاسلامية عربية ، وانما شملت أجناسا مختلفة ،
ارتصلت بحضارات قديمة ، كحضارة الفرس والآشوريين والبابليين
والعبرانيين .

ولم تعد الحياة بسيطة . وانما تعقدت الأمور وجرت
مشكلات متعددة الجوانب كثيرة الاتجاهات ، فمثلا لم يكن لدى المسلمين
جيش ثابت منظم ، وكان الرسول وأبو بكر وعمر — في أول عهده —
يندبون الناس للجهاد فيأتى الناس ، ويحضرون معهم طعامهم وسلاحهم
وهما يركبونه ان كانوا من الفرس ، فمن لم يستطع الحصول على فرس
يركبه انضم الى صفوف الرعجالة ، وبعد الجهاد يعود هؤلاء المجاهدون
إيياشروا أعمالهم العادية في التجارة أو الزراعة أو رعى الغنم . فلما
اتسعت المملكة الاسلامية ، وأصبحت لها حدود تصلها بالروم كان لابد
من تكوين جيش يحرس هذه الحدود ويقف أمام الأعداء المتربصين ،
وهكذا اضطر عمر الى تكوين جيش .

ولم تكن هناك مراتب منتظمة ، بل كان المجاهدون يقتسمون الخيمة
إن حصلوا عليها ، فان لم يحصلوا على خيمة فنحوا بالشواب من الله .
وعادوا إلى أعمالهم التي يرتقبون منها . ولكن الجيش المرابط على الحدود ،
والذى اتخذ الدفاع عن الدولة الاسلامية عملا تفردت له احتياج الى
مراتب منتظمة ، تصرف لأعضائه ، دون أن يتتركوا هم وأسرهم لخيمة
قد تجيء وقد لا تجيء .

ودخل الاسلام أما غير عربية ، فكان لابد من تقديم الأئمة العربية
لهؤلاء بشكلٍ ما .

وهكذا احتاجت الدولة الجديدة التي كثير من المنشآت ، وهكذا تطلع
المجتمع الجديد الى نظم جديدة تحل ما ظهر فيه من مشكلات عديدة ،
وقد نهض عمر بهذا العبء الضخم نهوضا عظيما ، ووفق توفيقا بلغ الغاية
(م ١٠ — المجتمع الاسلامى)

فيما أنشأ وما اقترح ، وكان الذهن به هاسما موهوبا ، ولم يدع أمرا يضطرب ثم يقترح له الدواء ، وانما كان في الطالب يحس بالحاجة قبل ظهورها فيقيم بالوقاية حتى لا ينشأ الداء . وسنعيش في هذا المجتمع فترة من الزمن لنرى ركبته يسير في أمن ورخاء .

حاجات المجتمع الجديد :

تحدثنا فيما سبق كيف كوّن عمر الجيش ورتب المرتبات ، وقد سار عمر يستجيب للدواعي الجديدة فرتب الدواوين ؛ وعين لها الموظفين من الفرس والروم والمصريين ، وقسم الولايات ، وضرب الدراهم ، وأنشأ نظم الحسبة ، وثبتت التاريخ الهجرى ، ونظم البريد ليصل بين أجزاء المملكة الفسيحة ، وبذلك ضمن عمر للمجتمع الاسلامى حياة منتظمة سلسة تضمن له السلامة وتحقق له الخير .

والدين الاسلامى يشرع للدينيا ، ينظم صلوات الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، ويشرّع للآخرة فيعلمنا عبادة الله ووحديته والايمان بالصراف والميزان والجنة والنار ، من أجل هذا أدرك عمر مسؤوليته ليضع للمجتمع الجديد ما يلائمه من نظم وليغير في بعض الأحوال من النظم التى اتبعت من قبله إذا كانت الأحوال في المجتمع الجديد تستدعى الابتكار أو التغيير ، وكان عمر كما يقول الدكتور هيدل (١) يسترشد بروح الاسلام لا بالناحية الحرفية فيما يعرض عليه ، وكان لعظيم ايمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله ، جريئا في الاجتهاد ، وان خالف ظاهر النص ، فاذا ورد نص لم يبق في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه ، واذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أو تله ، حريصا في هذا وفي ذاك على ملائمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفاقه في الوقت نفسه مع روح المبادئ والتعاليم المحمدية .

(١) الفاروق عمر ج ٢ ص ٢٨٢ .

وسنعرض فيما يلي بعضاً من المشكلات الاجتماعية التي اجنود ميها
عمر ووضع لها حلولاً ناجحة ضمنت لهذا المجتمع حياة ناجحة موفقة •

ولعل أبرز الأدلة على اتباع عمر لروح الاسلام أكثر من اتباعه
للناحية الحرفية ، موقفه من كبار الصحابة ، فقد منعهم من مغادرة المدينة
إلا بأذنه ولأجل محدود ، ولم يسمح لهم بالخروج الى الأقاليم أو امتلاك
الضياع بها ، فمن الواضح أنه ليس في الذين الاسلامي أن يُمنَّح الرجز
الذي لا حكم عليه من الخروج عن بلد الى بلد ، ومن امتلاك الضياع بالحق
والعدل ، ولكن عمر أدرك أن هذه الطبقة من كبار الصحابة لو خرجت
للأقاليم لالتفت حولها الناس ولأخذوا بما سيسمعونه منهم من أحاديث
عن صحبتهم للرسول وموقفهم في نصرته ، وسيخلق هذا لهم مكانة في
نفوس الجماهير من الناشئين الذين يتسقطون الأحداث المتصلة بالرسول ،
فاذا أضيف الي هذا اباحة تملك الضياع لهؤلاء ، ستكون النتيجة أن كلا
منهم سيكون لنفسه دولة في قلب الدولة ، ولهذا منعهم عمر من مغادرة
المدينة إلا بأذن ولأجل محدد كما قلنا ، وكان عمر في ذلك يعمل بروح
الاسلام •

فلما تولى عثمان أذن لهؤلاء بالسفر والاقامة حيث يشاءون ، فكان
ما خافه عمر ، وأنشأ هؤلاء لأنفسهم أرسنقراطية دينية سداها المال واحمتها
السبق في الاسلام وصحبة الرسول ، وكثر أشياع كل منهم وأتباعه ، فلما
حضرت وفود البلدان تعمل على خلع عثمان ، كان كل وفد حريصاً على أن
تسند الخلافة للصحابي الذي يعيش ببلدتهم ، فأهل البصرة يريدون الزبير ،
وأهل الكوفة يريدون طلحة وهكذا (١) •

عمر والغنائم :

وهن اجتهاد عمر أيضاً اقتراحه مسألة الخراج ، وقصة ذلك أن

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص

المسلمين كانوا قد جروا حتى أوائل عهد عمر على أن ما يغنموه في الحروب يقسم أخماسا ، فأربعة أخداسه توزع على الجند المنتصرين ، وأما الخمس الخادس فتؤولى الأمر ليزوجه على من شملتهم الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول واذى القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) . فلما فتح المسلمون أرض السواد بالعراق وأرادوا قسمها على هذا النحو ، خالفهم عمر ، واقترح أن تبقى الأرض في يد زارعها وأن يدفعوا عنها خراجا لبيت المال ، وفي ذلك ما يجبب الأهلين في الاسلام ، إذ سيبقى كل في أرضه ، وسيدفع خراجا عنها أقل مما كان يدفعه عنها قبل الاسلام ، ثم ان ذلك سيضمن دخلا منتظما لبيت المال الذى أصبح مسئولا عن دفع مرتبات منتظمة للجنود والقضاة وغيرهم .

ولا شك أن رأى عمر كان ضدمة للجنود ، بل كان مخالفا لكل ما في أذهان الناس ، ولكن عمر كان يؤمنا بهذا الرأى فوقف قويا يشرحه ويدافع عنه . دون أن يستعمل نفوذه أو سلطانه لفرضه على المسلمين ، ومال المسلمون الى هذا الرأى يوما بعد يوم ، وكان في مقدمة من مال إليه عثمان وعلى وطلحة ، ثم أرسل عمر الى عشرة من أشرف الأنصار فجابوا إليه فقال لهم : إني لم أزعجكم الا لتتشاركوا معي فيما حملت من أموركم ، فاني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرشون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى لأنه هو هواى ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده فإني ما أريد به الا الحق ، قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين . وشرح لهم عمر رأيه على نحو ما أوجزناه آنفا فأجابوا : الرأى رأيك فنعم ما قلت وما رأيت (٢) .

(١) سورة الأنفال : الآية ٤١ .

(٢) اقرأ قصة الخوارج في المراجع الآتية :

أ — الماورى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ .
ب — يحيى بن آدم : الخراج ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٨ .
ج — أبو يوسف : الخراج ٢٩ — ٣٠ .
د — الاقتصاد في الفكر الاسلامى للمؤلف .

كم كثر، عمر موافقا في هذا العمل الاجتماعي العظيم ، وكم كان عميق
الذكر ، ينظر للمسلم ويأخبر المسلم ، وينظر للحاضر والمستقبل ، يرى
حسيف وإيمان وطيد ، بل بالهام لم يحظ به إلا القليلون .

عمر والمؤلفة قلوبهم :

وتوزيع الزكاة يجرى تبعاً للآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء
والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي
سبيل الله وابن السبيل » (١) وكان من المؤلفة قلوبهم في صدر الاسلام
جماعة كان الرسول يعطيهم من الزكاة ليتألفهم وليساعد على تثبيت الايمان
في قلوبهم ، ومن هؤلاء أبو سفيان وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس ،
وهم من أصحاب النفوذ في الجزيرة العربية ، وقد كان الرسول يعطيهم
بسخاء وكذلك أعطاهم أبو بكر ، فاما جاء عمر حضر اليه عيينة والأقرع
ظانين أنه سيسير على نهج الرسول وأبي بكر في هذا الأمر ، ولكن عمر
تدبر الأمر وواجههما بقوله « إن الله أعز الاسلام وأغنى عنكم فان تبشتم
عليه والا فبيننا وبينكم السيف » .

وهكذا وضع عمر هؤلاء الناس على قدم المساواة مع باقى المسلمين ،
فعليهم أن يعملوا كما يعمل الناس ، لا أن يعيشوا عائلة على سواهم ، ولا
أن يأخذوا نصيبا آخرى به أن يدفع للفقراء والمساكين ، ومنذ ذلك الحين
اتجه الفقهاء الى إعطاء المؤلفة قلوبهم اذا كانوا حديثى عهد الاسلام ،
ليستطيعوا أن ينظموا أمورهم ويرثبوا شؤونهم ، وبعد ذلك يقطع عنهم
هذا العطاء .

عمر والضرورة :

ومن ابتعاد عمر تطبيقه لبدأ الضرورة في كثير من الأحيان الزامة ،
فقد برز عليه قضية امرأة زنت وأقرت بالزنا ، ولكنها تفتقر إلى المال

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

عن سبب ذلك أجابت بأن السبب هو حاجتها الشديدة إلى ماء يروى ظمأ كانت تعانيه ، وقد أبى صاحب الماء أن يمنحها شربة حتى تسلم له نفسها ؛ فرفضت حتى ائتمت بها العطش وخافت الهلاك فقبلت ، وقد استشار عمر الصحابة في هذا الأمر ، فقال على " إنها مضطرة ، ويأخذ عمر بهذا الرأي ولم يوقع عليها الحد .

وسرق غلطان لحاطب بن أبي بلتعة ناقة لرجل من مزيينة ، فأتى بهم الى عمر فأقروا ، فاستدعى الخليفة عبد الرحمن بن حاطب ، وقال له : إنكم تستعملون هؤلاء الغلطان وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، وأيم الله اذا لم أقطع أيديهم لأغرمك غرامة توجعك . ثم قال : يا مزينى بكم أريدت منك ناقتك ؟

قال : بأربعمائة .

قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب : أعطه ثمانمائة :

وأعفى الغلطان من الحد لأن الضرورة هي التي دفعتهم للسرقة .

مجتمع متعاطف

حدثت في عهد عمر حادثة جسيمة ، أو قل أحداث جسام ، وثيقة الصلة بموضوعنا ، تلك هي المجاعة القاسية ، وما جرت به من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ؛ وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع ، الذي تكون منه جسم اذا شكاه منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

تسعة شهور تبتدىء من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة لم يهطل المطر خلالها في شبه الجزيرة ، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها وما عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذي تحمله الرياح حتى سمي هذا العام عام الرمادة .

والجزيرة العربية تعيش على المطر ، انه يهطل فيشرب الناس ويزرعون ويحصدون ، وترعى ماشيتهم فتربى اللحم والصوف وتدر اللبن • فاذا توقفت المطر وطال توقفه جف الزرع والضرع ، وعم الجوع والبلاء ، وهلكت الماشية أو أصبحت عجفاء هزيلة ، وهذا ما حصل في هذا العام ، فان الماء نضب ، ونضب معين الزرع ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربي يذبح الماشية ثم يعافها لقبحها وهزالها •

وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية في الجزيرة العربية • وهرع أهل البادية الى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون اليه أن يدبر أمرهم ، وبلتسمون عند أهل الحضر شيئاً مما تعودوا أن يفتنونه •

وأحس عمر بجوع الناس وحرمانهم فحلف ألا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحييا الناس ، ووضع دستوراً العادل « كيف يعينني شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسنهم » قال عياض : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان وأكل الزيت • وقال يزيد بن أسلم : لو لم يدفع الله المحلّ عام الرمادة لظننا عمر يموت هما بأمر المسلمين •

وكتب عمر الى الولاة في الشام وفلسطين والعراق ومصر يستنجدهم ويطلب منهم العون وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير : « سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكا ومن قبلى • وتعيش أنت ومن قبلك • فياغوثاه ! يا غوثاه ! يا غوثاه ! » (١) لم يصدر عمر أوامر • وكل ما فعله هو هذه المقارنة التي تثقّر ضرورة التعاون في السراء والضراء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الاسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أو يتخمون •

وسارع المسلمون في كل مكان يلبنون دعوة اخوانهم في الجزيرة العربية ، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم وكان أبو

(١) السبوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ ، والمقرئزي : الخطط

عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص في أربعة آلاف راحلة محملة طعاما ، وكتب عمرو بن العاص للخليفة يقول : أما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، قد بعثت اليك بعير أوليها عندك وآخرها عندي (١) ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام ، وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ، هذا عدا الأكسية الكثيرة التي أرسلها هؤلاء ، وكان عمر يرسل من يستقبل العير ويميل بها الى المحتاجين ، وكان حريصا على أن يسد خلقة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقول لكل من مندوبيه : أما ما لقيت من الطعام فمِلْ به الى أهل البادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفاً يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من احوها ويخزنون من ودكها . ولا ترض أن يقولوا ننتظر بها الحيا ، وأما الدقيق فيصنعون ويخزون حتى يأتي أمر الله بالفرج .

وكان عمر يُعِدُّ الطعام في بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة ، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة عددا هائلا ، أما المرضى والضعفاء فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، هذا بخلاف الأسر بالمدينة التي كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها .

وضع عمر دستور التعاون الذي لا نعتقد أن المدينة في أسمى مراحلها تستطيع أن تصل اليه قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدخِلَ على أهل كل بيت عدتهم فيتاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فطعت ، فانهم ان يهلكوا على أنصاف بطونهم .

وما ان انتهى هذا القحط وهبط المطر حتى روع المسلمين حادث آخر ليس أقل خطراً من المجاعة والجذب ، وذلك هو الوباء الذي انتشر في أرض

(١) المرجعان السابقان .

الشام ، انتقل منها إلى العراق ، وقد نجد هذا الوباء عندنا كثيراً من المسلمين ، وكان يصيب الرجل فيسقط سريعاً ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على جند الشام في ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل خطرهم ، وأبو عبيدة حبيب إلى نفس عمر ، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر في أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هذا فكر في إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت .

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يناله ما ينالهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجد عمر لا يكتب لأبي عبيدة يعلن له ما بسرّ بشأته ، بل يكتب بأن يكتب له : « أما بعد فإنني قد عرّضت لى اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى » .

ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعزّ عليه أن يخلى جنده في منطقة الخطر ويغير بنفسه ، فكتب إلى عمر يقول : « انى قد عرفت حاجتك الىّ ، وانى في جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فليست أريد فراقهم حتى يقضى الله فيّ وفيهم أمره وتقضاه ، فحاللتنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى في جندى » وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فسأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكان قد . ومات أبو عبيدة بعد ذلك في وسط الوباء (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٥ .

غير المسلمين في المجتمع الاسلامى

في أكثر الأقطار الاسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مر التاريخ يوجد مسيحيون ويهود في مصر ، وإندونيسيا . والعراق ، والمغرب ، وغيرها ، كيف عاث هؤلاء في الماضى وكيف يعيشون الآن ؟

وفي مقابل ذلك عاث المسلمون أقلية في بعض البلاد ، أو في بلاد حكوماتها غير اسلامية ، كما عاشوا في الأندلس بعد سقوط الحكومات الاسلامية ، وكما عاشوا في فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا في الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون في إسرائيل الآن . كيف عاث المسلمون في تلك المجتمعات غير الاسلامية ، وكيف يعيشون ؟

الاجابة عن هذين السؤالين واضحة ، نراها في الواقع الذى نعيش فيه ، ونقرؤها عن الماضى فيما دونته أدق المصادر العربية والأجنبية ، تعال بنا نسجل ما شاهدناه وما نشاهده في عهدنا الحاضر ، ثم نعود فنرى ما دونه المؤرخون عن أحداث الماضى .

فى العهد الحاضر نرى غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الاسلام ، وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون . ونطوف العالم الاسلامى فهيهات أن نرى شكاة من مسيحي أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، بل كثيرا ما نرى الثروات الضخمة والمتاجر الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون في ظل حكومات إسلامية .

وفي العهد الحاضر أيضا ، رأينا — فيما يقابل ذلك — المسلمين الذين يعيشون تحت سلطات حكومات غير اسلامية يعانون ألوانا من الآلام والقسوة والحرمان والاضطهاد ، انهم هكذا يعانون في إسرائيل . حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة اليها ، وهكذا يعيشون في الفلبين

مهددين بالابادة ، وهم كذلك عانوا في الهند قبل التقسيم حتى اضطروا تحت ضغط الوحشية والبربرية أن يستتلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان .

والماضى صورة تطابق الحاضر في الحالتين . فقد لقي المسلمون من الحكومات غير الاسلامية صنوف الاضطهاد والتنكيل ، ويحدثنا غوستاف لوبون (١) عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية التي كانت طابع حكم الصليبيين في فلسطين فيقول : لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها ، فعقدوا هؤتمرا أجمعوا فيه على اباده جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ٦٠ ألف ، فأفنؤهم عن آخرهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا . ويقول غليوم الحورى أن الصايبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف ذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجى .

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها المواقع الذى يرينا أنه ليس في أسبانيا الآن مسلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين في قاع البحر أو أسالوا دماءهم وأزحقوا أرواحهم ، أو ارغموهم إرغاماً على ترك الاسلام والدخول في دينهم فقد نشر في فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبل شهر أبريل وألا يصحبوا معهم ذهباً ولا فضة ، وألا يذهبوا في طريق يقودهم الى أرض اسلامية والنتيجة التي جاءت أثرا لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع (٢) .

وهكذا ندرك في يسر وسهولة أن المسلمين لقوا في المجتمعات غير الاسلامية ألوانا من الاضطهاد والابادة ، وكان الهدف الذى سعت اليه

(١) حضارة العرب ص ١٩٤ .

(٢) اقرأ الجزء الرابع من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة

الاسلامية » للمؤلف ص ١٠٦ .

هذه المجتمعات هو إفناء الاسلام وإرغام ذويه على الارتداد عنه ، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم الى الدمار والفناء •

أما غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية خلال العهود الماضية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا في ظل الاسلام بالرخاء والأمن والسلامة ، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين في معاملة غير أتباع ديانتهم ، وسار السلف الصالح في ضوء ذلك ، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحيون أنفسهم ، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا •

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم برة وعدولا ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين • ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (١) » •

ويبيح الاسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجا بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفي هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وأهل الكتاب مما يدل على أن الاسلام دين الانسانية ، وفي ذلك يقر الله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحسنات من المؤمنات والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (٢) •

(١) سورة المتحنة : الآية الثامنة .

(٢) سورة المائدة الآية الخامسة . ويتساءل بعض المفكرين :

هل يجوز للمسلمين أن يتزوجوا من نساء الكفار ؟ (١) . ولا يجوز للكتابيين أن يتزوجوا من نساء المسلمين . (٢) .

والجواب عن (١) : لا يجوز . وعن (٢) : لا يجوز .

والجواب عن (٣) : لا يجوز .

والجواب عن (٤) : لا يجوز .

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الاسلام . وهنا يدعو الاسلام الابن أن يظل طيب الصحبة لأبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهدك على أن تنسك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعها وصاحبيهما في الدنيا معروفا » (١) .

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمون ايمانهم بأديان أهل الكتاب تقريبا منهم ، وتضييقا للهوية بينهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (٢)

ومن تسامح الاسلام مع أهل الكتاب الذين يعيشون في بلاد إسلامية أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الاسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر أو يأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى في معاملة أهل الكتاب ، فقد روى أنه كان يحضر ولائتهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ، ويزورهم ويكرمهم ، حتى روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش

وبحكم سلطان الأب ، أما اولاد الأم المسلمة من الأب الكتابي (لو أمكن الزواج) فيحتمل أو يكثر أن يرغمهم الأب على اتباع دينه ، ومعنى هذا أن تلد الأم المسلمة اولادا يكونون غير مسلمين ، وهذا ما لا يرضاه الفكر الإسلامى .
ثانيا - يعترف المسلم بنبوته موسى وعيسى ، ويكن لهما الاحترام ، فلن تجد الكتابية في رحابه ما يؤلمها في دينها ، ولكن الكتابي الذي لا يعترف بالاسلام ولا بالقرآن ولا بمحمد يحتل أو يكثر أن يهاجم هذه القيم ، أو يمنع زوجته من أداء واجباتها الدينية ، ولهذا منع هذا الزواج .
على أن كثيرين من المجتهدين يمنعون تزوج المسلم من كتابية إذا خيف على الأطفال أو كان في هذا الزواج ما يقوى شوكة اعداء الاسلام عليه وقد شرحنا ذلك بتفصيل كاف في كتاب « الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامى » .

(١) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

لهم عباته وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقودا ويرهن عندهم أمتعتة ، حتى أنه توفي ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة في دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عجزا من أصحابه عن اقراضه إذ كان منهم الموسرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشادا (١) .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذمياً فليس منى . وكان حرص المسلمون على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة قابل مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين الذين يخالفونهم في العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدعى هو وأصحابه أنهم ذميون وهكذا فعل وهكذا نجا (٢) .

ومن الطبيعي أن السلف الصالح ساروا في معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، ولناخذ عمر بن الخطاب نموذجا للسلف الصالح ، ففي عهده اتسع العالم الاسلامي وضم آفاقا من غير المسلمين ، وفيما يلي سطور من نور تبين جانبا من أدب الاسلام وخلفاء الاسلام :

تحقق النصر لجيوش المسلمين التي تحارب في إيلياء (بيت المقدس) ولكن عمر كان حريصا على السلم بمقدار حرصه على النصر . ولذلك نجده يرحل بنفسه الى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهده جاء فيه :

« . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها . . . » . . .

(١) عفيف، لياراة: روح الدين الاسلامي ص ١٩٩ .

(٢) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ج ٢ ص ٢٥٤ .

خيرها * ولا من صابيتهم ولا من أموالهم ولا يكفرون على دينهم ،
ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود * * (١) *

وكان عمر لا يكتفى بهذه العهود يقطعها لهم عليه وعلى قومه ، بل
كان يشفعها بوصاياه المتكررة الى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل
الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، وألا يكلفوهم فوق
طاقاتهم ، وقد سجل ذلك في وصيته قبل موته *

وهن الناحية العملية نجد أن عمر وفي بما وعد بل زاد عليه عطا
وتسامحا وحسن معاملة ، فبينما هو في كنيسة القيامة اذ دخل وقت الصلاة ،
فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريك : لو صليت داخل الكنيسة
لخفت أن يقول المسلمون من بعدى : هذا مصلّى عمر ، وأن يحاولوا
أن يقيموا في هذا المكان مسجدا *

الزكاة للفقراء من المسلمين وغير المسلمين :

وروى أنه رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عمر : ما الذى
حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة واليسر * فأخذ عمر بيده
وذهب الى منزله حيث أعطاه عطاءً سخياً ، ثم أرسله الى خازن بيت المال
مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرياه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا
شبيبته ثم نخذه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا
من مساكين أهل الكتاب * (٢) *

وهو وهو في أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن
يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (٣) *

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٥٩ *

(٢) أبو يوسف ، الخراج ص ١٥٠ *

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل واليا أحسن أنه ضاق ذرعا ببعض أهل الكتاب في ولايته ، فضاف عمر أن يجور عليهم : روى أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة ، فنقد صبر الوليد مما كانوا يعملون ، فقال شعرا يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر فخشى أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته وعين أميرا غيره .

الجزية :

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة والأصمى ، ولا الشيخ ولا الأعمى والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوتت بتفاوت حالة الذمى المالية ، وأقصاه ٤٨ درهما في العام ويدفعها الأغنياء ، وهي حوالى جنيهين ، وهى على المتوسطين ٢٤ درهما ، وعلى العمال والصناع ١٢ درهما .

وتدفع الجزية لسببين :

١ — يستمتع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة وغيرها ، والمرافق العامة تحتاج الى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق .

٢ — لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بلّ يقوم بذلك المسلمون ، ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير اعفائهم من هذا الواجب الكبير . ويسجل التاريخ أن بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم في الدفاع في بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك في عهد عمر أيضا (١) .

(١) اقرأ « الاقتصاد في الفكر الاسلامى » للمؤلف ، وهناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعا لأية شبهة عند بعض القراء ، وهى أنه بناء على الدراسة السابقة لا يلزم الاسلام أهل الكتاب في العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية ، لأنهم يدفعون الضرائب التى يدفعها المسلمون ويحمونهم السلاح في الجيوش مع المسلمين .

يروى البلاسرى (١) أن المسلمين عندما دخلوا حرم أنذرا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعدوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحببنا إلينا كما كنا فيه من الظلم والعشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع جندكم . ونهضوا بذلك ، فسقطت الجزية عنهم .

والذى قد ورد أن نسجناه هنا أننا نسج بساطة هذه الجزية ، ومع سياسة القسطنطينية التي اتبعها رومها ، دخل كثير من أهل الكتاب في عهد دين الإسلام أفواجا ، لا نرى من الجزية ، ولا تعاضيا لموء معاملة وإنما اعجابا بصدق الإسلام وخلق خليفة المسلمين .

وسار المسلمون في مختلف عصورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سار عليها الخلفاء الأمويون عندما انتصروا في الهند والأندلس ، وسار عليها نور الدين زنكي في انتصاراته ضد الصليبيين ، وسار عليها صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين في فلسطين ولكن دون تفكيك ودون وحشية ، ونفخت هبذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون في ظل الإسلام من سلام وعون :

يقول عيشو بابيه أحد البطاركة المسيحيين : إن العرب الذين مكثهم الرب من السيطرة على العالم يماثلوننا كما تعرفون ، أنهم ليسوا بأعداء للصراية ، بل يمتدحون ملكتنا ويرثرون قسيسينا ، ويهدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (٢) .

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

(٢) Thomas of Marga : Books of Governors Vol. 2, p. 155.

نقلا عن « روح الدين الاسلامي » ص ٢٠١ .

(م ٩١ — المجتمع الاسلامي)

ويقول آدم متر (١) إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبيعَ ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، أو كأنها لا تكون جزءا من المملكة . معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقد نبت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا في القرون الوسطى .

ويصـبـد

هذه هي الأسس التي تكوّن عليها المجتمع الإسلامي ، والنظر إليها يدرك أنها شاملة لكل حاجات المجتمع ، فهي تنظم علاقة الانسان بربه ، وتنظم علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالمجتمع ، ومع هذه القوانين الحاسمة التي تنظم هذه العلاقات ، تبرز المؤاخاة ، والقعدة الحسنة ، ونفقة التطوع لتضيف المندوب إلى الواجب ، ولتوضح أن الإسلام ليس فقط دين قوانين ، ولكن بالاضافة إلى ذلك دين حب ووسيلة.

ونما المجتمع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر ، وجدته بالتوسع العظيم وقبل التوسع مشكلات جديدة ، ولكن روح الإسلام وجهت الخليفين العظيمين لبيئتهما في حدود الاطار الإسلامي ما احتججه المجتمع الجديد .

ولو تنارت الأمور على هذه النحو في العصور التالية لظن المجتمع الإسلامي قمة بين المجتمعات في جميع الشؤون ، ولكن أشياء حدثت أحدثت التراجع في مسيرة هذا المجتمع ، وعن هذه الأشياء سيكون بحثنا في الباب التالي

(1) An Introduction to the Islamic civilization, by Khuda Bakhsh.

الباب الرابع

تدهور العالم الإسلامي ونسبته

«سلاحيته» برأيه، مستمدة على النقيض من الاسلام والمسلمين طيلة قرون طويلة من التاريخ ، ومستحدث عن هذه العوامل في هذا الفصل ، ولكنني أميل الى أن أبادر إلى تسجيل ملاحظة احس بأنها جديرة بالابرار في هذا المكان .

اشتدت الأزمات على المسلمين نابعة من الداخل أو واردة من الخارج ، وجاءت عهود كثيرة لم يبق في أثنائها بلد اسلامي واحد الا وهو يتن ويعانى قسوة هذه الأزمات ، ولكن الاسلام ظل ينتشر ويمتد ظله من مكان الى مكان ، لقد استطاعت هذه العوامل أن تضعف المسلمين ، ولكنها على رغمها وقفت عاجزة أمام قوة الاسلام وتطوره وانتشاره .

الإسلام غلاب :

وكانت هناك أديان أخرى وحركات دينية متعددة لها دعاء ومبشرون ، وكان هؤلاء الدعاء مؤيدين بالثقافة الواسعة ، وبالسلطان ، والنفوذ ، وبالمال والوعود ، ولكنهم جميعا وهنوا أمام انتشار الاسلام وامتداده على يد تاجر ضحل الثقافة ، أو داعية يدعو الناس للاسلام ، ولا يقدم لهم المال ولا الأمانى ، بل يأخذ منهم الهدايا ويتقبل العطايا .

أين نتائج الدعاية والتبشير في السودان ؟ وأين نتائجها في إندونيسيا ؟ وفي إفريقية ؟ وغيرها ؟ ثم كيف انتشر الاسلام وتسرب الى القلوب في هذه البقاع وفي غيرها بجميع الدول والمقارنات ؟

يقول زويمر رئيس المبشرين المسيحيين : « إن المبشرين المنتشرين على ضفتى النيل ، وشرقى إفريقية وبلاد النيجر والكنغو ، يسكنون مرء الشكوى من سرعة انتشار الاسلام في هذه الأنحاء ، وبالرغم من أن انتشاره في الهند الهولندية (إندونيسيا الآن) قد لقي الموانع من جهود جمعيات التبشير الهولندية والألمانية فهو يتوطد ويثبت هناك » .

إننا معشر المؤرخين نتعب أنفسنا في البحث عن أسباب انتشار الإسلام واضمحلال التبشير بالهندوكية والبوذية والمسيحية وغيرها ، ولو أنصفنا معشر المؤرخين لأرحننا أنفسنا من جهد التفكير ، وأبرزنا الجانب الروحي في نفوسنا ، وقلنا بقوة وإيمان : إن الله وحده هو الذى حمى الإسلام وحرسه ، وهو الذى هيا النفوس لاستقباله واعتناقه ، لأنه الدين الذى ارتضاه ، وقال عنه : « إن الدين عند الله الإسلام » (١) .

الإسلام ينتشر في حالتي النصر والهزيمة :

وكدعوتى هذه الملاحظة الى تدوين ملاحظة أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا ، ولست أعرف أحداً من المؤرخين أبرزها أو تحدث عنها ، تلك هى نتائج الغزوات الحربية التى تمت في عهد الرسول . ويقول أكثر المؤرخين أو كلهم إن النصر كان حليف المسلمين في هذه الغزوات إلا في غزوة أحد (٢) والذى أقرره ، نتيجة لدراسة قمت بها في هذا الموضوع ، يعارض ما يميل له هؤلاء المؤرخون ، فانى أستطيع أن أسجل أن الله نصر المسلمين في غزوة بدر وهم أذلة قال تعالى « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (٣) وقيما عدا غزوة بدر عرف المسلمون مرارة الهزيمة أحيانا . ولم يحرزوا نصراً ذا نبال أحياناً أخرى ، وإليك مقتطفات قصيرة عن أهم هذه الغزوات :

غزوة أحد :

اضطرب المسلمون ، واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر ، وجرح عليه السلام في وجنته ، وكسرت ربايعته ، وشج في رأسه ، واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين . فيهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وكثير من خيرة الصحابة .

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٩ .

(٢) انظر تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١

١٤٧

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢٣ .

غزوة بدر معونة :

كان المسلمون في هذه الغزوة من خيرة القراء والحفاظ (١) ، وكان الرسول قد اختارهم برياسة المنذر بن عمرو وليدعوا أهل نجد لادخول الاسلام ، وكان أهل نجد قساة غلاظا • فهبوا يحاربون هذا الوفد الذي كان أعضاؤه لا يتجاوزون الأربعين ، ودارت معركة فني فيها هؤلاء المسلمون جميعاً •

غزوة الأحزاب :

لقد صور القرآن هذه المعركة أجمل تصوير يغنينا عن العودة إلى كتب التاريخ ، قال الله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وأذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً » . (٣) •

صلح الحديبية :

في العام السادس للهجرة خرج المسلمون يقصدون العمرة ، فمنعتهم قريش من دخول مكة ، وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن اتفاقية هالك بعض ما جاء فيها :

١ — أن يرجع الرسول هدياً العام من غير عمرة ، وتكون عمرته في العام القادم •

٢ — أن يرُدَّ الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه •

٣ — لا تلتزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد •

(١) انظر خبر هذه الغزوة في تهذيب الاسماء للنووي ج ١ ، ص ٣٦ •

(٢) سورة الأحزاب الآيات ١٠ — ١٣ •

وقد لاحظ كثير من المسلمين ما في هذه الشروط من ذلة ومهانة ،
وظهر الغضب عليهم ، يقول الطبرى (١) : وبعد أن فرغ الرسول من صلح
الحديبية قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقم منهم رجل ،
حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على زوجته أم
سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، وما كان من مخالفتهم أمره . فقالت :
يا نبي الله ، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو
حالك فيحلقك فقام فخرج فنحر بدنته ودعا حلقه فحلقه دون أن يكلم
أحداً منهم ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً
حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً عما .

غزوة مؤتة :

وقعت هذه الغزوة في السنة الثامنة للهجرة ، وهي أول معركة حامية
وقعت بين المسلمين والروم ، وكان جيش المسلمين صغيراً جداً إذا قيس
بجيش الروم ، كان ثلاثة آلاف رجل واجهوا في مؤتة مائة ألف في رواية
ومائتى ألف في رواية أخرى ، فلا عجب إذا أن حلت الهزيمة بجيش
المسلمين ، وسقط بعضهم قتلى ، وكان من بين القتلى قائد الجيش زيد
ابن حارثة ، فحمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب وقاتل حتى قتل ، فصارها
بعده عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ، وتفرقت صفوف المسلمين
وتضعفت قوتهم المعنوية ، وتولى قيادتهم خالد بن الوليد ولكنه لم
يحارب بهم ، وإنما احتال لينسحب بمن بقي من الجيش دون أن يعرض
جيش المسلمين وهو في هذه الحالة الى صدام لا تؤمن عواقبه ، وقد غضب
المسلمون بالحادثة من انسحاب هذا الجيش وقابلوه هاتين في سخرية
يا فرار . فررتم في سبيل الله .

غزوة حنين :

سجل القرآن حالة المسلمين في مطلع المعركة وصور هزيمتهم تصويراً

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٨٠ .

يعتينا عن العودة الى كتب التاريخ ، قال تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (١) .

غزوة تبوك :

نلجأ الى القرآن الكريم أيضا ليصور لنا حالة المسلمين في هذه الغزوة قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إنكفأكنتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » (٢) وقال : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأئصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم » (٣) .

هذه نماذج واضحة للدلالة على أن سيوف المسلمين لم تحقق نصراً غنيا قاموا به من حروب (٤) ، ومع أن سيوف المسلمين لم يكن لها كبير غناء فقد انتشر الاسلام وعم جزيرة العرب في حياة الرسول ، لقد نعم المسلمون بالنصر المبين في بعض المعارك ، وأيدتهم قوة الله في بعضها فالتفتوا من الهزيمة بعد أن أوشكت أن تقع ، وتمت عليهم الهزيمة أحيانا ولكن الاسلام كان يسير في كل حال ، وكان يتقدم في ساعتى اليسر والعسر . لقد حفظ الله دينه ورعاه ، حفظه يوم كان محمد في مكة مغلوبا على أمره هو والضعفاء من أتباعه ، حفظه يوم كان ياسر يعذب عذابا قصى عليه ، ويوم كان خباب بن الأرت يوثق ظهره بالرمضاء ، ويوم كان محمد وأبو بكر يضربان بقسوة عند البيت الحرام ، وفي هذه اللحظات حيث كسان

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٤) لقراءة تفاصيل كاملة عن الغزوات ونتائجها اقرأ الجزء الأول من

موسوعه « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف (الطبعة الثانية عشرة) .

المسلمون مستضعفين ، كان الاسلام ينمو ويمتد هنا وهناك ، وحارب المسلمون بعد الهجرة كما ذكرنا ، وانتصروا وانهزموا ولكن الاسلام استقر انتصاره دون أن توقفه هزيمة أو يدفعه فوز .

وانتصر المسلمون في معاركهم ضد الفرس والروم (١) ، ولكن دخولهم هذه الأرض لم يكن السبب في انتشار الاسلام ، فقد كانت هناك مندوحة مشروعة لأهل البلاد المفتوحة ليقبوا على أديانهم ويدفعوا الجزية ، متمتعين بالتسامح الواسع الذي ضمنه لهم الاسلام ، والذي عرف به حملة الاسلام في أكثر عهوده ، وشهد به المستشرقون ، ولكن الفرس والسوريين والمصريين وغيرهم دخلوا الاسلام عن طواعية ورغبة ، عن طريق الدعوة التي قام بها العلماء من المسلمين الذين كانوا يبدعون نشاطهم بعد أن تضع الحروب أوزارها ، كما دخله العرب في عهد الرسول يوم نانت سيوف المسلمين غير ذات غناء .

أيمكن بعد هذا أن يقال إن الاسلام انتشر بالسيف ؟ اللهم لا ، بل إن التاريخ يثبت لنا شيئاً عجيباً ؛ يثبت أن كثيراً من الصليبيين الذين جاؤوا إلى الشرق لحقوا الاسلام دخلوا فيه طائعين ، يقول السير توماس الراهب « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية الى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى في العهد الأول ، أى في مطلع القرن الثاني عشر ، مما يلفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين .

ويقول السير جون ماندفيل : كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عرباً .

ويقول بعض مؤرخي النصارى : إن ستة من أمراء مملكة القدس

(١) حدثت بين الفرس والروم (أكبر قوتين في العالم قبل الاسلام) حروب ظالت مئات السنين ، ولم تستطع أى منهما أن تحقق نصراً نهائياً على الأخرى وجاء الاسلام ففضى على الدولتين جميعاً في حوالى عشر سنوات ، انها روح الاسلام التي غابت للأسف عن المسلمين .

استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء ، دون أن يقدروا من أحد على ذلك (١) .

وهتل ذلك حدث للمغول المتبربرين الذين دمّروا الشرق الإسلامي ، وقتلوا الخليفة العباسي وأسرفوا في إراقة دماء المسلمين وإزالة جميع معالم الحضارة الاسلامية ، ولكن سرعان ما اعتنقوا الإسلام وشملتهم مبادئه ، يقول الأستاذ أرنولد (٢) لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب، والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قمم الجبال ، واكتسحت في طريقها العواصم الاسلامية ، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافية ، على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالذ ، واستطاع أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه .

كيف استطاع الاسلام أن ينتشر وأن ينتصر في تاريخه الطويل ؟

الجواب سهل يسير هو أن الاسلام فاجأ العالم بمبادئ سامية رأى فيها الناس انقاذا للبشرية المعذبة ففى الوقت الذى كان فيه الملوك سادة أو آلهة ، وكانت الشعوب عبيدا ، ليس فقط بسبب قسوة الحاكم وجبروته ، بل بدافع داخلى من نفوس هذه الشعوب جعلهم يقنعون بالعبودية ويرون فى الحاكم الها له دم غير دمائهم ، ويتكون من طينة غير طينتهم ، فى هذا الوقت طلع محمد وأصحابه من بعده على الناس بمبدأ المساواة بين الحاكم والمحكوم والملك والسوقة .

وفى الوقت الذى كان الملوك يتمتعون بالثراء العريض يجمعونه من

(١) عن الحروب الصليبية اقرا الجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .
(٢) The Preaching of Islam pp. 218-219.

جهد الشعوب البائسة ، رأى الناس محمداً ورأوا أصحابه من بعده فقراء يرقعون ثيابهم ويخصفون نعالهم •

وفي الوقت الذى كانت أقوال الملوك وأفعالهم هى القانون وهى العدالة ، اذ بالاسلام يأتى بقانونه السماوى فيخضع له العظيم والحقير (١) •

تلك بعض المبادئ أو بعض المفاجآت التى أدهشت العالم وجذبت الناس زرافات ووحداً لهذا الدين الانسانى العظيم ، وعندما جذب الاسلام الناس اليه لم يدعهم فى حيرة من أمور دينهم ودنياهم بل أمدهم بأرقى نظم الحكم وأرقى نظم الاقتصاد ، ووضع أسمى الأسس لحياة اجتماعية صالحة ، كما أوضحنا ذلك فيما سبق من أحاديث •

فاذا استعرضنا أحوال المسلمين منذ عهد الاسلام الباكر حتى اليوم مارين بالغزوات ، فالحروب فى فارس والروم ، فهجمات الصليبيين والمغول ، فحملات المبشرين ، قادتنا كلها إلى نتيجة واحدة ، هى أن المسلمين كانوا يضعفون ويقوون ، ولكن الاسلام كان قويا على الحاليتين ، وينهزمون وينتصرون ولكن الاسلام كان ينتصر دائماً ، وأساس انتصاره هو أسسه ومبادئه ، فلا نزاع أن الهزائم التى لحقت بالمسلمين أكثر جداً مما أحرزوه من انتصارات ، لقد كثرت أخطاؤهم فتوالت هزائمهم ، أما الاسلام فلا خطأ منه ولا خطأ فيه • ولهذا لا يبنى ركبه ، ولا يتألم منه •

فاذا قام المصلحون اليوم يطلبون الى المسلمين أن يهبوا من رقدتهم ، فهم يبغون الفوز للمسلمين ويحرصون على إسعادهم • أما الدين فله رب حماه ويحميه ، ورعاه ويرعاه •

(١) اقرأ موضوع « ختام عهد » فى نهاية الجزء الأول من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

ولنعد بعد هذا التقديم إلى الحديث عن الموضوع الذي عقدنا له هذا الفصل ، وهو تدهور العالم الإسلامي وأسبابه •

وعندي أن هذا التدهور يرجع إلى عوامل ثلاثة :

- ١ — أسباب داخلية •
- ٢ — أسباب خارجية •
- ٣ — أسباب دينية •

وسنبعث كلا من هذه العوامل على حدة :

أولاً : العوامل الداخلية

التي أضعفت المجتمع الاسلامى

إن العوامل الداخلية التي أضعفت المجتمع الاسلامى كثيرة ومتنوعة

وأهمها :

- ١ — ضعف الدعوة المسلمين في القرون المتأخرة .
- ٢ — اختفاء الأخلاق الاسلامية في القرون المتأخرة .
- ٣ — انكماش الحضارة الاسلامية .
- ٤ — اطماع السلطة .
- ٥ — فساد بعض الحكام المسلمين وفساد أتباعهم من حين الى آخر .
- ٦ — الاتراك المماليك وحكمهم بالعالم الاسلامى .
- ٧ — الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها .
- ٨ — الفرق والمذاهب والصراع بينهما .
- ٩ — أندية ومؤسسات تكيد للإسلام في غفلة من المسلمين كالكروتارى والليونز

وستحدث عن هذه العوامل بشيء من التفصيل فيما يلى :

١ - ضعف الدعاة المسلمين في القرون المتأخرة

ربى الرسول صلوات الله عليه مجموعة من الدعاة كانوا قِمَمًا في هذا المجال ، أخذوا عن الرسول اتجاّماته وارشاداته ، وانذفعوا ينشرون الاسلام بقوة لا تُغَلَّب ، وحققوا نجاحها نظميًا دونه كلُّ نجاح ، وكان في قمتهم على بن أبى طالب ومصعب بن عمير وأبو ذر وأبو عبيدة بن الجراح وكثيرون من أمثالهم .

وتتهدرت أديان وعقائد أمام نشاط الاسلام ودعائه ، فعلم الاسلام جزيرة العرب وشمل بلاد الشام ومصر والشمال الافريقي ، كما شمل بلاد الفرس وافغانستان وأجزاء واسعة من الهند .

ولم يكن في هذه البلاد دعاة لالاديان والعقائد المتزاجعة ، أو كان هناك دعاة ولكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا دعاة العصر الاسلامي الأول ، الذين كانوا يرجحون بكفائتهم وحماستهم كل قوى تواجههم ،

ثم تغيرت الظروف للأسف ، وجاءت شعور ^{كان} الدعاة المشتملون خلالها قلوبى الثقافة والحماسة ، أو تقل كانوا موظفين يتطلعون إلى الأهداف المالية كغيرهم من الموظفين ، وربما أنقل الواحد منهم من وظيفة الداعية إلى وظيفة أخرى رأها أسهل أو أجلب مال أو جاه .

وفي نفس الوقت كان أتباع الديانات والعقائد المنهزمة يعيدشون من أسهوم « البشرين » وقد قلدوا المسلمين الأول في اختيار أحسن الكفاءات وذوى الحماسة لهذا العمل ، وقد رأينا بين هؤلاء البشرين أساتذة جامعات وبعض كبار المفكرين العربيين الذين يجيدون عدة لغات ،

(١) اقرا الجزء الخامس من « المكتبة الاسلامية لكل الأعمار » عن الرسول الداعية ومربى الدعاة .

والذين لهم اطلاع واسع على الفكر الاسلامى ، ورأيناهم وهم يحاولون أن يلتقطوا ما رأوه نقائص في الاسلام ليذيعوها بين الذين يستمعون إليهم .

وكان مع هؤلاء نفوذ ومال وكتب ، وكل ذلك ساعدهم في عملهم ، فإذا وضعنا هؤلاء في كفة ووضعنا دعاة المسلمين الممارسين في الكفة الأخرى فإن الكفة الاسلامية ستشيل للأسف وسترجح كفة « المبشرين »

والأسف الشديد لا يوجه المسلمون عناية تذكر لأختيار الدعاة حتى الآن ، وهناك جهود واسعة تبذل للبحث عن الأدوات الجديدة للتأليف والوجوه الجديدة للتعميل ، ولكن ليست هناك جهود ذات بال للبحث عن دعاة ينشرون دين الله .

أنها مشكلة ندعو الله أن يهييء من زعماء المسلمين من يمالجها من قبرى من جديد دعاة مسلمين لئلا ندره ، وفيهم جاهلية ، وأصحاء جديد للأداء :

وقد بلغت فاللهم الصلوة

٢ — الأخلاق الاسلادية بين الظهور والاختفاء

قلنا فى الباب الثانى من هذا الكتاب ان الاسلام أعاد تكوين الفرد العربى عندما انتقل الى انسان مسام ، وهذا أحدث فى الانسان تغييرا واسعا قوامه الأخلاق الاسلادية ، التى تشمل مجموعة من الفضائل ، التى تحتّم اختفاء الرذائل ، وقلنا كذلك إن الأخلاق الاسلامية جذبت ملايين البشر للاسلام ، فالتاريخ مثلا يحدثنا عن الجندى الفتيى الذى عثر على تاج كسرى ، وعن ذاك الذى وقع فى يده « حَقُّ » من الجواهر ، ثم جاء هذا وذلك وقدا ما عثرا عليه لصاحب الغنائم ، ولم يقبل أى منهما أن يذكر اسمه لأنه فعل ذلك لمرضاة الله ، هذا التصرف جذب الكثيرين للاسلام وأذاع الإعجاب به .

وإننا هنا نتساءل عما اذا كان مثل هذا المسلم لا يزال موجودا فى العالم الاسلامى ؟

فى الحق إنى لا أميل للتشاؤم ، ولا للتسرع فى الحكم ، ولهذا أقرر أن العالم الاسلامى لا يزال عامرا بمنزل هؤلاء الأشخاص ، ولكن للأسف أقرر أن الأتباء تحمل لنا من حين إلى آخر أقوالا عن سرقات من المال العام ، وعن كسب حرام نراه من حين إلى حين .

لقد كان المسلم نموذجا للطهارة والاستقامة والاخلاص والبعد عن الرشوة والاهمال ، فجذب الناس للاسلام فى المشارق والمغرب ، فلما تخلى المسلم عن هذه الصفات وانحدر بعض المسلمين الى الرذائل كان ذلك من أسباب ضعف العالم الاسلامى ، فقوة المجتمع الاسلامى كانت من قوة أفرادها فلما انهار بعض الأفراد أو الكثيرون منهم تنزل ببناء المجتمع وأصبح ضعيف الأركان .

(م ١٢ — المجتمع الاسلامى)

٣ — الحضارة الإسلامية بين الازدهار والانكماش

ذكرنا من قبل أن المجتمع الإسلامي في عصره الأول قد ازدهرت به الحضارة الإسلامية ، فقد أورد القرآن الكريم أسس الشورى وأسس الاقتصاد ، وشرح الرسول هذه الأسس الحضارية ونفذها ، وكان في تنفيذها قدوة حسنة لا يكتفى بالواجب بل يزيد عن الواجب سماحة وعطاء .

وفي العصور الإسلامية الأولى كذلك سارت التربية والتعليم على النهج الإسلامي ، وتكونت الأسر والمجتمعات وفق الفكر الإسلامي ، وسار القضاء على النحو الذي رسمه الإسلام وعلى العموم كانت الحضارة الإسلامية ليست فقط دراسات ونظماً ولكنها كانت أسلوب حياة .

ثم جاءت عهود اختفت فيها الشورى وانتشرت الديكتاتورية ، واختفت العدالة الاجتماعية ، وبرز مكانها الظلم الاجتماعي ، وكثر الأغنياء الذين يبذلون كل الجهد في جمع المال بوسيلة أو بأخرى ، وبجوارهم الفقراء التمساع ، أما ولاية الأمور فقد برزت الأنانية في بعضهم ، ولم يعودوا قدوة حسنة لجمهير المسلمين ، واختفاء الحضارة الإسلامية كان من أسباب ضعف العالم الإسلامي .

فالركيزة المهمة التي قام عليها المجتمع الإسلامي كانت في سهوه حضارته التي انفرد بها بين المجتمعات ، والتي كانت مفخرة قدمها الإسلام للجنس البشري ، فإذا اختفت هذه الحضارة من المجتمع الإسلامي فإنه يفقد أعلى ما يمتز به ، ولا شك أن العصور المتأخرة شهدت ضعف الحضارة الإسلامية أحياناً واختفاءها أحياناً أخرى ، وهذا أو ذلك كان من أسباب ضعف المجتمع الإسلامي .

٤ - أطماع السلطة

مات الرسول صلوات الله عليه دون أن يعيّن خليفة يتولى أمور المسلمين بعده ، وحدث نضال عنيف حول تعيين خليفة للمسلمين ، ولتدح جانبا أمل الأنصار ومحاولتهم التي قاموا بها في سقيفة بنى ساعدة ليسندوا الخلافة الى واحد منهم ، ندع هذه الرغبة لأنها كانت قصيرة العمر ، ذرت بعد بضع ساعات من عنفوانها ، وتحدثت عن حركتين قويتين نشأتا وأحدثتا صراعا طويلا لا تزال آثاره وبقاياه تعيش في عالمنا الذي نعيش فيه الآن . وعندى أن الحركتين لم تقوما على أساس دينى سليم .

وتمثل الحركة الأولى اتجاه بنى هاشم الذين اتخذوا من صلتهم بالرسول سببا يطلبون به أن تكون الخلافة فيهم ، لقد خيّل لهم أن النبوة تورث ، وأنهم أولى الناس بشغل مكان الرياسة الذى كان يشغله محمد بن عبد الله ، وكان على بن أبى طالب يتزعم هذا الاتجاه ، وكان رضى الله عنه يتمتع بكثير من المزايا ، ولكن قرابته من الرسول كانت أبرز ما أعتز به بنو هاشم ودافعوا به خصومهم ، استمع الى على وهو يقول حينما طلب منه أن يبايع أبا بكر :

أنا أهدى بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقراية من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ، أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وساءوا إليكم الإمامة ؟ وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار نحن أولى برسول الله نبيا وميتا ، فانصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوعوا بالظلم وأنتم تعلمون (١) .

واستمع اليه أيضا وهو يقول : الله الله يامعشر المهاجرين .
لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن ذأره وقعر بيته الى دوركم وقعور
بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يا معشر
المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأننا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر
منكم (١) .

وأنكرت فاطمة ابنة الرسول رضى الله عنها وزوج على بن أبى طالب
حرمان زوجها الخلافة ، وحينما دخل عليها أبو بكر وعمر عقب تولية أبى
بكر قالت لهما : تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم ،
فاستأثرتم ولم تردوا لنا حقا (٢) .

أما الحركة الثانية فكانت تهتكل اتجاه أكثر البطلون والقبائل العربية .
وكانت هذه الحركة ترمى إلى إبعاد الخلافة عن بنى هاشم ، اذ تبين لهم أن
الخلافة لو منحت لعلى أو لغيره من أفراد بنى هاشم باذى ذى بدء لانتخذت
شكل الوراثة ، ولما كان من الممكن أن يتزع بعد ذلك منهم ، وقد عبر عمر
عن هذا الاتجاه فيما قاله لابن عباس : إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم
النبوة والخلافة ، وإن قريشا اختارت نفسها فأصابت .

هل كان من حق بنى هاشم أن يطالبوا بالخلافة لمحض قرابتهم من
الرسول ؟ وهل كان من حق قريش أن تجرم منها بنى هاشم لأنهم أهل
محمد ؟

الجواب عندى بالنفى في الحالتين ، فالقراية من الرسول لا تصلح
وخدها مبررا لنيل الخلافة ، فليست النبوة ملكا بيورث ، ويخطىء بنو
هاشم ويسيطون لأنفسهم وللإسلام حينما يحاولون جذب محمد أو دفع

(١) المرجع السابق .

(٢) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٣٥٣ .

أنفسهم حولاً ليظهره فرداً في أسرة ، والذي نؤمن به أن محمداً بالرسالة أصبح فرداً من مجموعة المسلمين أو في هذه الأسرة الكبيرة ومرشداً لها ، وكان بلال يفضل عنده وعند الله والناس عمه (أبو لهب) مرات ومرات • لقد انتزع محمد نفسه ، وانتزعه الله من هذه الأسرة الصغيرة ليضعه في هذه الأسرة التي كونها الاسلام ، وفي الحديث الشريف ما يدل على ذلك تمام الدلالة « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » مما يدل بوضوح على أنه ليست الرسالة فقط هي التي لا تورث ، بل المال أيضاً ، وعندما نادى نوح ربه فقال « رب إن ابني من أهلي » تلقى جواباً محمداً واضحاً هو قوله تعالى « إنه ليس من أهلك » (١) فأهل الرسول هم أتباعه ، يتفاوتون بحسب عمق إيمانهم وصدق دفاعهم عن الدين الجديد •

ومن جهة أخرى فإن القرابة من الرسول لا يمكن أن تكون سبباً يُحَرِّمُ به هؤلاء الأقارب من حق أبيح لغيرهم من المسلمين ، فما دامت شروط الخلافة قد توافرت في واحد منهم ، فهو أهل لأن ينال هذا المنصب الكبير •

ولكن هاتين الحركتين كانتا من مظاهر العصبية التي حاربها الاسلام • وقد ضعفت العصبية بسبب الفكر الاسلامي ولكنها لم تمت ، فلما أتاحت لها الفرصة تجددت قوتها وظهر نشاطها •

وانتصرت الحركة الثانية ، وأبعد بنو هاشم بالحق أو باطلاً عن الخلافة مدة مائة وعشرين عاماً تقريباً تولى الخلافة خلالها أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم بنو أمية ، بعد مدة قصيرة قضاها على خليفة ، ولذتها كانت مدة متصلة الاضطرابات والحروب ، فلجئ ينعم رضى الله عنه بالهدوء يوماً واحداً ، ولثم يخضع له العالم الاسلامي كله يوماً واحداً ، إذ أعلن معاوية التمرد والعصيان في الشام ، وظل في تمرد حتى آلت له الأمور •

(١) سورة هود الآيتان ٤٥ - ٤٦ •

على أن الحركة الأولى ظلت حية تعمل في الخفاء ، ثم وجدت لها من
الفرس نصيرا عظيما ، فقد كان هؤلاء يدينون بنظرية الحق الإلهي المقدس
التي تحتم أن يكون السلطان في أسرة لا يتعداها ، واشتدت هذه المعركة
وتطورت ، وانقلبت من دور الدعاية التي العمل ، وزحفت بجيوشها وأعوانها
فأسقطت الخلافة الأموية وأقامت خلافة هاشمية •

كم خسر المسلمون من ضحايا ومن جهود في هذه الحروب الطويلة ؟
وكم أضاعوا من وقت وأزهقوا من أرواح ؟
علم ذلك عند الله ولكننا ندرك أنها كانت خسارة بالغة •

ولم تكن الخلافة الهاشمية التي قامت على يد علي بن أبي طالب ، بل كانت عباسية ،
ولذلك بدأ صراع جديد مرير بين العباسيين والعلويين ، كما كان على
الخلافة العباسية أن تخوض حروبا دامية ضد بقايا الطوائف التي نشأت
في العهد الماضي وأهمها الخوارج •

وعاشت أطماع السلطة بعد ذلك عبر القرون في العالم الإسلامي ،
وتجارب ولاية النعمود والطامعون ، وكانت هذه الأطماع معزولا يهدم
البناء ويزلزل الأركان •

٥ — فساد بعض الحكام وفساد أعوانهم

تولى السلطة في العالم الإسلامي في كثير من الأحوال رؤساء لم
يتخلقوا بأخلاق الإسلام وآدابه فظهرت حقيقتان مهمتان هما :

أولا : أن هؤلاء الحكام الفاسدين كانوا يستعينون في أمورهم بولاية
ومساعدين فاسدين ، ومن الراضح أنه إذا فسد الرأس فسد الجسم كله ،
وعلى هذا ظهر في العالم الإسلامي ولاية "استحبوا سفك الدماء وسكب
الأموال كسادتهم من الخلفاء والملوك والسلطين ، بل يمكن القول إن
عدوكم هذه الاخلاق قد لحقت بأفراد كثيرين من الشعب بالاضافة الى
الولاية وأصحاب النفوذ •

وقد رَوَى أن علياً قال للخليفة المنصور : أنى أعرف رجلاً إذا صلح
صلحت الدعوة كلها ، فقال المنصور للعالم : من يكون هذا الرجل ؟ فأجاب
العالم : أنت •

وهذا تطبيق لقول الرسول عليه السلام : صنفان من أمتي إذا
صلحا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ، الأمراء والعلماء •

ثانياً : ان بعض الرؤساء المسلمين نسوا تماماً الصلة الإسلامية التي
تربطهم بالرؤساء المسلمين في الدول المجاورة لهم ، ولم يكن همّ الواحد منهم الا
أن يتوسع على حساب أخيه ، وأن يسطو على ملك جاره ، وطالما شهد
التاريخ معارك طاحنة شبت بين مملكتين إسلاميتين ، وطالما شهد التاريخ
مسلماً يشهر سيفه ليقتل أخاه المسلم ، وجيتسا إسلامياً وقف يواجهه
جيتسا إسلامياً آخر ، وكان كلٌّ يحاول النصر على حساب أرواح إسلامية
تزهق ، ودم إسلامي يراق ، ولم يكن هناك من سبب لهذه الحروب إلا
تحقيق رغبة لرئيس يريد بسط سلطانه ، وافساح رقعة الأرض الخاضعة له •

٦ — الأتراك المماليك يحكمون بالعالم الإسلامي

ومنى العالم الإسلامي بكارثة صنعة هي أن أجزاء مهمة وواسعة به
خضعت لحكم المماليك الذين جروء بهم للعالم الإسلامي للخدمة والحراسة
الخاصة ، ثم قفزوا الى قيادة الجيوش فالسلطة ، وقد حدث ذلك في
العراق ومصر والهند وغيرها ، ولم يكن لهم—ولاء ثقافة تؤهلهم للحكم ،
وكانت عهودهم في الغالب حالكة السواد •

والعجيب أن المعتصم بن هارون الرشيد هو أول من جلبهم وأعطاهم
نوعاً من السلطة ، وسرعان ما عانى منهم ، ثم نكلوا بذريته ، ومع
هذا لم يتعظ السلاطين اللاحقون بذلك ، فجاب الملك الصالح نجم الدين
أيوب طائفة جديدة منهم ، وسرعان ما سلبوا الحكم من ابنه توران شاه ،
وتكرر ذلك مرات أخرى ، مما يؤكد قصر نظر الكثيرين من الخلفاء
والسلاطين الذين كانوا يجلبون لأولادهم بذور الشر والدمار •

ولنعد للحديث عن الخليفة المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين لنذكر أنه واجه حروباً كثيرة في الداخل والخارج ، فاحتاج الى تقوية جيشه وادخال عناصر جديدة فيه ، ولم يكن كبير الثقة بالعرب خوفاً من أن يكون اتجاههم علوياً ، ولا بالفرس بعد أن نكل آباؤهم وأجدادهم بأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراساني والبرامكة وبنى سهل ، فهداه تفكيره الى أن يتخذ جيشاً من الترك ، فأكثر منهم وعين عليهم الرؤساء منهم ، ليضمن لنفسه بهم التفوق والنصر ونسى المعتصم أنه بعمله هذا وضع السلاح في يديهم من لا يؤمن على السلاح ، فما إن قوى جانبهم حتى عاشوا في الأرض فساداً ، ونكأوا بالخلفاء والمسلمين ، يقول الأستاذ الامام محمد عبده : فلم تكن إلا عشية أوضاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام ، والقاب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون أوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته (١) .

ذلك تصوير رائع لهذه الجماعة التي قدر لها أن تسيطر على عاصمة الخلافة مدة طويلة من التاريخ، انهم كانوا قساة، انتهكوا الحرمات، واستحلوا الدماء وقتلوا كثيراً من الخلفاء وعذبوا كثيرين ، ووصلت بهم قلوبهم المتحجرة الى أن ييسموا عيون بعض الخلفاء ويصلبوه في الشمس .

وقد كان لهذه الحالة البشعة التي سيطرت على بغداد أثر خطير في العالم الاسلامي كله ، فان كثيراً من ولاة الأقاليم أدركوا أن الخليفة فقد سلطانه وأن الأمر أصبح في يد هؤلاء الترك ، فأنف هؤلاء الولاة من التسرع للأتراك ، وأعلنوا استقلالهم كاملاً أو شبه كامل ، وبهذا تصدع العالم الاسلامي وانقسم إلى دويلات وأقطار .

٧ - الامبراطورية العثمانية : مآلها وما عليها

هل تعد الامبراطورية العثمانية سببا من أسباب ضعف العالم الاسلامي ؟

إننا نؤجل الجواب عن هذا السؤال حتى نطوف طوافا سريعا نعدّد فيه محاسن هذه الامبراطورية ومساوئها ، ثم نقرر الجواب في ضوء هذا الحساب .

لقد قامت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى على أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول ، وكانت الامارة العثمانية احدى ست عشرة امارة قامت هناك ، وكانت تقع في أقصى الشمال وتطلّ على بحر مرمره ، وكانت تجاوز ما بقى للدولة البيزنطية من أملاك بالأناضول ، كما كانت تواجه الدولة البيزنطية الفسيحة التي كانت على الجانب الآخر من بحر مرمره ، وكانت الدولة البيزنطية تعاني مشكلات كبرى ، فاستطاعت الإمارة العثمانية أن تحقق انتصارات متتالية على البيزنطيين ، في الأناضول ، فأخذت بروسة سنة ١٣٢٦ وجعلتها عاصمة لها ، ثم أخذت نيقية فأزمير ، وهذا جعل هذه الامارة تسيطر على الساحل الجنوبي لبصر مرمره ، وبالتالي تقف في مواجهة الامبراطورية السليمانية .

وفي سنة ١٣٤٥ عبر العثمانيون بحر مرمره الى أوروبا واستولوا من عام الى عام على مناطق في صيدية شمال القسطنطينية ، مما جعل هذه المدينة التاريخية العظيمة نقطة تحيط بها الممتلكات العثمانية من كل جانب تقريبا ، وفي ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م استولى عليها العثمانيون بقيادة محمد الثاني .

وقد كان الاستيلاء على القسطنطينية حدثا كبيرا فقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها منذ عهد معاوية حوالي سنة ٦٧٠ م ثم حاولوا الاستيلاء عليها في عهد سليمان بن عبد الملك ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، ولذلك

كان استيلاء العثمانيين على هذه العاصمة التي قاومت الاسلام والمسلمين حوالى ثمانية قرون عملا مجيدا ، مما جعل للعثمانيين مكانة ممتازة في نفوس كل المسلمين ، وبخاصة أن الزحف العثماني امتد في أوروبا حتى دقت الجيوش العثمانية أسوار فيينا •

وكان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية نتائج خطيرة في المحيط الاسلامي ، ونتائج خطيرة كذلك في المحيط المسيحي ، ففيما يتعلق بالمحيط الاسلامي نجد العثمانيين يتطلعون لأن يصبحوا مركز امبراطورية اسلامية متسعة الأرجاء ، وبهذا اتجهت اطماعهم للاستيلاء على البلاد العربية أو على أكثرها ، وقد تحقق لهم ذلك بعد موجة انتشارهم في أوروبا ، فدخروا الشام ومصر والعراق والشمال الافريقي من حدود المغرب ، ولم يجذوا مقاومة تذكر من الشعوب العربية التي كانت ترى غالبا أن الانصواء تحت الحكم العثماني ليس إلا تكوين وحدة اسلامية لمواجهة الحركات الضليعية والتجمعات المسيحية التي كانت تعمل للنيل من الاسلام •

أما أثر سقوط القسطنطينية لدى المسيحيين فقد ظهر في المعاهدات والتجمعات الكثيرة التي قام بها المسيحيون لضرب الامبراطورية الإسلامية الصاعدة ، وقد شملت هذه التجمعات فرنسا وألمانيا وانجلترا والمجر وبولندا وأسبانيا وإيطاليا وأمراء البلقان ثم روسيا القيصرية ، وكان هذا التجمع الحافل ضد الامبراطورية العثمانية شديد الخطر عليها فأسلمها إلى ما سُمِّي « الرجل الريض » •

وفي القرن الثامن عشر انسلخت أجزاء مهمة بأوروبا عن الامبراطورية العثمانية نتيجة لجهود أوروبا ، ثم اتجه الغرب للاستيلاء على الدول العربية التي كانت تابعة للعثمانيين ، فاحتلت فرنسا الجزائر ثم تونس ، واحتلت انجلترا مصر واحتلت إيطاليا طرابلس المغرب ، ولما خرت تركيا خريصة في الحرب العالمية الأولى اقتسّم المنتصرون بناقى التراث ، ووزعوا بينهم أسلاب المهزوم ، وكان الانجلترا وفرنسا أكثر نصيب من

منها التراث كما سيتضح عندما نتكلم عن « تركيا والغرب » ضمن الحديث عن العوامل الخارجية التي اضعفت العالم الاسلامى .

ومع أن العثمانيين حاولوا أن يمثلوا العالم الاسلامى وان يجعلوا من عاصمتهم عاصمة الاسلام والحضارة الاسلامية ، فان الواقع يقرر ان المسلمين لم يجنوا أية ثمار من انتصارات العثمانيين ، فلما وقعت الهزائم بالدولة العثمانية عانى المسلمون شدة المرارة من نتائج هذه الهزائم .

ويرجع السبب في انهيار الامبراطورية العثمانية الى حياة الديكتاتورية التى كانت متأصلة فيها، والى فزق كثير من خلفاء العثمانيين، هؤلاء الذين حملوا لقب الخلافة دون أن تتوافر فيهم شروط هذا المنصب ، ويقول الأستاذ محمد كرد على (١) : إن العثمانيين قلما كانوا يهتمون بتطهير الملكة من أهل الفساد ، وقلما كانوا ينفذون من ناموس الادارة ما يخففون به فقر البلاد ويؤسها ، فتركوا الأهلين يعملون ما يشاءون ما أدوا مسا عليهم لخزانتها ١٠٠٠ وقد شاركت البلاد الغزبية في حظاً مملكة لا تنهطل هروبها وفتتها ، ولاتثها لا يعرفون ما يصلحها ، فتراجعت وانحلت أوضاعها .

ويقول في مكان آخر (٢) : وكان بايزيد الثانى على أكبر جانب من السفاهة ، فانتشرت المفاسد والمنكرات في أيامه في كل مكان بين العام والخاص ، ونسوا الشريع وعيثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل إلى قصر بايزيد أجمل الفتيات والفتيان من كل أرض ، كما تحمل اليه أطيب المسكرات ، وألطف المغنين والمعنيات ، والموسيقيين والموسيقىيات ، ولا شأن للكبراء إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والعلمان .

ويحدثنا الجبرتى المؤرخ المصرى عن مصر فيصور صورة بثعة لهذه

(١) الاسلام والحضارة العربية ج٣ : ص ٣١٦ — ٣١٧

(٢) نفس المرجع ج٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

البلاد وكيف عمها البؤس وانتشرت بها الرشوة في عهد العثمانيين
الحالك (١) .

والذى ينظر للعالم الاسلامى طوال عهد العثمانيين يرى أنه مسحر
لرغبة الخلفاء ، ففى الشعب جوع وفقر فى حين يحظى الخليفة وأعوانه
بمتاع الحياة ونعيمها .

وقد أتاحت الهزائم المتلاحقة التى نزلت بتركيا الفرصة للدول
الاسلامية لتطرح هذا العبء الثقيل ، وتتخلص من هذه السلطة الغاشمة ،
وتعلن استقلالها كاملا ، ولكن الفهم الخاطىء لروح الاسلام السمحة
جعل كثيرا من المسلمين يعدون الخروج على الخليفة خروجا على الوحدة
الاسلامية ، وقد سبب ذلك الفهم بقاء دول اسلامية كثيرة تترجح تحت
ثقل الطغيان والجهل اللذين كانا شعار الترك (٢) ، وقد أحس الأتراك
أنفسهم بما أصابهم من تأخر وتدهور بسبب هذه الخلافة الجائرة
الفاسدة ، فقرر المجلس الوطنى التركى اسقاط الخلافة فى ٢ مارس سنة
١٩٢٤ وطرد جميع آل عثمان من البلاد العثمانية عقابا لهم على ما جلبوه
للبلاد من تدهور وسقوط .

ولا نزاع أن مصطفى كمال وأعوانه أفادوا تركيا بوضعهم حداً
لعبث الذين سمو أنفسهم خلفاء ، غير أن القادة الجدد أساءوا فهم
الأسباب التى هوت بدولتهم ، وظنوا خاطئين أن الاسلام هو السبب ،
فأسقطوا من دستورهم أن الاسلام دين الدولة ، وظنوا أن البعث الجديد
سيجىء فى ركاب اللادينية فأعلنوا ذلك للأسف ، ومرت السنون ولا تزال
تركيا تعاني .

(١) حوادث سنة ١١٩٨ .

(٢) اقرأ تاريخ العثمانيين فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ

الاسلامى للمؤلف .

والاسلام لم يكد نط من دواعي الهزائم والتخلف ؛ ولكن الانحراف
عن الاسلام الذى كان شعار بعض خلفاء العثمانيين وقادتهم هو الذى
قاد للهزائم والتدهور ، وقد اتجه مصطفى كمال الى الحياة الغربية ،
وهاربة الاسلام بطريق مباشر أو غير مباشر ، تم أفلست هذه السياسة ،
وعادت الجمهورية التركية إلى رحاب الاسلام ، وأخذت تتعاون على اعلان
شان الاسلام والمسلمين من جديد ، بعد حوالى ستين عاما من الضياع
ومن مناهات أتاتورك وخلفائه ، والاسلام غلاب دائما إن شاء الله .

العثمانيون والصفويون :

بقيت نقطة خطيرة عن العثمانيين ، هى أنهم خاضوا حروبا طاحنة
قاسية ضد الصفويين فى ايران ، لقد شهد عالم ما قبل الاسلام صراعا
مريرا بين الفرس والروم ، حينما كانتا أكبر دواتين فى العالم فى ذلك
الزمان ، وجاء الاسلام ، وأصبحت المنطقة كلها اسلامية ، وكان يؤمل أن
يحلّ الوفاق محل الخصام ، أو على الأقل تكون العلاقات سلبية دون ود
ودون حرب ، ولكن الذى حدث للأسف أن صراعا طويلا وقاسيا قام
بين الدواتين ، وكان العراق فى الغالب أرضا للمعارك الفتاكة ، وطالما
شهدت هذه الأرض ألوانا من العسف واراقة الدماء والقسوة البالغة ،
وقد اتخذت الدولتان سببا جديدا للصراع هو السنة عند العثمانيين
والتشيع لدى الصفويين ، وفى الحق أن التشيع أو السننية لم تكن الا وسيلة
للصراع وإراقة الدماء ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك حريصين على هذا
المذهب أو ذاك .

وبعد ، نعود إلى السؤال الذى بدأنا به هذه الدراسة عن الامبراطورية
العثمانية وما ارتبط بها من نفع أو ضرر للاسلام ، فنقرر أنها نشرت الاسلام
ببعض ربوع أوربسا ، ولا يزال ذلك موجودا حتى الآن ، وأنها حرس
فلسطين من اليهود طيلة عهد قوتها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد
انغمس كثيرا من قادتها فى الضلال ، وسيطرت الديكتاتورية على أكثر

عهودها ، والديكتاتورية نتائج خطيرة ، وحرمت العالم العربي من التطور
والحرية ابان انتصاراتها ، فلما انهزمت أسلمته للضياع والانهيال .

وباجمال تعد القرون الأربعة التي حكمت الامبراطورية خلالها العرب
قرون اضمحلال وضعف ، وجاءت بعدها فترة استعمار كثيفة .

وعندما سقطت الامبراطورية وقام أتاتورك أعلن عدااه للإسلام
والمسلمين واتخذ جانب الغرب ضد القوى الإسلامية التي كانت تابعة لبلاده
عدة قرون .

ونظرة الى هذا الميزان يتضح أن كفة الحسنات تشيل ، وأن مساوىء
هذا العهد ترجح رجحانا كبيرا .

وسياأتى فيما بعد حديث عن موقف الغرب من الامبراطورية
العثمانية فى حالتى قوتها وضعفها .

٨ - الفرق والمذاهب :

من الأسباب الداخلية التي أضعفت بنيان المجتمع الاسلامي الفرق والمذاهب التي ظهرت في العالم الاسلامي ، ومن أشهر هذه الفرق الشيعة والخوارج ، ثم المعتزلة والمرجئة والجبرية ، تم القرامطة ، فالزنج ، وقد كانت هذه الفرق معاول تحاول أن تدك المجتمع الاسلامي عن قصد أو جهل ، فالشيعة اندس بينهم « مدعو التشيع » وهم جماعة ليسوا شيعيين بل ليسوا مسلمين ، وكان هدفهم أن يحدثوا في المجتمع الاسلامي شرخا واضطرابا ، وقد تحدثنا بافاضة عن مدعى التشيع في الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي .

وكان الخوارج قوما من الا ، يحبون الغارة لسبب أو بدون سبب ، وقد حاربوا مع علي ثم حاربوه . فلما قتل حاربوا الأديبين ثم حاربوا العباسيين ، وانقسموا الى فرق شتى وأخذوا يحارب بعضهم بعضا ، وكم أحدثوا من صدع في العالم الاسلامي وكم أسالوا من دماء ، وفي الجزء الثاني والثالث من الموسوعة السابقة أحاديث مفصلة عنهم وعمما أنزلوه بالمجتمع الاسلامي من كوارث ، وبخاصة أن بعض قياداتهم لم تكن عميقة الايمان كأولئك الذي قادوا الشيعة فانحرف هؤلاء القادة بالشيعة وبالخوارج الى مدى بعيد عن الاسلام ، وفي الجزء الأربعين من « المكتبة الاسلامية » دراسات واسعة عن هذه القيادات التي دفعت بالفساد الى هذه الفرق أو دفعت بالفرق الى الفساد .

والمعتزلة كان اتجاههم فكريا ، ولكن نشأ عنه كثير من الاضطراب والأذى لبعض العلماء كما حدث للإمام ابن حنبل ، وكان المرجئة والجبرية رد فعل لاتجاهات المعتزلة .

أما القرامطة فقد أحدثوا بالعالم الاسلامي صراعا امتد عدة قرون وكم قتلوا من الناس واعتدوا على الحجيج ، وكم قتل الناس منهم ، وهناك حديث مفصل عنهم في الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامي .

ونجىء للزنج الذين امتد صراعهم ضد الخلافة العباسية أكثر من أربعة عشر عاما ، ولم ينجح الموفق آخر الخليفة العباسى وقائد جيشه فى الانتصار عليهم الا بعد جهد كبير ، وبعد أن بنى مدينة تواجه معسكر الزنج وصمد بها صمودا طويلا .

ونقرر للأسف أن أكثر هذه الحركات كان تابعا من بلاد فارس التى كانت دائما مركزا ينبت الثورات ضد الاسلام ، فإن زعماء الفرس هالهم أن يضيغ نفوذهم وثوراؤهم على أيدي العزب المسلمين ، وأيقنوا أن مواجهة الاسلام بالسيف شىء لا أمل فيه ، فدبروا المؤامرات والمكائد ضده بخلق هذه الجماعات التى حفلت بها عصور الاسلام ، وساعد اليهود من بقايا سجن بابل على ذلك ، أولئك الذين استوطنوا بلاد فارس ورفضوا العودة لفلسطين عندما سمح لهم بالعودة ، فكان لتعاون بقايا اليهود مع الموثورين من زعماء الفرس وأشياعهم أخطر الأثر على الاسلام والمسلمين ، وأصبحت بلاد فارس منذ ذلك الوقت المبكر مباءة تدفع ضد الاسلام من حين الى آخر أخطر العناصر وأقسى الثورات .

٩ — أندية ومؤسسات

تأييد للإسلام في غفلة من المسلمين

في كتابي « اليهودية » (١) عقدت بابا عنوانه « اليهود في التاريخ » وضحت فيه أن من دكاؤد اليهود أنهم يعطون في الخفاء أعمالا تعسود بالخطر الجسميم على المجتمع البشرى بوجه عام والمجتمع الاسلامى بوجه خاص ، وذلك مثل الاثارة وبث الفتن ، ومثل نفوذهم خلف وسائل الإعلام حيث يذيعون ما يشاءون ويمنعون ما يشاءون ، ومثل التجسس والتستر خلف أديان أخرى للوصول الى أهدافهم ، ومثل التآمر والاعتيال .

الماسونية والروتارى والليونز :

على أن من أخطر الأعمال التي يقوم بها اليهود في الظلام إنشاؤهم الجمعيات والأندينية السرية مثل الماسونية والروتارى ، والليونز واليوجا ، وهذه المؤسسات والأندية تتظاهر بالنشاط الاجتماعى وتتستر خلفها كل خطر للأديان والأوطان ، وقد أعلن المؤتمر الاسلامى الذى عقد بمكة المكرمة فى مارس سنة ١٩٧٤ أنه ثبت أن هذه الجمعيات جمعيات هدامة ، وأنها وثيقة الصلة بالمسيونية ، ويجب الإبتعاد عنها تماما . كما حذّر الرسوم البابوى رقم ٨٦٤ الصادر فى ٢٠/٢/١٩٥٠ من الاشتراك فى هذه الهيئات بأى وجه من الوجوه ، وذلك دفاعا عن العقيدة وعن القضية .

ومع هذا لا يزال لهذه الجمعيات نشاط ظاهر ونشاط سري ، ولعل المسلمين والمسيحيين ينتبهون .

* * *

تلك بايجاز هي العوامل الداخلية التي أضعفت العالم الاسلامى ، فلننتقل الى الحديث عن العوامل الخارجية :

(١) اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان ص ٣٠٩ — ٣٤٨ .

ثانيا : العوامل الخارجية

التي أضعفت المجتمع الاسلامى

متى العالم الاسلامى بكثير من الأعداء الذين تسلطوا عليه من خارجه ، وهاجموه ، وقتلوا بكثير من المسلمين فنكا قاسيا ، وأنزلوا بهذا العالم صنوفا من التنكيل ، وكانوا من أقسى الأسباب التى غرست الضعف والهوان به ، ويمكن تقسيم هؤلاء الأعداء قسمين :

قسم غلبه الاسلام بعد هذا الصراع فاعتنق الاسلام بعنق أو بشكل سطحي وهم المغول •

وقسم بدأ صراعه ضد الاسلام من مطلع الاسلام ، واستمر فى صراعه حتى العهد الحاضر ، وهو الغرب المسيحى باتجاهاته الصليبية ، وقد اتخذ هذا القسم فى مسيرته الطويلة أسماء عديدة ومواقف كثيرة مثل :

١ — الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى صدر الاسلام ، ثم فى عصر عمر بن الخطاب وفى العهد الأموى والعباسى •

٢ — موقعة ملاذكرد (١٠٧١م) التى كانت من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية • وكانت بين السلاجقة والامبراطور البيزنطى رومانس الرابع •

٣ — الحروب الصليبية الشهيرة التى استغرقت قرنين من الزمان (١٠٩٧ — ١٢٩٢م) •

٤ — الزحف الصليبي على أسبانيا والمغرب العربى ، وقد بدأ مع بدء الحروب الصليبية فى الشرق تقريبا ، وظل فى حركته وامتداداته حتى القسرن العشرين •

٤ - الحركة الصليبية ضد الامبراطورية العثمانية من منتصف القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين *

٥ - الحركة الصليبية وراء الحملة الفرنسية على مصر والشام *

٦ - الحركة الصليبية تعاونت لتتحقق لدول الغرب المسيحي أن تستعمر الدول الاسلامية *

٧ - الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بين دول العالم الاسلامي وتحمي دولة الصهاينة *

وقد تحدثنا عن المغول وعن كثير من الحركات الصليبية التي أشرنا اليها ، في موسوعة التاريخ الاسلامي ، وسنمر هنا مرورا سريعا على ما يرتبط منها بدراستنا الحالية *

المغول

هناك أحاديث طويلة مفصلة عن المغول أوردناها في الأجزاء : الخامس والسابع والثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى ، وهى تشمل أصل المغول وعقائدهم وأشهر زعمائهم ، كما تشمل الحديث عن زحفهم اليهادر الذى ضم مناطق واسعة من الصين وأواسط آسيا والذى وضعهم على حافة العالم الاسلامى فاجتاحوا الدولة الخوارزمية ودمروا أشهر مدنها كبخارى وسمرقند ثم هراه وطوس والزنجان ، تلك المدن التى كان لها فى التاريخ الاسلامى مكانة سامية وذكرى عاطرة .

واقترح المغول ما يسمى الآن افغانستان فبلاد ايران ، ثم اتجهوا غربا وحققوا بعض انتصارات فى شمال العراق ، فاستولوا على ماردين ونصيبين والموصل ، ثم أخذوا إربل فسامرا . وكان ذلك سنة ٦٣٤ هـ .

ولنصور خطورة المغول نذكر أنهم حوالى نفس التاريخ ، وبالضبط سنة ٦٣٨ هـ اتجهوا للزحف تجاه أوروبا ، فاستولوا على شبه جزيرة القرم وأخذوا موسكو وأحرقوها ، ثم استولوا على البلاد الروسية عاما بعد عام حتى وقعت كلها تحت أيديهم ، وقد حكموها قرنين ونصف قرن ، ومن روسيا امتد زحفهم على بولندا والمجر .

أما عن الجهة الاسلامية فقد استأنفوا نشاطهم فيها ، وتحالفوا مع الصليبيين للقضاء على المسلمين ، وزحفوا من شمال العراق تجاه بغداد ، وفى سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولكو حفيد جنكيز خان إلى بغداد بجيوشه ، ونزل قائده ياجونوس على بغداد من غربيها وهولكو من شرقيها ، ثم خرج له الخليفة المستعصم فى أعيان دولته وأكابر رجاله ، فقاتلهم المغول رقاب الجميع ، وقتلوا الخليفة وداسوه بالخيول ، ودخلوا بغداد المدينة واتسعوها وبقي السيف يحمل بها أربعة وثلاثين يوما ، وقتلوا من كان فيها من المسلمين ألف وثمانمائة ألف وزيادة (١٨٠٠٠٠٠) .

نوب المغول دار الخلافة حتى لم يبق فيها إلا ما قاله ولا ما جله ، ثم
 حيرت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها ، ثم عبر ثلاثه ورجاله الخرائت
 لمحاصرة حلب ، فلما دخلوها وضعوا السيف يومين في رقاب أهلها حتى
 أبادوا الخلق ، وبعد حلب دخل المغول حماة ودمشق وأنزلوا بالسكان
 ما أنزلوه بسكان بغداد .

وورث المنتار تراث المسلمين ، وخلفوهم في الحكومة ، وناهيك به بؤسا
 وشقاء للمسلمين أن يتولى أمرهم أمة جاهلة وحشية ليس لها علم ولا دين
 ولا حضارة ولا ثقافة ، لا تطبق إلّا الظالم أو كاد على العالم الإسلامي ،
 جامع فيه الملامون ، وانما مات وحدته ، وتفككت عراه وذل شأنه بعد عز .

وسلمت مصر من تدمير المنتار بعد أن أبلى بنوها بلادهمنا في موقعة
 « عين جالوت » التي هزم فيها جيش المنتار في هزيمة وقيل قائده وعدد
 ضخم من رجاله وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٦٠٨ هـ ثم لاحق
 المصريون بقيادة بيبرس المغول تجاه الشمال فأوقفوا بهم هزيمة أخرى
 في قيسارية وفي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص من بغداد ولكن
 الجيش المصري أوقف بهم هزيمة ثانية ، وفي عهد الناصر أغار المغول على
 دمشق واحتلوا ولكن الناصر أعاد لهم جيشا ضخما وانتهى بهم بالتراب
 من دمشق فقتلت شملهم ووقع جيشهم بين قتيل وأسير ، وكان الأسرى
 عشرة آلاف .

وهناك جولة أخرى مغولية على العالم الإسلامي بقيادة تيمورلنك
 كانت كحملة هولاكو دموية ومدمرة .

لقد لاقى العالم الإسلامي الأوبال من المغول الذين دمروا الحضارة
 وسفكوا الدماء ، وامتد نشاطهم فشمع عدة ممالك إسلامية كما امتد مع
 الزمن عدة قرون ، وقد دخل الكثيرون منهم الإسلام عقب ذلك وكونوا
 امبراطورية في الهند ، وأذن إسلام الكثيرين منهم لم يكن عديقا ، وقد
 ورد عن ذلك في تاريخ الهند في القرنين الرابع والخامس هـ وسبعة
 التاريخ الإسلامي .

الصليبيون

قلنا أننا ان الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان (٤٩١ - ٥٦٩٢ = ١٠٩٧ - ١٢٩٢م) كانت لها امتدادات في العصر الحديث باسم الاستعمار ثم باسم الصهيونية ، أما أن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية فذلك شيء واضح لأن الدول التي استعمرت العالم الاسلامى هي نفسها الدول التي اشتركت في الحروب الصليبية ضد المسلمين ، وأما أن الصهيونية امتداد للحروب الصليبية فذلك شيء لا يخفى على الباحثين ، فالغرب المسيحي مع كراهيته لليهود هو الذى زرع اليهود في فلسطين ليكونوا شوكة في ظهر العالم الاسلامى وليصرفوا المسلمين الى الحرب حتى لا يحقق العالم الاسلامى تقدما يذكر في مجال الحضارة والاستقرار *

ومن أجل هذا فإن حديثنا عن الصليبيين وامتداداتهم لابد أن يطول : وعندما نتحدث عن دور الحروب الصليبية في إضعاف العالم الإسلامي نذكر بإيجاز نقاطا محددة تحمل أخطر الدلولات ، وقد أتيج لى أن أسجل هذه النقاط في الفيلم الانجليزى One God and Three God

فالحروب الصليبية شملت الأخطار التالية :

- ١ - اشتركت فيها كل دول أوروبا ضد العالم الاسلامى *
- ٢ - استمرت قرنين من الزمان *
- ٣ - أعلنها البابا « أوربان الثانى » وقادها القسيس ، وقال البابا في إعلانها كلمات لا يليق أن تصدر من رجل دين هي :

Let the truce of God observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to Conquering the Infidels.

فهو يأمر أن نتوقف الحروب في أوروبا ، وأن نتجه اسلحة المسيحيين الى القسساء على الكفرة (يقصد المسلمين) وإنه لمن العار أن يصرخ

قائد ديني عظيم هذه الصرخة ، وأن يحث الناس على اراقة الدماء وإحداث المجازر .

٤ — اشترك فيها ملوك أوروبا الذين عاصروها كلهم تقرّباً ، وكانت الحروب الصليبية الثالثة بقيادة فرديريك ملك ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وكانت الحرب الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد أسرى هذا في موقعة المنصورة وسجن بدار ابن لقمان .

٥ — دارت هذه الحروب الطويلة في أرضنا ودمرت الكثير من مدنها التي كانت مزدهرة وبخاصة أنطاكية وطرابلس وعكا والمنصورة ويقرر الباحثون المسلمون أن هذه الحروب كانت شديدة الأثر على الاسلام والمسلمين ، التهمت البشر والموارد ، ودمرت الزرع والضرع والمنازل والطرق (١) .

٦ — وعندما تقرّب للمؤلفين الغربيين المنصفين مثل غوستاف لوبون وكيرك وهيرنشو وأمرتون نجد اعترافاً واضحاً ومفصلاً يقرّر أن الحروب الصليبية كانت ذات نتائج عظيمة بالنسبة للغرب ، وكانت نواة لعصر النهضة ، وبالعكس كانت الأحوال بالنسبة للشرق فقد عانى من نتائجها شر المهانة (٢) .

٧ — وبعد هزيمة أوروبا وطردها من الشرق واصلت أوروبا حملاتها عن طريق التبشير الديني فأنشأت مدارس الرهبان مثل الفرنسيسكان والدومينيكان ، كما دفعت للشرق ألواناً من الثقافة لا تناسب الاسلام

(١) سنتحدث بعد قليل عن ملامح أخرى للصليبيين .
(٢) اقرأ ذلك في الجزء الأول من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية وهو بعنوان « تاريخ المناهج الاسلامية » .

رشية في التأثير على المسلمين ، واتخذت كذلك الاقتصاد وسيلة من وسائل
الاستعمار اللعين ، والتغلب عليهم .

الغرب ضد الامبراطورية العثمانية :

ولم يتوقف حقد الغرب للمسيحي على الشرق الاسلامي بانتهاء
الحرب الصليبية ، فقد اتجهت أوربا لمحاربة الامبراطورية العثمانية التي
كانت طيلة عدة قرون بعد الحروب الصليبية ممثلة للسالم الاسلامي كله
كما ذكرنا من قبل .

الحملة الفرنسية على مصر :

وما ان انتهت أوربا من الامبراطورية العثمانية حتى اندفع نابليون
بالحملة الفرنسية على مصر ليستأنف الحروب الصليبية التي يتربل
المؤرخون عنها انها كانت في أغلب مظاهرها مشروعاً فرنسياً ، وان البابا
عندما أراد أن يعلنها ترك مقر رياسته وذهب ليعلنها من كليز مونت بفرنسا .

وقد فشلت الحملة الفرنسية فشلاً ذريعاً ، وأسهمت انجلترا في
القضاء عليها عندما دمرت الاسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية ،
ودمع هذا اشتركت انجلترا وفرنسا وغيرها من دول أوربا في الدعاية
لخرافة تذكر أن الحملة الفرنسية تركت بمصر أو خلقت بمصر نتائج
حضارية ، وهو ادعاء متهانت فنتدناه بالتفصيل في الجزء الخامس من
موسوعة التاريخ الاسلامي ، فالحملة الفرنسية كانت ضد الحضارة المصرية
التقدمية عندما سلطت مدافعها الى رأس أبي الهول ، وكانت ضد الحضارة
الاسلامية عندما اقتحمت بالخيول الجامع الأزهر واستحلت حريات
المسلمين ، هذا بالاضافة الى ما اراقت من دماء وما غصبت من أموال ،
وبالاضافة كذلك الى ما قدمته من اغراء ليعقوب شام ليؤلف « اللواء
الاقباط » ، وساعدة الحملة على الرغم من إرادة زعماء الأقباط الذين
استنكروا سناً التصرف الأدهق .

وما ان تموزت الهمة الفرنسية بغير بدأ الا - نذكر ان العنصرية اكلت
 الشعوب الاسلامية بدءا من المغرب وامتدادا إلى اندونيسيا ، وكان هذا
 العدوان الغربي بصورة واحدة ، قسوة وفتك وتدمير ، فتن وقتل ، دحرارية
 العلم ، وتشجيع الخرافات .

وقد تعاونت الدول الغربية تعاوننا كاملا لإخضاع المسلمين فاذا عجزت
 هولندا الفقيرة عن إخضاع اندونيسيا ساعدتها انجلترا ، وإذا ضعفت
 إسرائيل عن مقاومة الدول العربية المحطبة بها ، خرج التصريح الثلاثي
 (أمريكي بريطاني فرنسي) لحماية الحدود الخالية لدول الشرق الأوسط ،
 وقد أثبتت الحوادث أن المقصود بهذا التصريح هو حماية حدود إسرائيل
 فاذا اعتدت إسرائيل وحاولت تغيير الحدود فالتصريح حبر على ورق ،
 وإذا أحست إسرائيل بأى تهديد صاح أصحاب التصريح بأنهم سينفذون
 التبعات التي ألقيت عليهم ، وسيقفون في وجه المعتدى .

وقبل أن نسرد السلسلة التاريخية لهذا العداء الذي بدأ بالحروب
 الصليبية واستمر إلى اليوم نريد أن نضع عنوانا كبيرا هو :

هل هذا العدوان يجرى باسم الدين أم باسم السياسة ؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال نذكر أنه كان هناك بعض الناس يعتقدون
 أن هذا العداء يجرى باسم السياسة ، ويرون أن التكتلات العالمية ، والمراكز
 (الاستراتيجية) ، ثم المحافظة على الأسواق التجارية ، وغير ذلك من
 العوامل السياسية والاقتصادية هي التي دعت إلى ما عناه الشرق من
 الغرب من عداء متصل وحملات غادرة متتالية .

ولكن هذه النظرية لا تتبرر على الوقوف أمام البحث العلمي التاريخي ،
 ولم يكن يعتقدوا إلا من عرفوا بمسألة النية ، أو من كانوا يملكون لحساب

المغرب ، وفي كل يوم تقوى الأدلة ، ويزداد الأمر وضوحاً بأن العداء هو أولاً ديني لا سياسى ثم هو ثانياً عداء الغرب للشرق •

وسأسرد فيما يلى نصوصاً عربية وشرقية تؤيد هذا الاتجاه ، ثم أتبع ذلك بتدوين بعض ملاحظات لى عن هذا الموضوع •

جاء فى التشيد الإيطالى ما يلى :

أماه ، لا تبكى ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى ، أنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً الأبدل دمي فى سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية ، سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن ... إن سألك أحد عن عدم حداثك على فأجيبه : إنه مات فى محاربة الاسلام ، الطبل يقرع يا أماه ، ألا تسمعين هرج الحرب ؟ دعيني أعانقك وأذهب •

وقال مستر جلدستون من مشاهير الإنجليز :

يحب إعدام القرآن •

وكتب صاحب مجلة العالم الإسلامى ما يلى :

« العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو قاسٍ مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً •

« والروح الصليبية كامنة فى صدور النصرانى كمن النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم • كما كانت فى تلب بطرس الناسك من قبل ، فالتصنافية أم يزل التعصب مستقراً فى نواصيها ، متغلغلاً فى أحشائها متمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدأ ... إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت •

« وجميع هذه الشعوب النصرانية مجمعة ” و”متففة” على عداء الإسلام ، وسحق المسلمين (١) » .

والآن أضيف الى هذه الأقوال المقتبسة الملاحظات الآتية :

أولاً — كانت روح القسوة والتشفيء واضحة في انتصارات الغربيين ، فلم يكن ما أحرزوه من نصر على المسلمين في بعض المعارك نهاية للمطاف ، وإنما كان بدءاً لمجازر شنيعة ، وإزهاق أرواح ، وسكب فيض من الدماء ، وطالما شملت القسوة الأطفال والنساء والعجائز ، وطالما جرت هذه المجازر ، والسافكون يحثسون الخمر ويرقصون طرباً ، لا للنصر وإنما لما يحدثونه بالمسلمين من إبادة وتدمير ، ولم تكن المسألة مجرد قتل وإنما كان يصحب ذلك تعذيب وتكبير وقد كتب الجنرال نيكلسون يقول : يجب علينا أن نسن قانوناً يبيح لنا أن نحرق أو نسلخ جلود هؤلاء وهم أحياء ، لأن نار الانتقام التي تتأجج في صدورنا لا تخمد بالشنق وحده ، وقد كان الجنرال نيكلسون حسن النية لأنه فكر في سن قانون بذلك ، ولكن غيره فعل هذا وأفظح منه دون أن يحتاج الى سن القوانين ، وقد كتب المؤخون الأفرنج أنفسهم هذا التاريخ المرير ، وانتقدوا الأعمال البربرية التي قام بها الأوروبيون ضد المسلمين انتقاداً قاسياً . فهل يمكن أن نقول بعد هذا إن العداء سياسى أو اقتصاوى ؟ الجواب لا شك بالنفى ، إذ لو كان الغرض هو كسب النفوذ أو الأسواق لا كتفى الأوروبيون بالنصر ، ولما أنزلوا بالمسلمين هذه الألوان من الوحشية والتكبير .

ثانياً — هل هو من محض المصادفة أن جميع الدول الإسلامية دون استثناء تقريباً من المغرب إلى إندونيسيا كانت مستعمرة للدول الغربية حتى سنة ١٩٤٥ ؟ وإنه لم تكن هناك دولة مسيحية واحدة مستعمرة ؟ الجواب القوى الواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون من محض المصادفة ، وإنما كانت السيطرة على الدول الإسلامية واستغلالها هدفاً

(١) انظر يوم الإسلام للاستاذ أحمد امين ص ١٠٩ — ١١١ .

بموسوما أعدده الغربيون وبنفذه ، كما كان ضمان حرية الدول المسيحية .
وابنبا مقرورا آهـن به النوييون وأتبعوه .

ثالثا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن فرنسا كان يمكن أن تهيجته
قواتها المبيدة وأسلحة الغرب المدمرة التي الجزائر ، عدة سنين تفنك فيها
وتدمر لو كان سكان الجزائر شعبا مسيحيا ؟

رابعا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن هولندا الصغيرة الفقيرة
تستطيع وحدها أن تأتي من أقصى الشمال لتسيطر على أكثر من مائة مليون
دسلم يسكنون آلاف الجزر التي تتكون منها الآن إندونيسيا ؟ وهل كانت
هولندا تستطيع وحدها ذلك لو تخلت عنها سائر بريطانيا وأسلحة أمريكا؟ وإذا
اشتراط اللطفاء على اليابان عقب استسلامها ألا تسلّم إندونيسيا للوطنيين ؟
وهل كانت هولندا تستطيع بعد الحرب العالمية الثانية أن تحلم حلمها أن تسل
باستعادة السيطرة على إندونيسيا لو لم تؤيدها بريطانيا بقوة الحديد
والنار كما سيأتي بيان ذلك عند الكلام عن هولندا وإندونيسيا ؟

خامسا — هناك دعوى واضحة البطلان يقولها المستعمرون ، وهي أن
احتلالهم هذه البلاد كان يقصد إلى رفع مستواها والاجابة على
ذلك سهلة يسيرة توضحها الحقائق الآتية :

كيف تركت انجلترا الهند والباكستان بعد احتلال دام حوالي ثلاثة
قرون ؟

وكيف تركت السودان بعد أن احتلته حوالي ثمانين عاما ؟

وكيف تركت هولندا إندونيسيا بعد أكثر من ثلاثة قرون ؟

وما هو حال ليبيا بعد الاحتلال الايطالي ؟

والآن بعد انجلترا أن تجعل من فلسطين وأرضا قوميا لليهود ، ولم

تفعل ذلك بعد أن لامتها لعصابة الصهيونية ؟

سادسا — يقولون إن السبب في احتلال هذه البلاد هو نخلفها في ميادين العلم والسياسة والاقتصاد * * * ونحن نتساءل : هل مصر أكثر تخلفا من الحبشة ؟

سابعا — تحدث حروب بين الدول المسيحية بعضها والبعض الآخر لأسباب مختلفة كالحرب التي حصلت بين ألمانيا وإيطاليا من جهة وبين دول الحلفاء من جهة أخرى ، ولكن الملاحظ أنه على الرغم مما أنزله المحور بالحلفاء من خسائر فإن دول الحلفاء سرعان ما أنيت عداها لدولتي المحور وأدخلت محل هذا العدا صداقة ومساعدات شاملة .

ثامنا — كانت تركيا موطن الخلافة الإسلامية ، وقد جعلها ذلك هدفا لعداء الغرب المتصل القاسي ، وخلق منها « الرجل المريض » بل عملوا على أن يموت ذلك المريض ، فلما خلعت تركيا من دستورها كلمة الاسلام أمنت شر الغرب وأصبحت له من الأصدقاء ، وسنأتي مزيدا أيضا لهذه النقطة عند الكلام عن « تركيا والغرب » .

تاسعا — وفي الشرق الأوسط تقوم الدولة العربية « لبنان » ويكثر سكانها المسيحيون ، وقد اتجهت الصهيونية إلى محاولة خلق جفوة بين لبنان والدول العربية الأخرى ، وقد عبّر موسى شرتوك الذي كان وزيرا لخارجية إسرائيل عن هذه المحاولة حين قال : إن إحساسنا تجاه لبنان إحساس طيب ، ولا نضمر لها أي عدا .

وكان موسى شرتوك بذلك متأثرا بحماته من المسيحيين الغربيين ، ولكن التجمع الإسلامي في لبنان دفع إسرائيل لتهاجم لبنان بقسوة في الثمانينات ، بيد أن اللبنانيين أغرقوا الضحايا في الدماء فأجبروهم على الجلاء عن أرض لبنان .

عاشراً — وأثبت التاريخ الحديث مهزلة من المهازل اتصلت بالهجوم الغادر الذى قامت به انجلترا وفرنسا ضد مصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ . وقد تشعبت هذه المهزلة إلى عدة اتجاهات •

١ — هجوم غادر فيه قتل وتدمير بدون سبب •

٢ — هجوم عنيف من انجلترا وأمريكا ضد اندونيسيا لأنها وقفت تؤيد شقيقتها مصر وتشد أزرها فى محنتها •

٣ — يخوّل الكونجرس الأمريكى أيزنهاور أن يستعمل الجنود الأمريكين لحماية استقلال دول الشرق الأوسط اذا تعرضت لخطر شيوعى ، أما إذا هددت استقلال هذه الدول بالقوات الغربية فان أيزنهاور ليس له أن يستعمل القوات الأمريكية لحماية استقلال هذه الدول ! ! ! بل ربما بارك هذا التهديد وأيده •

مرة أخرى : ما طبيعة هذا العداء ؟

الجواب : إنه عداء دينى ما فى ذلك شك ، وقد كان من الممكن أن يعلن الغربيون ذلك لولا أنهم خشوا أن تحس الدول الاسلامية بالخطر يتهددها جميعاً فتتحد وتتعاون لمقاومة هذا العدوان ، والغرب حريص على أن يثير الخلاف بين هذه الدول وأن يبذر بينها بذور الشقاق بايهاهما أن هذا العداء لا صلة له بالناحية الدينية ، وبذلك يتخطفها ويستذلها واحدة بعد واحدة ، على أن كثيرين من الغربيين لم يستطيعوا إخفاء السبب الرئيسى فراحوا يعلنونه ويجهرون به ، كما تحدثت بذلك النماذج التى نقلناها عن بعضهم فيما سبق •

بقى علينا أن نقرر حقيقة كبيرة الخطر ، وهى أن عداء المسيحيين الغربيين للمسلمين ليس الا انحرافاً عن مبادئ المسيحية الصحيحة ، فالمسيحية كما علمها السيد المسيح تفيض رحمة وتسامحاً ، ولكن ما لاقاه

يسبح وأتباعه من جفوة اليهود وقسوتهم وتتكليهم ، أشار حفيظة
المسيحيين فاذا بهم يستعذبون أن يعذبوا الآخرين ، ويحبرن إراقة الدماء ،
ثم إذا بهم يتعاونون مع اليهود أعدائهم الأول في محاربة الاسلام والقضاء
عليه ، لا لشيء إلا لأن الاسلام سهل الانتشار ، رأوا فيه منافسا خطيرا
اجتاح أرض المسيحية ، وتسرّب إلى قلوب كثير من المسيحيين •

أما الاسلام فكما قلنا من قبل يدعو أتباع الديانات السماوية المختلفة
إلى التعاون لخير الانسانية ، ويرى أن الايمان بالله والاعتقاد بوحدانيته
أساس قوى يمكن أن يتعاون في ظله أتباع هذه الديانات ، وقد كان الرسول
خير من مثل لذلك وتبع أصحابه سيرته وبخاصة عمر بن الخطاب الذى
تقدّم من بيت مال المسلمين مرتبا منظما للعجزة والشيوخ من اليهود
والنصارى ، والذى رفض أن يصلّى فى كنيسة القيامة حين دخل وقت
الصلاة وهو بها ، خوف أن يحاول المسلمون أن يتخذوها مسجدا كما سبق •

وقد سار أمراء المسلمين على هذا النحو ، فعند ما فتح الصليبيون
بيت المقدس أسالوا الدماء أنهارا ، وعندما استرده المسلمون شملوا بالنعف
والتسامح سكانه المسيحيين ، وقد كان تسامح المسلمين بعيد الأثر حتى
فى نفوس الصليبيين الذين بدأ الكثيرون منهم يقتبسون هذه الروح التى
عرّف بها المسلمون ، ويقول توماس أرنولد : إن الصليبيين الذين كانوا
يفدون حديثا الى الشرق كانوا يعجبون من روح التسامح التى يرونها فى
الصليبيين الذين طال مقامهم فى فلسطين ، وكانت الكنيسة تكرر احتجاجها
لتفتنى روح التسامح بين أتباعها •

ويقول الراهب ميثو (١) : وهن المؤسف أن تقتبس الشعوب المسيحية
من المسلمين التسامح ، واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أى معتقد
عليهم بالقوة •

(١) رحلة دينية فى الشرق ص ١٧ •

تلك هي روح الأغلبية الساحقة من المسلمين ، فإذا كان بعض الولاة الأتراك أو غيرهم عرفوا بالقسوة والتعصب فذلك شيء بعيد عن الاسلام ، وقد لاقى المسلمون أنفسهم كثيرا من العنت من خشونة هؤلاء الأتراك وقسوتهم •

وقد آن لنا أن نذكر موجزا سريعا لعدوان الغرب على الشرق أو لعدوان المسيحيين واليهود الغربيين على المسلمين •

نصـور العـدوان المـسيحـي عـلى الشـرق الـاسلامـي

مـلامـح أـخـرى لـلـحـروب الصـليبيـة :

في الشرق الأوسط مجموعة من الدول الاسلامية ، كانت أسبق من غيرها إلى اعتناق اسلام ، وكانت بالتالي أسبق من غيرها في تلقي عدوان الغرب ، وقد بدأ هذا العدوان بما يسرف بالحروب الصليبية ، ولا يزال مستمرا حتى الآن • وسنعطى موجزا سريعا لهذه السلسلة من الاعتداءات ، وسنقتبس من الكاتب الغربي الدكتور غوستاف لوبون بعض سطور مما دونه عن الحروب الصليبية ليكون شاهدا على بنى جنسه (١) • قال :

« كانت أوروبا ولا سيما فرنسا في القرن الحادي عشر الذي جرت فيه الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلاما ، وكان النظام الاقطاعي يأكل فرنسا التي كانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها — وهم من أنصاف البرابرة — يقتتلون على الدوام ، ولا يملكون سوى أنانس من العبث الجاهل ، ولم يكن في ذلك الحين سوى البابا نفوذ شامل ، وكان الناس يخشون البابا أكثر مما يجترموه •

« وكانت دولة الروم في الشرق قائمة ، وكانت القسطنطينية مع عاصمتها عاصمة ادولة كبيرة لا تنتهي فيها المشاحنات والمنازعات •

(١) (١) ابن الأثير ، الثاني من « حضارة العرب » ص ٣٤٥ — ٣٦٧ •

وكانت الدول الإسلامية في سوريا، نازلة وانحلالاً ، ارتكز حضارتهم كانت ،
ذلك محافظة على سلطانها القديم .»

« فالحزب الصليبية التي شبت في ذلك الحين لم تكن سوى نزاع
عظيم بين قوم من الهمج الأوربيين ، وبين حضارة المسلمين التي كانت
تعد من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ .»

« وكانت أكثر قوافل الحجاج الأوربيين إلى بيت المقدس تكون
فيالق عسكرية أكثر منها جماعات للحجيج . فكان بها بارونات وفرسان ،
طلما هاجمت الأعراب والتركمان ، فاضطر هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم ،
وبخاصة أن التركمان الذين قاموا مقام العرب في سوريا ، كانوا أقل تسامحاً
من العرب ، فالتزموا حجيج النصارى دخول القدس بخشوع ، ولم يسمحوا
لهم بالدخول في شكل عسكري ، وعلى ضوء المشاعل ، كما كان العرب
يسمحون بذلك .»

« وزار بيت المقدس الزاهد بطرس الناسك ، فاعتاظ لما رأى من
معاملة المسلمين للنصارى ، وخيل إليه أنه مبعوث الرب لانقاذ الأراضى
المقدسة من الكفار (المسلمين) ، واستنعتان بالبابا أوربان الثانى فأيده
البابا ، ثم أیده الأمراء الاقطاعيون ، وبخاصة أن المسلمين كانوا يهددون
القسطنطينية ويحاولون الاستيلاء عليها ، وقد لعبت أطماع التجار
والأمراء دوراً كبيراً في تشييط هذه الحركة .»

وفي ربيع سنة ١٠٩٦ بدأت الجيوش الأوربية ترحف ولكنها تعرضت
إلى مجاعات وأمراض فتاكة ، ومن نجا منها عمل في السلب والنهب والتدمير ،
وقد روت آن كومنين بنت قيصر الروم أنه كان من أحب ضروب اللهو
عند الصليبيين قتل الأطفال وتقطيعهم إرباً إرباً وشيئهم ، ولكن هذه
الجيوش الهمجية العاطفية لم يكن لها غناء ، وإنما سنى أفرادها بالأوبئة
والجاعات والفتن الداخلية ثم بدفاع العرب .»

وتلا ذلك زحف ضخّم قوامه مليون أوربي يقودهم الأمراء والملوك ، وقد استولى ذاك الجيش على القدس في يولية سنة ١٠٩٩ ، ويقول غوستاف لوبون : « لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتتكيل التي اتبعوها ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود والنصارى الارثوذكس الذين كان عددهم ٦٠ ألفا فأفنؤهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيئا » .

ويقول غليوم الصورى : « إن الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف ذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجى » .

وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والصليبيين ، وقد تم طرد الصليبيين من القدس على يد صلاح الدين الأيوبي ، ودخل صلاح الدين القدس وأسر ملكها سنة ١١٨٧م وأنهى سلطان الصليبيين عليها ، ولكنه — كما يقول غوستاف لوبون — « ثم يشأ أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون في المسلمين ، وقد وجد هؤلاء في حماه أمنا وسلاما » .

وانزعج ملوك أوروبا لاسترداد المسلمين للقدس ، وتآلفت حملة ضخمة سنة ١١٨٩ يقودها أقوى ملوك أوروبا وهم فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفردريك بارباروس قيصر ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ولم يكن لهذه الحملة من أثر إلا القتل والتدمير في أثناء الانتصارات الصغيرة التي كان يحرزها المهاجمون .

ومن الحملات التي قادها ملوك أوروبا أيضا الحملة التي قامت من فرنسا بقيادة ملكها سانت لويس سنة ١٢٤٨ ، وقد اتجهت هذه الحملة الى

الاستيلاء على مصر ، ولكن الجيش المصرى هزمها وأسر الملك وسجنه فى دار ابن لقمان بالمنصورة •

وبعد مائتى سنة من الصراع المرير والضحايا التى لا تعد ولا تحصى ، استطاع المسلمون أن يستردوا بلادهم من الصليبيين السفاكين ، وقد بدأت انتصارات المسلمين تتضح على يد نور الدين زنكى (١١٤٩ - ١١٧٤ م) ولجاء بعده صلاح الدين الأيوبي فحقق أعظم انتصارات المسلمين وبخاصة بمعركة حطين (١١٨٧) التى أدت للاستيلاء على عكا ونابلس والرملة ويافا وبيت المقدس التى سقطت ماكها أسيرا فى أيدي المسلمين كما سبق ، وفى عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) تهاوت المستعمرات الصغيرة التى بقيت للصليبيين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى سنة ١٢٩٢ م سقطت آخر مدينة لاتينية فى يد ملك مصر السلطان الأشرف خليل ، وانتهى بذلك هذا الصراع الذى شنته أوروبا المسيحية على مسلمى الشرق (١) •

وبعد ، هل كان المقصود بهذه الحروب الإستيلاء على القدس لأنها كعبة المسيحيين ؟

فلماذا إذًا كان الذبح والتقتيل والإبادة ؟

ولماذا استولى المسيحيون على غير القدس من أملاك إسلامية وأسسوا إمارات أربعة فى الشام ؟

ولماذا وجهت بعض الحملات الصليبية للاستيلاء على مصر ؟ وعلى تونس ؟

لا ، لم يكن الغرض الاستيلاء على القدس ، وإنما كان الغرض تدمير الإسلام والقضاء على المسلمين •

(١) اقرأ عن الحروب الصليبية فى الجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

أوروبا والتتار والمسلمون :

تصور المؤرخون بعد الحديث عن الحروب الصليبية أن يتساعلوا :
لماذا فشلت أوروبا في هذه الحروب ؟ ولماذا توقفت ملوك أوروبا عن مد
يد العون إلى الأمراء الصليبيين وهم يهرون تحت أقدام المسلمين الواحد
بعد الآخر ؟ ويجيب المؤرخون بأجوبة مختلفة حسب اتجاهات هؤلاء
المؤرخين وظروفهم ، ولكن خطرت لى فكرة لم أر أجددا من المؤرخين
تكرمها ، وقد أؤخت لى بهذه الفكرة تلك التواريخ المتسلطة الكبرار
الأحداث التي وقعت في العالم الاسلامى في هذه الأثناء ، فبعضها وقعت
هذه التواريخ أمامى ظهر أن النشاط الصليبي بدأ سنة ١٠٩٧ وامتد بداية
القرن الثانى عشر والثالث عشر ، وأن زحف التتار المدمر بدأ على يد
الاسلامى في مطلع القرن الثالث عشر ، وأن هؤلاء استولى على بلاد
سنة ١٢٥٨م وأحضر السيف لى رقاب المسلمين ، وبصر الحضارة الاسلامية
في جامعة الخلافة ، وفي نفس ذلك الوقت كانت تسقط الامارات الصليبية
في ايدي المجاهدين المسلمين كما سبق القول .

الا يمكن أن نفكر أن عناية الصليبيين الأولى كانت متجهة إلى
القضاء على الاسلام وسحق المسلمين كما ظهر ذلك من أقوال الكثيرين
منهم ، فإذا رأوا أن زحف التتار على العالم الاسلامى يحقق لهم هذه
الغاية بنقض القدوة ويوح التهمير التي يريدونها ، أغناهم ذلك عن
مواصلت ذلك الجهد من جانبهم ، وطمعوا بهذا السيف العاد الذي تسلط
على رقاب أعدائهم المسلمين ، وأسأل دعاهم أنهارا ، وأعمل نخل شعوب
القشروب والتهمير في جميع نواحي الحضارة الاسلامية ؟

قد يوافق المؤرخون على أن يعدوا هذا سببا من الأسباب المهمة التي
جعلت تارك أوروبا يتوانون عن مساعدة ذويهم ، وقد لا يوافقون ،
ولكننى أتمنى أن أعتبر هذا سببا ذا بال من الأسباب الرئيسية التي
أدت إلى ضعف المسلمين على الشرق الأوسط ، فإنا نرى التتار الذين

وأصبحوا بعض أتباعه ، عادت أوروبا تتحفز من جديد ، وتعد العدة لاستئناف نشاطها الحربى على العالم الاسلامى ، واتجهت فى هذه المرة إلى الهجوم على تركيا زعيمة العالم الاسلامى وموطن الخلافة الاسلامية آنذاك ، والهجوم كذلك على ما تتبع تركيا من ممالك إسلامية أخرى (١)

تركيا والغرب :

يشهد القرن السادس عشر الميلادى دولة إسلامية كبرى هى تركيا ، تقيم إمبراطورية اسلامية من أكبر الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ويأخذ سلطانها لقب الخليفة ومنصب الخلافة ، ويضم إليه الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وشمال إفريقيا أو أكثره ، وشهد هذا القرن تلك الامبراطورية الاسلامية القوية المتحدة تهدد أوروبا ، وتحتل منها ما يعرف الآن برومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر ، وتجعل كلا من البحر الأسود والبحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وشهد

(١) الأبحاث التى وردت فى صلب الكتاب هى نص ما احتوته الطبعة الأولى ، وقد اطلعت بعد ذلك على كتاب :

Kirk : A Short History of the Middle East.

وفى (ص ٧٦) منه ما يزيد أن الصليبيين حاولوا أن يتصلبوا بالتتار ويعتدوا معهم حلفا ضد المسلمين للفرص المشتركة ، يقول Kirk :
وعندما اكتسح التتار البلاد الاسلامية كان الصليبيون قد وصلوا الى حالة من الضعف قويت نهايتهم . وقد حدث عند ذلك ما تمثل فى عقليته الخطأ السياسية اللتوية للتعبير ، فقد تراسى لجرى السياسة فى ذلك الوقت أن يبرموا مع أولئك القوم الوحشيين تحالفا ضد المسلمين ، فأوفد البابا أنوسنت الرابع من قبله جون ديبانو John de Piano فى مهمتها السياسية الى منقوليا سنة ١٢٤٥ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أوفد لويس التاسع المعروف بالناسك وليم روبرد كوى William of Rubruquis الى بلادهم ولكن البعثتين باعتا بالفشل .

ونعود الى كلامنا فنقرر انه عندما فشل مشروع التعاون بين الصليبيين والتتار ، رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالفرص ، فنتركوا البدان لهم ، وتوقف عون أوروبا لجماعات الصليبيين .

القرن السادس عشر اسم الخلافة العثمانية وهو مصدر رعب لدى الدول الأوروبية ومبعث خوف وذعر للمسيحيين الغربيين ، وقد ذكرنا عنها لمحة من قبل •

فماذا فعل الغرب أمام هذه الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؟

يقول الأستاذ محمد حبيب أحمد (١) : تألّبت الدول الأوروبية على الخلافة الاسلامية ، واجتمعت كلمة المسيحيين على الوقوف في وجه التيار الاسلامي الجارف ، وعقدت المغاهدات وتضافرت القوى لهذا الغرض ، وكان من سوء حظ الخلافة الاسلامية أن ظهرت هذه الحركة الأوروبية في وقت كان سلاطين آل عثمان قد انغمسوا في الترف ، واستسلموا للذعة والنعيم •

وقد اتخذ الصراع ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، إذ تكوّن ضدها « حلف مقدس » من النمسا ومن بولنّدة والبنّذقية ، وكان لهذا الحلف أثر كبير في التغلب على تركيا وضعضة قوتها ، ثم دخلت روسيا باسم الدين هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه الأحداث أن هوت تركيا من شأهق وهان أمرها ، حتى أصبحت تعرف « بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض » بسرعة لولا اختلاف دول أوروبا على تركيته ، فمنّ الذي يرث بوغازي الادرنيل والبسفور ؟ إن ورثتها روسيا امقد نفوذها إلى البحر المتوسط وهددت مصالح انجلترا وفرنسا ، وإن ورثتها إنجلترا خنقت روسيا في البحر الأسود ، وحالاً لهذه المسألة اتفقت الدول على ألا تجهز على « الرجل المريض » وأن يتبقه على قيد الحياة لا حرصا عليه ، ولكن كراهة لاسيما سينجم من خلاف حول ميراثه (٢) •

(١) فحمة الشعوب الاسلامية ص ١٦ .

(٢) انظر ما كتبناه عن « المسألة الشرقية » في الجزء الخامس من موسوعة : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية .

استعمار الدول العربية :

على أنه إذا كان التنافس بين الدول المسيحية أبقى البوسفور والدرنيل في يد تركيا ، فإن هذه الدول تخلفت كثيرا عن ممتلكات « الرجل المريض » بعد أن جعلته في حالة يعجز فيها عن الدفاع عن هذه الممتلكات ، وهكذا حطم الغرب المسيحي الخلافة العثمانية ، واستولى على الأقطار العربية ، التي كانت تكوّن أبرز جزء في جسم الخلافة .

وهكذا احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ومراكش سنة ١٩١١ ، وأندت الدول لفرنسا فاحتلت لبنان سنة ١٨٦٥ .
ضمحت سوريا سنة ١٩١٨ .

• واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ .

• واحتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ .

• واحتلت إنجلترا العراق سنة ١٩١٧ ثم فلسطين عقب ذلك .

وامتد نفوذ بريطانيا كاملا إلى الحجاز حيث حالف الشريف حسين العرب ضد تركيا .

وقبل ذلك كانت بريطانيا قد سيطرت على أكثر المدن الساحلية في الجزيرة العربية وأخضعت لنفوذها وحمايتها مستعمرة عدن وسلطنة مسقط وعمان ، ومشيخات الكويت وقطر والبحرين ، وعن طريق هذا السلاح بدأت بريطانيا ، تهديد اليمن والمملكة العربية السعودية ، وقد اتخذ هذا التهديد شكلا أقوى عندما ظهر البترول في المملكة السعودية فاحتلت بريطانيا واحة اليريمى ، إذ كرهت أن تجاورها دولة تهدد نفوذها في هذه البقاع .

ولم يكن سقوط أكثر الدول العربية في أيدي بريطانيا وفرنسا مصادفة ، ولا كان بسبب الحرب العالمية الأولى التي هزمت فيها تركيا مع ألمانيا ، وإنما كان ذلك خطة مرسومة ، وسياسة موضوعة ، اتفقت عليها

الدولتان ، ففي سنة ١٩٠٤ عقدت الدولتان اتفاقا سرىا يطلق يد فرنسا في الشمال الأفريقي وفي سورية ولبنان ، مقابل إطلاق يد إنجلترا في مصر وفلسطين .

ولكن هذا كله لم يضع حدا لعدوان الغرب على تركيا ، ويرى كثير من الباحثين أن من الأسباب الهامة التي دفعت مصطفى كمال إلى إلغاء الخلافة ، أن أوروبا المسيحية واصلت هجومها على تركيا وكانت ترى في لقب الخلافة رابطة يمكن أن تجدد قوة الشعوب الاسلامية وتعاونها ، فأر هقت تركيا هجوما وإيذانا ، ولم تكف عن تركيا حتى ألغت الخلافة ، وألغت المدارس والمؤسسات الدينية ، ثم رفعت من دستورها النص على أن « دين الدولة هو الاسلام » وعندئذ فقط بدأت تركيا تأمن شر العدوان المسيحي .

أما البلاد الاسلامية التي وقعت تحت سلطان المسيحيين الأوربيين فقد عانت ضروبا من الهوان ، مزق هؤلاء شملها وأنزلوا بها السذل والاستعباد ، ونشروا الجهل والخرافات وسلبوا مواردها ، وتركوا الشعوب فقيرة جائعة ، ولقى الأحرار والمفكرون أسوأ المصائر في هذا الظلام القائم ، لقوا الحتف والسجن والنفى والتشرد ، وأنفقت ثروات هذه البلاد على المبشرين الذين يحاربون الاسلام ويحسنون للناس اعتناق المسيحية .

الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بفلسطين :

ولاقت فلسطين أسوأ المصائر ، فقد أصدر الإنجليز وعد بلفور وشجعوا هجرة اليهود ، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن أسلموها لليهود لقمه ساعة ، وقد أوضحنا في كتابنا « اليهودية » والجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » ظروف المؤامرة التي طامها الانجليز باسم اليهود للقضاء على عروبة فلسطين ، وسلب القعة من العالم العربي ، لتكون مركزا استعماريًا في الحزام الاستراتيجي الذي يقيضه الغرب على الكرة الأرضية . . .

تحرر العرب يفزح الغرب :

واستطاعت الدول الإسلامية أن تحصل على استقلالها بعد كفاح مرير ، ولكن عدوان المسيحيين الغربيين لا يزال قائما على أشده يتلمس السبيل للفتك بالمسلمين الوادعين ، وقد تعرضت مصر سنة ١٩٥٦ إلى حملة جديدة قوامها الحديد والنار صيها الغرب ، لا لشيء إلا لأن مصر أرادت أن يكون استقلالها كاملا لا تشوبه شائبة (١) وتعرضت مصر كذلك لقوة الولايات المتحدة وأسلحتها عندما استطاعت أن تحقق نصراً على إسرائيل سنة ١٩٧٣ .

بريطانيا والهند :

عندما نتحدث عن اضطهاد أوربا المسيحية للمسلمين ، يعترض بعض الناس بقولهم إن الهند عانت اضطهادا طويلا من بريطانيا مع أن الأغلبية الساحقة من سكانها غير مسلمين .

نعم عانت الهند اضطهادا مريرا من بريطانيا امتد بضعة قرون ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن العداء كان موجها إلى الهند لأنها كانت مركزا إسلاميا ، لقد كانت الهند دولة أو دولا إسلامية قبل الاحتلال البريطاني ، فاتبع البريطانيون نفس السياسة المسيحية الرسومة وهي القضاء على القوى الإسلامية أيا كان مقرها ، وهكذا اجتاحت القوى البريطانية شبه القارة الهندية .

ولا استقرت القوات البريطانية في الهند ظهرت الجماعة الهندوكية التي لم تعتنق الإسلام ، وحينئذ اتجه التدمير الاستعماري إلى مسلمي الهند أكثر من غيرهم ، وهنا نترك الكلمة إلى كاتب (إنجليزى) هو السير وايام هانتز Sir William Hunter الذي كتب يحذر الإنجليز نتائج السياسة الحمقاء التي اتبعوها ضد مسلمي الهند ، قال :

(١) كتبت هذه السطور في أثناء أزمة قناة السويس وحملة إنجلترا

وغرنا واسرائيل على بورسعيد في نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

« ولقد عاش ملايين المسلمين في الهند بعد سقوط دولة التول في
تعاسة وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأمالهم وقوتهم ، وكنوا يتبعون
عن الإدارة والنائب اللهم إلا المركز التعاقبة .

« وإنه لن يجدينا نقما أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من
أن المسلمين الهنود لهم الحق في مقاضاتنا عن الأمور الخطيرة التي
ارتكبتها ضدهم ، والتي لم ترتكبا حكومة من الحكومات ، إنهم يقاضوننا
عن إغلاق كل حياة كريمة في وجوه الأعلام منهم . ويقاضوننا كذلك عن
نظام التعليم الذي يجعل معظم مجتمعهم في حضيض الثقافة واليأس ،
ويقاضوننا أخيرا عن عدم المساهمة الفعالة في : أنية التعليم الخاص بهم . »

وكان الهنوس كلما مسهم شيء من جور المستعمر وعسفه يزداد
سخطا على المسلمين ، مقررين الحقيقة الواجة وهي أن الاستعمار لم ينزل
بلادهم إلا متبعا للإسلام والمسلمين ، وأنه لولا وجود المسلمين في الهند
لا لانت الهند من بريطانيا ما قاسته من عنق وإرهاق .

ويقول الأستاذ محمد حبيب أحمد (١) : واستطاعت السياسة
البريطانية أن تستغل الظروف المحلية فتوسع الهوة بين قسمي الهند
الرئيسيين : الهنوس والمسلمين ، وقد استغل البريطانيون سياستهم في
الهند باضطهاد المسلمين ، إذ أنهم كانوا سادة البلاد ، الذين نظموا
المقاومة التي انتهت بثورة سنة ١٨٥٧ وهم الذين نشروا الدعاية الحادة
ضد الاحتلال البريطاني لبلادهم .

وقد تمكنت في الهند نفس السياسة التي تمكنت في دول الشرق
الأوسط : تمزيق البلاد إلى إمارات وأقاليم ، ونشر الجهل والخرافات ،
وكانت الهند كما يقول المؤرخون حرة التاج البريطاني ، ولكن سكان هذه

البرقة كانوا يعانون الجوع والحرمان لتتبعياً للتاج البريطاني ألوان الرخاء
والترف •

يقول الدكتور عمر فروخ تحت عنوان تراث الاستعمار (١) :

المستعمر لا يريد أن يعلم أبناء البلاد الخاضعة له ، وإذا اضطرت
إلى أن يعلمهم علمهم ما يضرهم أكثر مما ينفعهم ، من أجل ذلك لا نستغرب
إذا علمنا أن الإنجليز لما غادروا الهند كان عدد الأميين ٨٨٪ من مجموع
أربعمائة مليون نفس ، أما ماعدا الأميين وهم ١٢٪ من السكان فكان
منهم ٢٪ تعلموا شيئاً من اللغة الإنجليزية ، وأما العشرة في المائة فلم تكن
ثقافتهم تتعدى قراءة شيء في لغاتهم المحلية ، أما تعليم البنات فلم تتجاوز
اثنيتين في الألف ، وحتى هؤلاء كان نصيبهن من التعليم ضئيلاً •

هولندا وإندونيسيا :

كان الأستاذ إحسان عبد القدوس أحد الصحفيين المصريين الذين
رافقوا جمال عبد الناصر في رحلته لمؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ •
وقد كتب الأستاذ إحسان في المجلة التي يرأس تحريرها مقالا عنوانه
« جنة المساكين » والعنوان قوى الدلالة على ما يحويه المقال ، ثم أتيح
لـى أن أعيش في إندونيسيا أستاذا للدراسات الإسلامية واللغة العربية
بالجامعة الإسلامية الحكومية ، ومديرا للمركز الثقافي العربي بجاكرتا •
وهكذا عشت بنفسى في الجنة • وعشت بنفسى مع المساكين ، وأنا أكتب
هذه السطور في أحضان هذه الجنة الورافة وبين أكتاف هؤلاء المساكين •

أما الجنة أو إندونيسيا فقد منحها الله وأصفت عليها الطبيعة جمالا
شاملا يعجز البلغاء والفنانون عن تصويره ، وكنت في الحقيقة أحسب قلمي
يستجيب لى ، ولكنه عند وصف الطبيعة في إندونيسيا لا يستجيب أو

لا يوفى بما يلزم أن يقوم به : جلست مرة مع بعض رفاقي في أحد الجبال الشامخة بين المناظر الرائعة ، وأصوات الطيور المعردة ، وأمامنا مرتفع خلاب تتبع من بين صخوره المياه ، ثم تنحدر من أعلى فتكون سلالا بديع المنظر ، وتنساب هذه المياه الباردة النقية بين الحشائش والزهور والأشجار محدثة صرقتا أعذب من الموسيقى ، قال لي أحد الرفاق : هل تستطيع أن تصف هذا المنظر ؟ وأجيبته بسؤال آخر يحمل جواب من أعيان الجواب ، قلت متطلعا الى السماء : يارب ، كيف تكون جنة الخلد ؟

وليس مثل هذا المكان نادرا في إندونيسيا ، بل إنه ليس قليلا ، إنه حولك أنى تعيش في هذه البلاد ، فالجبال الخضراء منتشرة في طول البلاد وعرضها ، بحيث تتمتع كل مدينة بجبل يهرع إليه سكانها من حين إلى آخر كما يلجأ المصريون الى احضان البحر في شهور الصيف ، لا ، إن الشارع الذي نعيش فيه ليس بعيد الشبه عن الجبال ، وحديقة المنزل تحفة خلقتها الطبيعة ، والقريّة الصغيرة الوداعة لا تعرفها بمنزلها ومبانيها ، وإنما تعرفها بالأشجار الباسقة التي اختبأت بينها الدور وتوارت خلفها البيوت .

وليس في إندونيسيا صيف ولا شتاء ، ولكنه ربيع دائم طول العام ، ربيع بنسيمه وأزهاره وجوه الذي لا تشكو فيه حرا ولا تحتاج فيه إلى دفء ، وكنت مرة في بلدة صولو واشتدت الحرارة قليلا ، فدعاني مضيقي إلى الذهاب الى بيته في الجبل (توانج مانجو) فلبيت الدعوة ، وركبنا السيارة الى الجبل ، وبدأت الحرارة تنقل رويدا رويدا والسيارة بتسلق هذا الجبل الشامخ ، وبعد رحلة لم تتجاوز ساعة واحدة ألفتني أقشع من البرد ، وتوشك أسناني أن تصطلك ، فأشعل مضيقي لنا النار .

قلت لمضيقي : تنتقلني من الصيف الى الشتاء في ساعة واحدة .

قال مضيقي : هل تحب أن تعود للصيف ؟

قلت : لا ، ولكني أرجوك أن تشتري لأم منزلًا في منتصف الطريق

والذي لا يبعد عن منزلي يمتد في الريف .

وتشتر الفواكه في اندونيسيا كثيرا نسامله ، وتوجد جودة نادرة ، أما
سماها فمنخفضة بحيث أنها في متناول الفقير والغنى ، وفي اندونيسيا أنواع
من الفاكهة لم أرها في غيرها من البلدان على كثرة ما زرت من أقطار ،
وهناك فاكهة يمكن أن يقال أنها مشاع بين الراغبين أيا كان مالكا الحقيقي
نفى حديقة منزلا بجوكجا شجرة جوافة ، وطالما تسلقها أبناء جيراننا على
مرأى ومسمع منا ، ليأخذوا من ثمارها ، وكانت هذه سياسة متبعة مع
كثير من الأشجار المماثلة في حدائق البيوت المجاورة ؟

لست أحب أن استأثر بالأمير عن هذه اللجنة فللحديث عنها
قال آخر في الجزء الثاني من « تاريخ الإسلام والمسلمين »
« الإسلامية » ، حيث نقده من اندونيسيا من الدول الإسلامية غير
البرية ، فنزاع القلم الآن من القميص عن اللجنة ، لأنكم كلمة قصيرة
عن المساكين .

يرى الرأي ملايين البشر في بعض الصحاري القاحلة والبلدان
الفقيرة ، مستخدم القافة وأصنافهم العجوز ، فلا يجب إلا أن لمأهم ،
ذلك لأن الطبيعة عولهم تادبة في بيوتها أو نهب ، ولكن الذهب تملأ
الإنسان حينما يرى اندونيسيا تزدحم بالمسكين بين هذه الثمرات التي
تنهل من المعدن والمعادن التي تنمو في جوف الأرض ، والزرع والثمار
التي تنطلي سطحا ، واللآلئ ، والأحجار التي تنثر في البساتين العسيرة بها .
لو كان في اندونيسيا ذلك البرد القارس الذي تشهده أغلب دول العالم في
الشتاء لهلك من هذا البرد آلاف الأندونيسيين الذين لا يستطيعون الحصول
على لباس يقيهم وطأة البرد أو فسيفسهم دفء يلجئون إليه من زمهرير
الشتاء . ولكنه الاحتلال في كل زمان ومكان ، يضن للمفعل العيش الهنيء
ويفرض على أصحاب البلاد البرص والحمران .

رقصة التانغو اندونيسيا تونيل ارتباطا واضحا بزيادة انتشار
الرقص في بلادها ، فمن الواضح في هذا الرقص أن الرقص الإسلامي

في اندونيسيا وبين انتشاره فيها ، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع كان غامضا حتى عهد قريب فان الدراسات الحديثة التي قمت بها وقام بها غيرى من الباحثين قد وضعت أمامنا ضوءا كافيا أنار لى السبيل عندما تحدثت عن اندونيسيا في المرجع الذى أشرت اليه آنفا ، وليس هنا مجال تفصيل موضوع دخول الاسلام اندونيسيا وتطوره بها وانتشاره فيها ، لكنى أكتفى بأن أقرر: أنه عندما بدأ الاسلام يطبع إندونيسيا بطابعه ، وعند ما أصبح من الممكن أن نعد إندونيسيا دولة اسلامية سارع الاستعمار المسيحى الغربى فامتد لها ، وكان ذلك في أخريات القرن السادس عشر ، ولمطلع القرن السابع عشر .

وكانت هناك منافسه بين هولندا وبريطانيا على احتلال هذه البقاع التى تشمل جزر اندونيسيا وتشمل كذلك شبه جزيرة الملايو التى لا تختلف عن اندونيسيا في طبيعتها ولا في ظروف انتشار الاسلام بها ، ولكن الخلاف بين هولندا وبريطانيا حُسمَ على النحو الذى حُسمَ به الخلاف بين بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بالتنافس في السيطرة على دول الشرق الأوسط ، ففي سنة ١٨١٦ اتفقت الحكومتان على حسم النزاع بينهما بتحديد الاختصاص وتوزيع مناطق النفوذ ، فأخذت بريطانيا شبه جزيرة الملايو ، وأخذت هولندا الجزر الأندونيسية ، وكان ذلك غنما للدولتين ، فإن هولندا سعدت بتفردا بحكم هذه الجزر الغنية كما سعدت انجلترا بتفردا بحكم شبه جزيرة الملايو حيث أتاح لها ذلك أن تسيطر على مضيق « ملقا » مفتاح الشرق الأقصى .

واستمر بعد ذلك تعاون الدول المسيحية ضد اندونيسيا ، فكلما قامت فيها حركة استقلالية تجمعت قوى الدول الأوروبية وبخاصة انجلترا وفرنسا لإخمادها ، ومن أهم حركات التحرير التى اشتعلت في اندونيسيا أثناء الحركة التى هبت سنة ١٩٢٦ يؤيدها إضراب واسع واضطرابات عديدة زلزلت أقدام المستعمر ، ولكن النجدة سرعان ما جاءت من انجلترا وفرنسا فأحبطت محاولة المواطنين لنيل حريتهم .

وفي الحرب العالمية الثانية زحفت اليابان على إندونيسيا ففرت من وجهها القوات الهولندية ، وبخاصة أن دول أوربا كانت مشغولة في صراعها مع ألمانيا فلم تستطع أن تقدم لهولندا أي عون ، وبالتالي لم تستطع هولندا أن تتف وحدها .

وهزمت اليابان واستسلمت ، ولكن الدول المسيحية فرضت عليها ألا تسلم إندونيسيا للوطنيين ، ولم ينتظر الوطنيون أن تسامهم اليابان بلادهم ، بل عمدوا إلى أن يأخذوها بجهادهم ودمائهم ، وأعلن زعيما إندونيسيا « سوكارنو » و « حتى » استقلال بلادهم في ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وهنا نترك الكلمة للأستاذ المؤرخ محمد حبيب أحمد الذي يقول : ولكن دولة الاستعمار الأولى في العالم — زهي بريطانيا — ام تقبل الأمر الواقع ، ونصبت نفسها ، وجندت جهودها للوقوف في وجه الحركة الاستقلالية في البلاد . . . وفي ٢٦ سبتمبر تحركت قطع من الأسطول البريطاني من سنغافورة وقصدت إندونيسيا بحجة تجريد اليابانيين من السلاح ، ولكن سرعان ما ظهر الغرض الحقيقي من الحملة وهو تمكين القوات الهولندية من دخول البلاد ، ولما هاج الإندونيسيون لذلك هددت بريطانيا بضره مدينة سورابايا ثانية المدن الإندونيسية بقنابل الأسطول إذا لم يسلم الإندونيسيون أسلحتهم ويتركوا للهولنديين حرية النزول ، ولما لم يقبل الوطنيون الإنذار تحولت سورابايا إلى جحيم ملتهب (١) .

وكتب للوطنيين النصر بعد صراع مرير وفيض من الدماء ، أسهت فيه جزيرة كليمنتان وحدها بأربعين ألف قتيل في معركة واحدة من المجازر التي قام بها المستعمرون سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه الآلاف ماتت لتحميا الملايين ، إذ أدركت الدول الأوروبية ألا مناص لها من الاستسلام أمام بسالة الشعب الإندونيسي ، وتأييد الدول الإسلامية وشعبها ، غير أن الدول المسيحية حين خضعت وسلمت الدار لأصحابها ، عمدت إلى

(١) نهضة الشعوب العربية ص ٤١٩ — ٤٢١ .

مفتاح فأبقتة في يدها ، أو قل عمدت إلى زاوية من البيت واستقرت فيها
أهلة أملا فرجو أن يتلاشى ، وتلك الزاوية هي إيربان الغربية التي لا تزال
في يد هولندا ، وشمال كليمنتان وتحتله بريطانيا (١) .

وقد قامت بريطانيا بنفس هذا التصرف في الملايو ، فعندما اضطرت
إلى منحها الاستقلال اقتطعت ميناء سنغافورة ، وأبقت لنفسها السيطرة
عليه ، وقد انضمت سنغافوة بعد ذلك إلى اتحاد (ماليزيا) ثم استقلت
عنه (١٩٦٦) وكونت جمهورية سنغافورة .

أما سيرة هولندا في سياسة إندونيسيا فيلخصها الأستاذ حبيب بقوله :

ولجأت هولندا في سياسة إندونيسيا إلى الضغط والإرهاب والكتب
واتخذت من التعليم ، وفي ركابه التبشير ، وسيلة لفتنة البلاد ، وظلت أن
الأمر قد يستتب لها بتخريج جيل أو أجيال من الشباب المفتون عن دينه ،
المبعد عن فهم قوميته ، ولكن حساب الاستعمار قد أخطأ (٢) .

فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا :

هناك ظروف متشابهة أحاطت بكل من فارس وأفغانستان ، وجعلت
الحديث عنهما يمكن أن يجري تحت عنوان واحد ، وقد نشأت هذه
الظروف المتشابهة بسبب موقع البلدين ، فييران تتصل من ناحية الشمال
بروسيا وتتصل من ناحية الشرق بالهند (الباكستان الغربية الآن) وكانت
بريطانيا إلى عهد قريب تحتل الهند ، فكانت روسيا تخشى أن يمتد سلطان
بريطانيا من الهند إلى ايران ، فتتقف بريطانيا وجها لوجه أمام روسيا
تهدد مصالحها وحدودها ، ومن جهة أخرى كانت بريطانيا تخشى أن يمتد

(١) انتهت مشكلة ايران الغربية وتسلمتها إندونيسيا في ابريل سنة
١٩٦٢ ، وتحرر شمال كليمنتان من النفوذ البريطاني ، واندمج في اتحاد الملايو
الكبير (ماليزيا) ثم تحرر الجزء الذي بقى مع بريطانيا ، وأعلن استقلاله في
الثمانينات باسم « دولة بروناي » .
(٢) ههذه الشعوب الإسلامية ص ٤١٤ .

الخطر روسي عبر إيران إلى الهند ، تلك التي كانت ألمع درة في التاج البريطاني .

وقبل أن تزول هذه الدرة من التاج البريطاني ، ومُجِدَّ في إيران نفسها مطمع انجليزي جعل حرص بريطانيا عليها مستمرا على الرغم من استقلال الهند ، وذلك المطمع هو حقول البترول التي تديرها الشركات الانجليزية .

ولأفغانستان موقع مماثل إن لم يكن أشد قسوة ، وذلك لطول الحدود الشمالية بين أفغانستان وروسيا وطول الحدود الشرقية بينها وبين الهند . ولعل فزع بريطانيا من أفغانستان كان أشد من فزعها من إيران ، ذلك لأن هناك بعض القبائل الاسلامية تسكن في الشمال الغربي من الهند ، وتربطها بالأفغان روابط قوية ، وكانت إنجلترا تخشى أن تتحالف هذه العناصر الاسلامية على غزو الهند ، وبخاصة أن لأفغانستان سابقة في السيطرة على الهند أيام السلطان محمود الغزنوي .

هل كان خيرا أو شرا أن وقعت فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا ؟

الاجابة حاسمة فتوقع دولة صغيرة سلمة بين دولتين كبيرتين مسيحيتين (روسيا القيصرية وبريطانيا) وكل منهما عكوسة للدول الاسلامية وشديدة الحرص على مصالحها الخاصة ، كل هذا يبين لنا عدم الاستقرار وروح الفزع والخوف التي سيطرت على الدولتين المسيحيتين ، ولم تقف المسألة عند روح الفزع ، بل تعدتها في ظروف كثيرة إلى استباكات حربية واقتحام حدود الدولتين الاسلاميتين مما يبين أن وقوع هاتين الدولتين بين عدوتين قويتين كان الى جانب الشر أقرب ، على أن روسيا وبريطانيا كانتا أحيانا تجدان حلا يرضى الروح الاستعمارية فيهما ويحول في الوقت نفسه دون حدة العداء بينهما ، فهما تارة تقفان النفوذ في

إيران على النحو الذى سقناه عند الحديث عن الشرق الأوسط وعن
إندونيسيا والملايو ، وتارة تقسمان رقعة إيران •

ومن اقتسام النفوذ تلك المعاهدة السرية التى أبرمت سنة ١٩٠٧ بين
روسيا وبريطانيا ، وفيها وافقت الدولتان على أن يكون النفوذ فى شمالي
إيران للروس وفى الجنوب لبريطانيا ، ومن صور الاحتلال ما حدث فى
الحربين العالميتين الأولى والثانية من نزوات القوات البريطانية فى جنوب
إيران والروسية فى شمالها ، وهذا يؤكد المتاعب التى عانتها كل من
الدولتين الإسلاميتين وبخاصة إيران بسبب موقعهما الجغرافى •

اللايدنية الروسية وأثرها :

وقد اتجه الاتحاد السوفيتى الى اللايدنية منذ سنة ١٩١٧ ولكن
ذلك لم يخفف صراع هذه البلاد للإسلام ، بل ربما ضاعفه ، لأن الإسلام
هو القوة الوحيدة التى تهز أركان اللايدنية •

ومع اللايدنية اقتحم الاتحاد السوفيتى بلادا غالية على المسلمين
جميعا هى « أفغانستان » فى ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، وكان الاتحاد السوفيتى
قد أقام بأفغانستان حكومات موالية له ، أراق بواسطتها دماء الآلاف من
المسلمين الأبرياء ، ولم يقنع الاتحاد السوفيتى بالحكومات الموالية له ، بل
اقتحم البلاد وسيطر عليها فأثار ثائرة المسلمين فى كل مكان ، وقامت حركات
مقاومة نرجو لها كل توفيق ، وقد شرحنا ذلك بإفاضة فى الجزء الثامن من
موسوعة التاريخ الإسلامى •

الصهيونية (إسرائيل)

وأقسى الطعنات التي قام بها الغرب المسيحي ضد المسلمين هو زرع إسرائيل في قلب العالم العربي والإسلامي فقد عاش الغرب مَدَدًا طويلة أو قصيرة محتلا لبعض المناطق بالشرق ، ولم يكن الشرق مكانا هادئا للغرب ، فلم يجد الأوروبيون راحة في المناطق الاسلامية على الاطلاق ، ومن أجل هذا ، وبسبب المقاومة المستمرة ، وبسبب الضغط العالمي كان الغرب يمان دائما أنه سيجلو عن البلاد ، بجلا فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، أي بعد أن ظهر في أفق السياسة العالمية الدولتان العظيمتان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، فما كان لأنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال أن تستمر العالم أمام هذين العملاقين ، فالذئاب لا تمرح في الغابة اذا وجدت الأسود .

ولا كان الغرب يوقن أن يوم جلالته سيجيء ، فقد فكر في بديل للاستعمار ، وإلى أن يكون البديل مقيما بالمنطقة إقامة دائمة ، واهتدى تفكير الغرب إلى خلق إسرائيل بهذه المنطقة متفخذاً من أكاذيب التريخ وسهولة لتفكيره (١) .

وقد كانت الخلافات حادة ولا تزال كذلك بين الشرق ومثلا في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية ، وبين الغرب ومثلا في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، وتزداد الخلافات أحيانا حتى تهدد السلام العالمي .

ولكن هناك نقطة التقى فيها الشرق والغرب وتعاونوا أعمق التعاون ليكيدا للإسلام والمسلمين ، تلك هي زرع إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط ، وانتشار مكان خطم لها كترتبط حدودها مع مصر وسوريا ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ، واهتمام

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب اليهودية للوثق من الأروا بعدما
من الطبعة السادسة .

الشرق والغرب بسلامة اسرائيل يبلغ أقصى المدى ، وتتجه الولايات المتحدة في ذلك الى درجة المبالغة ، كأن العالم كله في كفة واسرائيل وحدها في كفة ، ورجحان كفة اسرائيل في الاقتصاد والمعدات الحربية والتعاون الثقافي والعسكري يعد سياسة عامة للولايات المتحدة حتى اذا كان ذلك سيعود بالضرر على مصالح الولايات المتحدة نفسها •

وقد كان من الممكن اختيار مكان آخر لليهود ليعيشوا فيه ويحكموه ، ويكون ذلك مثلاً في أستراليا أو نيوزيلاندا أو بعض مناطق افريقية ، ولا شك أن ذلك كان مصلحة اليهود كالدول التي تعيش الآن بهذه المناطق بعيداً عن الصراع والحرب ، ولكن الغرب أم يكن يرضى بمصالح اليهود إنما كان يهجمه ضرب الشرق الاسلامى بوضع هذا البلاء في قلبه ، واعتقادي أن ذلك نكاية بالمسلمين واليهود جميعاً •

ومن الواضح أن اسرائيل تلعب دورها في خدمة الغرب بكل إخلاص فهي مصدر قلق وارهاق للمال والشعور والانسان ، وبسببها تتجه الجهود في المنطقة للاستعدادات الحربية ربما أكثر من الاتجاه لترقية الانسان ولكن الحق أن اليهود أيضا ضحية وأن لهم يدركوا الآن هذه الحقيقة ، ولا شك أن اسرائيل ليست أقوى من الصليبيين ، وسيجىء يوم تختفى فيه اسرائيل من هذه المنطقة كما اختفت امارات الصليبيين •



وهكذا كانت الشعوب الاسلامية جميعاً ، ولا يزال بعضها حتى الآن هدفا لهجمات قاسية من أوروبا المسيحية ، هجمات بربرية كانت ترمى الى التشفى والتكيل والتدمير ، هجمات أسرفت في إسالة الدم ، ونهش اللحم وتشميم العظام •

ثالثا : عوامل ينسبها بعض الناس للدين

والدين منها براء

نسبت بعض عوامل التخلف للدين والدين منها براء ، ان صلتها بالدين ترجع الى ارتباطها بالمسلمين أو بمن يعدون أنفسهم أو يعدهم بعض الناس أنهم رجال الدين ، وليس هؤلاء صورة سليمة للإسلام الدنيء .

إن الإسلام اشراقا للبشرية ، ومطلع خصم الجنس البشرى ، دين يهدى من لعنتيه بشر الدنيا والآخرة ، ولا يمكن لدين كهذا إلا أن يكون عاملا قويا من عوامل التطور والرقى ، وقد كان الإسلام كذلك في العهود الإسلامية الزاهرة ، كان غذاء روحيا ، وكان دافعا قويا للعمل والانتاج ، وفي ظله قامت ثورة إسلامية فسيحة كانت بها من قوميات المدينة ما لم تعرفه دول من قبل .

كيف إذن نسب لهذا الدين أن يكون عاملا من عوامل الضعف الذى أصاب العالم الإسلامى ؟

نعم تخلف بعض الذين ينتسبون اليه ، وفي عصور الظلام كثر عددهم ، فأخطأ كثير من الناس وظنوا أن التخلف مصدره الدين نفسه ، وكان هذا الظن انحرافا ظالما وبُعْداً نائياً عن الحقيقة ، وهذا يقودنا ان نورد بعض نماذج من الاختلاف بين الدين ومن يدعون أنهم أتباعه .

بين الشورى والديكتاتورية :

ذكرنا من قبل أن الإسلام قدم الشورى منحة للمجتمع البشرى ، ولم يكن للبشرية عهد بالشورى من قبل ، وانطلقت الشورى لتكون أسلوب حياة عند دول مختلفة اقتبسها من الإسلام ، وبينما كان الناس يقتبسون الشورى من الفكر الإسلامى ويمتسكون بها كان العالم الإسلامى يتخلى

عنها ، وظهر في العالم الاسلامى رؤساء وقادة يدينون بالديكتاتورية العنيفة التى تقتل المواهب والآمال ، وعندما غمر هذا النوع من السياسة أكثر دول العالم الاسلامى ظن الناس أن الاسلام هو مصدر هذا الاتجاه ، والاسلام برىء من الديكتاتورية والاستبداد .

العدالة الاجتماعية والفروق الاقتصادية الجادة :

وضع الاسلام نظاما اقتصاديا رائعا واجه به المشكلة الاقتصادية وقد أوجزناه من قبل (١) وهو يحمى ثراء الغنى ويحدد مصادره ، ويمنع حرمان الفقراء ، وتلك مواجهة عظيمة لهذه المشكلة التى حيرت الناس عبر القرون ، ولكن سرعان ما تخلى المسلمون عن هذا الاتجاه ، فحصل الكثيرون على المال من طرق مشبوهة أو محرمة ، وعانى الفقراء الجوع والحاجة ، ومرة أخرى ظن بعض الناس أن هذه الحالة ناشئة عن الاسلام ، وهى في الحق ناشئة عن اهمال تعاليم الاسلام .

رسول زاهد ورؤساء جشعون :

وكان الرسول عليه السلام مثالا في الزهد واحتقار الدنيا ، وهذا جذب له الناس لتأكدهم أنه لا يعمل لنفسه ، وقد وصل زهده الى غاية بعيدة تقررهما زوجته السيدة عائشة عندما تقول : « إن الرسول لم يشبع قط ، وكان طعامنا التمر والماء ، وتمر الشهور أحيانا ولا نوقد ببيت الرسول نار لطهو الطعام » وكان زهده في المسكن كزهده في الطعام ، وعندما مات لم يترك عقارا ولا ثراء .

ابن هذا مما فعله كثير من الرؤساء المسلمين على مر التاريخ ؟ أن أكثرهم اتجه للمال بِنَهَمٍ شديد ، وكثيرون منهم دخلوا الحكم وهم فقراء ، ولم تمض الا سنوات قلائل حتى تكدست الثروات في أيديهم .

(١) انظر حديثا مفصلا عنه في كتاب « الاقتصاد في الفكر الاسلامى »

التطور والجهود :

روى سلمة بن الأشجع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في عام من الأعوام عن الأضحية : من ضحكى منكم فلا يصبر مني بعد ثالثاً ، في بيته من الأضحية شيء ، قال سلمة : فأكلنا وثمة دقنا حتى ننفذ أمر النبي رسول .

فلما كان العام الثاني سألنا الرسول : أنفعل بالأضاحي كما فعلنا في العام الماضي فأجاب : لا ، كلوا وتصدقوا وادخروا ، فان العام الفائت كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا على الجهد .

ذلك تطور محمود واستجابة لحاجات العصر وظروف الناس ، وقد سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح على هذا النهج .

وبجاء عصر توقف أكثر العلماء عن التفكير في مصالح الناس ، لا عن عجز فقط ولكن عن ملق أحيانا ليتظاهروا بالورع ، أو عن محاولة لنيل وظيفة أو مركز يخشى ألا يتحقق إن ببجدد ويجهتد ، ومن أمثلة ما جد في العصر الحديث عن مهامات النبوك والإيداع بها وما يسمى شهادات الاستثمار ، فقد توقف أكثر العلماء عن التفكير ، واستسهلوا القول بأنها ربا محرمة ، مع أن مجموعة من علماء المسلمين قالوا بحلها .

للاجتهاد حرمة :

في الحديث الشريف : إذا اجتهد القاضي وأصاب فله أجران وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . وعلى هذا فالاجتهاد على أسس سليمة يضمن دائما الثواب من الله كفاء جهده ومحاولته للوصول الى الحقيقة .

ويذكر التاريخ مثالا ذكرناه من قبل هو أن رجلا جاء يشكو الي عمر من أمر خلال خلافة عمر ، فأحاله عمر الي علي بن أبي طالب ، وقضى على في المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص من قرآن أو حديث يعتمد عليه ، وبعد

فترة التقى الرجل بعمر ، فسأله عمر : بماذا قضى على ؟ فأجابه الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذى قضيت ، لقضيت بكذا •

وكان رأى عمر فى صالح الرجل ، فصاح الرجل به : وما يمنعك والأمر لك ؟ فقال عمر : وكيف أعرف أن رأى أفضل من رأى على ، لو كنت أردك الى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك للرأى والرأى مشترك •

ولم يغير عمر من الحكم الذى قضى به على وقد ذكرنا هذه القصة من قبل •

وفى ضوء هذا ومجذت المذاهب الفقهية لاختلاف الاجتهاد ، ولكن فى العصور المتأخرة كان كل شخص تقريبا يرى أن رأيه هو الصواب وما سواه خطأ ، وربما هاجم سواه كأنما كان العلم عنده وحده •

وسنعطى مزيدا من التفصيل لما أوجزناه آنفا فى الدراسات التالية :

الاسلام دين كل زمان ومكان :

من القواعد المقررة أن الاسلام دين كل زمان ومكان ، ولكن من القواعد المقررة عقلا أن الاسلام لا يمكن أن يكون كذلك الا اذا تطور وعالج مشكلات الناس لتتناسب حياتهم فى كل زمان ومكان فى حدود تعاليمه التى رسمها القرآن الكريم ، وفى حدود الإطار الذى يصور خلق المسلم ومبادئ الاسلام ، وليس هذا الاطار مجهولا ولا هذه الحدود مبهمه ، وقد بينها العلماء بيانا شافيا كافيا ، انها التوحيد المطلق وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع وللعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العباد •

والدين الاسلامى يحترم العقل ويدعو للانتفاع به وقد صور القرآن الكريم ذلك أجمل تصوير ، قال تعالى :

— أفلا يعقلون (١) •

— كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون (٢) •

— إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٣) •

— إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤) •

— لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم

آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل (٥) •

والدين الاسلامي دين الدنيا والآخرة كما سبق القول ، إنه رسالة روحانية ، ورسالة مدنية دنيوية ، شمل الحديث عن الإله ، والجنة والنار ، والبعث والصراف والميزان • كما شمل البيوع والإجازة والرهن والزواج والطلاق والميراث وغيرها ، فاذا ضعف العقل عن إدراك بعض السمعيات لقصور فيه ، أو لبعده هذه الأشياء عن دائرته ، فإنه لن يضعف عن إدراك حاجاته الحيوية الدنيوية ، ومعرفة ما ينفع منها وما يضر •

ومن المقرر أن حاجات الناس تختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان فوجب أن تتلون المعاملات والنظم لتناسب هذه الظروف المختلفة ، فإن لم تتناسب النظم مع حاجات الناس هجرها الناس وهرعوا إلى سواها • وقد سأل أبو حيان التريحيدي مسكويه قائلاً : هل الأحكام الشرعية متفقة مع مصالح العباد لا تخرج عنها ؟ فأجاب مسكويه : « نعم وبخاصة في المعاملات ، فاذا تبيّن أن نوعاً من المعاملات لا يحقق مصلحة العباد في وقت من الأوقات أجاز الاجتهاد تفسير الحكم » ومصالح العباد كلمة تشمل المحافظة على النفس والدين والمال كما نص على ذلك الشاطبي

(١) سورة يس الآية ٦٨ •

(٢) سورة الروم الآية ٢٨ •

(٣) سورة النحل الآية ١٢ •

(٤) سورة الرعد الآية الثالثة •

(٥) سورة الاعراف الآية ١٢٩ •

في الموافقات ، وهذا واضح لكل الوضوح في المعاملات المدنية ، أما في العبادات فوجب أن نفعل ما أمر الله به إذا لم نفهم علته • أما إذا نص على الحالة فيها فإن الحكم يدور معها وجوداً وعدمًا (١) :

ذلك هو الإطار الذي رسمه الإسلام لتعاليمه ومبادئه انه — مرة أخرى — التوحيد المطلق ، وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع والمعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العباد •

وسنورد فيما بعد عرضاً تاريخياً نبين فيه كيف استجاب الإسلام لمطالب الناس ، حتى تفكّر العلماء على أنفسهم وعلى الناس الباب الذي فتحه لهم الإسلام ليحصلوا خلاله على البسطة وحل المشكلات • ولكني هنا أحب أن أبدي رأياً لي يتعلق بالمعقل والنقل قبل أن نستمر في حديثنا عن استجابة الإسلام لحاجات الناس •

اختلاف العقل والنقل :

سألني بعض علماء إندونيسيا المحافظين مرة سؤالاً هاماً ، قال : ماذا أو اختلف العقل والنقل ؟ فأيهما نتبع ، وبعد برهة وجيزة أجبت : أي عقل وأي نقل يا سيدي ؟ وخضت في شرح هذا الجواب فوضحت تفاوت العقول ، هناك عقول قاصرة وعقول موهوبة ، وما لا يفهمه هذا العقل كثيراً ما يفهمه عقل آخر ، ثم هناك أشياء لا تعتبر مخالفة للعقل . ولكن وراء حدود العقل الإنساني ، فيبدو للناظر أنها تخالف العقل ولكنها في الحقيقة لا تخالفه وإنما تفوق حدوده ، أرأيت لو حاولنا أن نشرح لطف جهاز المذياع الذي يعيش معه في البيت ويأمن به ، لا شك أن الطفل لن يستطيع فهم الشرح ، لا لأن عمل المذياع بعيد عن العقل بل لأن أسراره أعمق من أن يصل لها عقل صغير • ويحصل مثل ذلك مع عقل الرجل الذي يد بالتسمية الى شيء معقد ، فيه كثير أو قليل من الغموض كالمطائرة

(١) انظر يوم الاسلام للاستاذ احمد امين ص ٢٠٥ — ٢٠٦ •

والرادار ، بل حصل مثل هذا الى موسى عليه السلام عند ما خفيت عنه أسباب الأعمال التي قام بها الخضر ، إذ كسار الخضر قد منحه الله علما ورشدا لم ينفدهما موسى ، قال تعالى « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعليناها من لدنا علما » ، قال له موسى : هل أتيتك على أن تعلمني مما علمت رشيدا ؟ قال : إنك لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ، قال : فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال : أخرجتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرأ . قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا . قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال : أمتأت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيئوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لا اتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بآويل ما لم تستطع عليه صبرا ، أما السفينة » (١) .

فهو موسى عليه السلام يتكلم بعقله العادي ، والخضر انكشفت عن عقله حجب لم تنكشفت عن موسى ، وهو يتصرف في مجال « هذا الضوء الذي تغطي الجودود العادية » .

ونحن في حياتنا الخاصة تحدث لنا أشياء لا ندرك كثيرها وربما نسخط عليها ، ثم بعد فترة طويلة أو قصيرة ندرك أنها كانت الخير لنا كل الخير .

وتوضع قضية بطروفها أمام قاض فيحكم فيها بحكم ، وترفع

نفس القضية بنفس الظروف الى قاض آخر يتبع نفس القوانين فيحكم فيها بحكم مضالف .

هذه جوانب من قصور العقول أو من اختلاف العقول فيما يحيط بنا من أحداث ، فاذا ذهبنا نستوحى هدى العقل وإرشاده في أمور أعمق ، في وجود الله مثلا ، وفي الحكمة في بعض الديانات وصورها ، وجدنا العقول أكثر اختلافا وأشد تباينا ، فهناك عقول اتجه تفكيرها اتجاهها ماديا واستطاعت أن تحقق في هذا الاتجاه تقدما كبيرا ، ولكنها تخلفت في الجانب التفكير الروحي ، إذ أن الناحية الروحية عندها ذبلت أو قنيت ، وفي أوروبا رأينا نماذج من هؤلاء يدور بالآلاف أو الملايين ، طغت عليهم المادة ، فاذا سألتهم عن الله سبحانه وإذا دعوتهم الى الله وإلى المثل العليا التي شرعها كالعبداء مع المصطفى والصديق والمساوية من اختلاف العنصر واللون لم تتل منهم إلا السخرية والاستهزاء .

وهناك صنف آخر من العقول قَوِيَّ الجانب المادي في تفكيره ، ولكن ظلت به بقية من الجانب الروحي . وهذه البقية الروحية مغلوبة على أمرها إلا إذا كثرت العوامل التي تسبب رجحانها وتفوقها ، ولعل من هؤلاء أبا سفيان بن حرب بن أمية ، فقد روى أنه جاء به الى الرسول وجيش المسلمين الزاحف من المدينة يدق أبواب مكة فقال له الرسول : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أعنى عنى شيئا (١) .

وهكذا عبد أبو سفيان الأصنام ، وحموسها ، وحارب من أجلها ، ولكنها لم تحم نفسها ، وانتصر إله المسلمين ، وانهزمت آلهة قريش . فنادى أبو سفيان من هذا الدرر أن ليس مع الله إله آخر .

وهناك صنف، ثالث من العقول تغلب الجانب الروحي فيها على الجانب المادى ، وأصحاب هذه العقول يفيضون صفاء ونقاء ، يتحدث الواحد منهم عن الله كأنه يراه ، ويقول لك بقوة وإصرار : اعتقد في الله أو اجده ، أو ابحث عن براهين تدلك عليه أو تنكره ، أما أنا فلاحت في حاجة الى براهين ، إنى أخافه كأنى أراه ، وإنى أومن به • لا بالوراثة ، ولا بتعليل منطقي كالذي كان بقوله السريع : البعرة تدل على السير ، أما قولك : من علم على الله التقدير لا اله الا الله ، فهو من الأبرار وأما هذا رأيك ، ومع ذلك فان الجانب المادى من العقول يغلب ، فنحن نضرب أحياناً على الفرق الروحية فيها ، فيحجز أصحابها عن إدراك أسرار بعض المشكلات الروحية •

وربما كان من ذلك الصنف ، صديق لى ، عاشرته وخالطته ، نفسه فيها صفاء ، وقلبه مملوء بالخير ، يخاف الله كأنه يراه ، ويناجيه مناجاة المؤمن عميق الإيمان ولا يفتأ يذكره في السراء والضراء ، يؤدى عمله على خير وجه ، ولا يعرف المال الحرام طريقه إليه ، يجب الناس ولا يننى عن مساعدتهم ، وماله ملك لمن احتاجه لا فرق بين عدو وصديق ، ندرك نحن مجموعة رفاقه أنه يجد لذة في عمل الخير ومساعدة المحتاجين ، يقسم صادقاً - فيما اعتقد - أنه لا يكره أحداً ولا أياً من الذين يكرهونه ، ثم هو مثقف واسع الثقافة ، ذكى مرهف الفكاهة ، يلمس أصدقائه فيه قوة الجانب الروحي في صلته بالله وصلاته بالناس •

تلك جوانب مشرقة من جوانب ذلك الصديق ، ولكن تلك جوانب آخر • هو - في اعتقادي - قاتم ، أنه يريد أن يستعمل عقده في كل شيء : ويريد مثلاً أن يفهم كل شيء فيما يتعلق بالعبادات ، وقد سبق أن قلنا إن الرأى في العبادات أن نعملها كما أمرنا بها ما خفيت علينا ، عليها •

حلّ رمضان وصام أناس وأفطر آخرون ، وكان صديقى من المفطرين •

سألته : كيف جاز لك أن تفتقر ولك هذا الإيمان العميق بالله
وقرآنه ورسوله ؟

أجاب : لأنني لا أفهم ضرورة الصوم .

قلت : هل تريدني أن أعلمك الرياضة الروحية ، وترجيح النفس في
صراعها مع الجسم ، والإخاء الإنساني وغير ذلك من فوائد الصوم
وأنت به عليم ؟

قال : فكرت في هذا كله ، وفي أكثر منه ، ولكني لم أقتنع بهذه
الأسباب ، إن كان الصوم شرع ليعلمني الأساس بجوع الفقير ، فأنا
مستعد أن أعطي الفقير كل مالي ، وإن تأن للرياضة الروحية ومناجاة
النفس في صراعها مع الجسم فأعتقد أن عندي من ذلك حظا لا بأس به .

قلت : الدين دين الناس جميعا ، فعلى فرض أنك تخلقت مكل ما
يدعو له الصوم ، فاني أذكرك بأن التشريع الإسلامي جاء للمسلمين
جميعا وأنت واحد من المسلمين ، بل لعك من خيارهم فليجرب عليك ما
يجري عليهم ، إذ لا يمكن أن يكون هناك تشريع لكل فرد على حدة .
أتريد أن يعنى من الصوم من اجتمعت له أهداف الصوم ؟ ويعنى من
الصلاة من اجتمعت له أهداف الصلاة ؟ لا يا صديقي هناك الجانب العام
في التكاليف ، وهو خلق وحدة بين المسلمين ، فتصوبهم معا وصلاتهم
معا . . . لها منزى سام ، وليس ذلك ولا سواه بخاف عليك : ثم إنك
يا صديقي تريد أن تستعمل عقلك في كل شيء إلا يمكنك أن يكون للصوم
سر يصعب على عقلك الوصول إليه . . . ؟

فأجاب : أنت تعرف أكثر من سؤاله خضوعي لله وإجلالي له وخوفي
منه ، ولكني لا أستطيع أن أصوم ثلاثين يوما يناد فيها ما أنتبه ،
وقد سرت عن أمم إلى الاضطراب دون أن أذوم بسببها معقولا ولا
لذلك . . . والله من يظهر عليه ، وكانما ذلك أنني أظن أن

عدم تقدير ، فثار وأقسم أنه لو آمن واعتقد أن هذه رغبة الله ولا محيص
عنها لكان مستعدا أن يصوم العام كله .

قلت : دَعْنَا من هذا الحديث فليس مثلك دينا وعقلا من يحتاج الى
مرشد ومعلم * ودارت الأيام واستقر صديقي على فطره ، ولكنه -
والحق يقال - كان مهذبا في فطره ، لا يجاهر به ولا يعرفه عنه إلا عدد
محدود جدا من الإهل والأصدقاء ، وطالما بقى اليوم كله لا يأكل لأنه
يدعى الصيام ، وإذا أكل أكل في خلوة ، بل أكثر من ذلك كان له أصدقاء
منطرون وكانوا يأكلون أمامه وهو لتظاهره بالصوم لا يشاركهم الطعام .
أشهد أنه كان مهذبا في طاعته وعصيانه إذا جاز لنا أن نصف العاصي
بالخلق المهذب .

ومر عام وعامٍ وصديقي في هذا الموضوع ضال لا يجد الهداية ،
ثم بدأت العقدة تُحل * هبت على صديقي عواصف وأعاصير ، وتراجعت
عليه أحداث جسام ، وخطوب شتى ، والأحداث والخطوب تضعف المقاومة
وترقق النفس ، وتهذب الوجدان ، كيف السبيل الى النجاة ؟ لا سبيل
إلا عون الله ، وبدأ هلاك رمضان وصديقي غارق في آلامه ، مثقل بالأشجان
والمصائب ، أراد أن يتجه الى الله يدعوه أن يكشف عنه الضر ، فحجلا
أن يتجه الى الله مفطرا والناس صائمون ، وصام صديقي أول يوم من
رمضان ونظر الله يستلهم عونه فأمدّه الله بالعون ، ونجى زورقه من غرق
أوشك أن يكون محققا ، واستمر صديقي في الصوم ، بل في صوم الأطهار
الورعين .

قلت لصديقي : أحب أن ينتفع الناس بتجربتك .

قال بقوة وإيمان : نعم ، يجب أن ينتفعوا بها .

قلت : ولماذا لم تنتفع أنت بتجارب الآخرين ؟ وهل يطول العمر
لإجراء تجارب للصوم عدة سنين ، وعدة سنين أخرى للصلاة وهكذا ؟

وطوبينا هذا الموضوع بعد أن آمن صديقى بأن العقل مهما كانت حدته وذكاؤه فهو يجهل كنه كثير من الأشياء .

ويقول الأستاذ محمد أسد المستشرق الذى أسلم : إننا اليوم لا نحتاج الى فيلسوف مثل « كَنْت » ليبرهن لنا على أن الفهم الإنسانى محدود تماما بما ينطوى عليه من وجوه الإيمان ، إن عقلنا لا يستطيع . بها رمكّب فى طبيعته . أن يحيط بفكرة الكلية ، إننا نستطيع أن نفهم من كل شىء تفاصيله فقط . إننا لا ندرى ما اللانهاية ، ولا ما الأزل ، حتى إننا لا نعلم ما الحياة (١) .

ذلك هو العقل ، فى مدى إشعاعاته وفى محيط تفكيره ، فما هو

النقل ؟

المعروف أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى ، وهو الذى حرسه الله وحفظه ، ولكن المعروف أيضا كما أوضحنا فيما سبق أن القرآن فى الغالب يدل على الأحكام التشريعية الفقهية بشكل كلى لا جزئى ، فالقرآن يأمر بالصلاة بالآية الكريمة : « وأقيموا الصلاة » (١) . دون أن يبين كمها أو كيفها ، فوضح الرسول ذلك ، غير أن الروايات لم يفسر إلا ما دعت له الحاجة ، وترك ما لم تدع الحاجة التى تفسره ليفسره العلماء فى العصور والبلدان المتلفة عند ما توجد الحاجة الى تفسيره ، كما سبق القول ثم إن دلالة النصوص القرآنية على الأحكام ليست قطعية دائما فبعض النصوص دلالتها ظنية لاحتمال النص القرآنى أكثر من تفسير واحد كقوله تعالى « حرمت عليكم الميتة » (٢) .

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة المزمل الآية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة الآية الثالثة .

في هديته ذلك فمستطيع أن نقول : إن العقل لا يختلف مع
النقل ، ويقرر ابن القيم أن العقل الصحيح دائر مع أخبار الشريعة
وجودا وعدما فلم يخبر الله بما يناقض صحيح النقل ، ولم يشرح ما
يناقض الميزان والنقل (١) فإذا بدا خلاف بينهما فمرجه قصور النقل
أو سوء تفسير النقل ، على أنه إذا كان هناك نقل قطعي للدلالة كحق الزوج في
ميراث زوجته أو الزوج في ميراث زوجها ، ووجد هناك عقل يتجه غير
هذا الاتجاه ، فالنقل هو الذي يتبع ، مرة أخرى لتصور العقل وعدم
استطاعته إدراك الحكمة التي وجهت التشريع الإسلامي .

وقد أوردنا من قبلًا صورًا بينت لنا تأويل بعض النصوص لتلائم
ما جدّ من أحداث ، وقد كان ذلك دستور عمر بن الخطاب على ما سبق
إيضاحه ، وما سيأتى له مزيد إيضاح .

ليس هناك مجال فيما أعتقد للكلام عن اختلاف العقل والنقل في
الإسلام ، وبخاصة إذا دخل عنصر الإيمان قلوبنا فأدركنا أن خالق
العقل وموجهه هو الذي شرع وأوحى بالنقل . فالمصدر واحد وهو
العزیز الحكيم ، واهب الحكمة الذي « يؤتى الحكمة من يشاء ومن
يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢) .

الإسلام وهاجيات الناس :

ولنعد بعد هذا لتعرض كيف استجاب الإسلام في عصوره الأولى
لظروف كل زمان ومكان ، ثم كيف اتجه بعض الفقهاء بالإسلام اتجاها جعل
الدين كما فهموه سببا من أسباب التدهور الذي أصاب العالم الإسلامي .

اجتهاد الرسول :

وأبرز مثال لذلك هو عمله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أن

(١) أعلام الموقعين ج٢ ص ٥٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

معاملته لسكان البدو كانت غير معاملته لسكان الحضرة ، ومعاهداته للبدويين كانت غير معاهداته للحضرين لاختلاف الثقافة واختلاف المكان .

وكان العرب في أول الاسلام قريبي عهد بالوثنية فنهاهم الرسول عن زيارة القبور . خوف أن يتخذوا من بعضها آلهة يلجئون إليها ويناجونها ، كما فعل المسلمون مع بعض الأضرحة في عصور الانحطاط ، فلما أحس الرسول بابتعاد المسلمين عن الوثنية أباح لهم زيارة القبور ، وقد جاء في الحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فالآن فزوروها » .

اجتهاد أبي بكر :

وأدرك الخلفاء الأول هذه الحقيقة فاجتهدوا في المشكلات التي عرضت لهم واقترحوا لها الحلول ، ووأموا دائما بين الدين وبين حاجات الناس والصالح العام ، أمر أبو بكر بجمع القرآن مع أن الرسول لم يأمر بجمعه ، وعندما أدرك أن الصالح العام يقضى بمحاربة الفرس والروم لما بدأ منهم من تجمّع وتحرش بالمسلمين عندما أدرك ذلك شنّ عليهم الحرب ، واجتهد أبو بكر في مسألة ما نعى الزكاة والمرتدين ومدعى النبوة فقاده اجتهاده الى ضرورة محاربتهم جميعا ففعل .

وتلك كما يبدو صور ضخمة واجتهاد في أمور خطيرة ، فما بالك بالأمر الأخرى الأقل شأنًا ، والتي كانت تقابل الناس في حياتهم وشؤونهم .

اجتهاد عمر :

على أن عمر صادف ما لم يصادفه أبو بكر إذ كانت الجزيرة العربية في عهد أبي بكر تسيطر على النمط الذي سارت عليه في عهد الرسول ، ولم تكن التفرقة قد استقرت بعد ، ولكن عمر رأى التفرقة وقد استقرت ، وشاهد حاجة الناس الى نظم جديدة تناسب هذه الدولة التي اتسعت

أطرافها وجددت بها ظروف وأحوال لم يكن للمسلمين بها عهد في زمن الرسول وزمن أبي بكر ، واجتهد عمر ، ووضع لاجتهاده دستورا سبق أن أوردناه اقتباسا من الدكتور هيكل ، وإليك موجز هذا الدستور •

كان عمريفق بين الثابت على الزمان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فهذا كان من المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه لو تغيرت الظروف ، اقتناعا بأن رسوا الله لو امتد به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه ، كما أعاد النظر في مسألة زيارة القبور •

وكان عمر لعظيم إيمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله جريئا في الاجتهاد ، وإن خالف ظاهر النص ، فاذا ورد نص لم يبق في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه • وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أو إله حريصا في هذا وفي ذاك على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفائه في الوقت نفسه مع روح التعاليم المحمدية السلمية (١) •

وقد أوردنا نماذج من اجتهاد عمر ، عند الكلام على المجتمع الاسلامى في عهدده •

وسار موكب الاجتهاد على هذا النحو يتولاه الخلفاء العلماء المعاصرون ، فلما تولى الخلافة أفراد قل حظهم من العلم تراها الاجتهاد الى العلماء ، وبرهنت العصور الأولى للاسلام على مودة الاسلام للحياة ، واستجابته لكل شئونها ، وقد مر بنا كيف أوقف عمر بعض الحدود لأسباب رآها ، وكيف اقترح نظام الخراج ومنع تقسيم الأرض على الفاتحين •

(١) انظر الفاروق عمر ج ٢ : ص ٢٠٤ ، ٢٨٢ •

ولكن العصر الاسلامى الأول كان فى الاجتهاد يمتاز بشيء هام هو محاولة إيجاد حل لمشكلات ظهرت فعلا ، دون أن يلجأ علماء هذا العصر الى الفروض أو اقتراح الأسئلة ليضعوا لها أجوبة ، وقد اشتهر عنهم هذا الأثر : لعن الله من سأل عما لم يكن •

الاجتهاد فى عصر الأئمة يصل للافتراضات :

فلما جاء عصر الأئمة فى القرن الثانى الهجرى ، سار الأئمة وتلاميذهم الأقربون على سياسة جديدة ، فقد أطلقوا لخيالهم العنان ، وبدأوا يقترحون الأسئلة ويفترضون الفروض ويضعون لها الأجوبة ، حتى افترضوا آلاف المسائل ، منها ما يمكن عقلا حدوثه • وكثير منها لا يحتفل العقل تصوره ، واتسعت هذه الفروض والاحتمالات حتى شملت أبواب الفقه جميعا ، وعلى هذا فقد ترك علماء هذا الجيل ذخيرة واسعة كأنما كانوا يقصدون أن يعفوا من سيجىء بعدهم من كثر الذهن فيما قد يعرض لهم من مشكلات •

وعلى هذا كان اجتهاد هذا الجيل بالغاً للغاية فى النشاط فهو لم يقف عند إيجاد حل لمشكلة وقعت ، ولكنه تجاوز ذلك الى افتراض مشكلات وإيجاد حلول لها •

جيل لم يجتهد إذ لم توجد حاجة للاجتهاد :

وجاء أبناء الجيل التالى فوجدوا كل شيء مدونا ، ووجدوا السابقين قد ذللوا لهم الطريق ، ففنعوا بما وجدوا ، ولم يجتهدوا ، لا كرهاً للاجتهاد بل لعدم الحاجة إليه •

الادعاء بتقليل باب الاجتهاد :

وجاء جيل بعد ذلك قلد سابقه فى عدم الاجتهاد ، غير أن هذا الجيل ، أو الى الاجتهاد نظرة مخالفة لنظرة الجيل الذى سبقه ، فالجيل الذى سبقه لم يجهدهم لعدم الحاجة الى الاجتهاد ، أما هذا الجيل

فقد أساء فهم موقف السابقين ، وظن أنهم لم يجتهدوا لأن باب الاجتهاد قد قُفِلَ ، ولم يَصُدَّ جائزاً للفقهاء أن يسلكوا غير سبيل التقليد .

وقُفِلَ باب الاجتهاد منذ ذلك الحين ، وقنع الفقهاء بتأليف الأئمة ، واشتهرت المذاهب الأربعة (مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل) وتبعها الفقهاء وتعصبوا لها ، ونسوا صور الاجتهاد التي قام بها الصحابة ، ونسوا ما قاله أصحاب المذاهب أنفسهم يبنون الناس على الاجتهاد والتفكير نسوا قول أبى حنيفة : إني آخذ بكتاب الله ، فسنة رسوله ، فاذا لم أجدهما نظرت في قول الصحابة فأخذت قول من شئت وتركت قول من شئت ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم التلعكبري والحسن وابن سيرين فلي أن أجتهد كما اجتهدوا .

ونسوا قول مالك : ليس من أهد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونسوا أن الشافعي بعد أن أملى مذهبه ببغداد ، وسار الى مصر وجد أن المكان الجديد وظروفه تستدعي تغييراً فيما دونه ببغداد ، فأملى مذهبه الجديد بمصر مع أن المدة بين المذهبين كانت حوالي خمس سنوات .

ونسوا ما قاله أحمد بن حنبل وقد سئل عن رأيه ورأى الأوزاعي في مسألة ما : لا تأخذوا بقولى ولا قول الأوزاعي ، ولكن خذوا من المعين الذى أخذنا منه ، واجتهدوا كما اجتهدنا .

ويصور أستاذنا الخضرى سريان روح التقليد بين الناس بقوله : لاشك أنه كان في كل دور من الأدوار السابقة مجتهدون ومقلدون ، فالجتهدون هم الفقهاء الذين يدرسون الكتاب والسنة ، ويكون عندهم من المقدرة ما يستتبطون به الأحكام من ظواهر النصوص أو من استقوالها ، والمقلدون هم العامة الذين لم يشتغلوا بدراسة الكتاب والسنة دراسة

توهمهم الى الاستنباط فهؤلاء كانوا اذا نزلت بهم نازلة يفرعون الى فقيه من فقهاء بلدهم يستفتونه فيما نزل بهم فيفتيهم • أما في هذا الدور فان روح التقليد سرت سريانا عاما واشترك فيها العلماء وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب والسنة اللذين هما أساس الاستنباط ، صار في هذا الدور يتلقى كتب إمام معين ، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دونه من الأحكام ، فاذا تم ذلك صار من العلماء الفقهاء ، ومنهم من تعلق به همته فيؤلف كتابا في أحكام إمامه ، إما اختصارا لمؤلف سابق ، أو شرحا له ، أو جمعا لما تفرق في كتب شتى ، ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه كأن الحق كله نزل على لسان امامه وقلبه (١) •

أصبح الأصل فرعا والفرع أصلا :

بل بلغ بهم الأمر الى أن يجعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا ، فأصبحوا يتخذون رأى الامام أصلا ، فاذا خالفته آية أو حديث فهما مؤولان أو منسوخان ، وفي ذلك يقول أبو الحسن عبد الله الكرخي : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ ، وقول الكرخي هذا يختلف تماما مع ما كان عليه الفقهاء الأول ، فقد كان الواحد منهم يبدى رأيا ثم يظهر له حديث يقضى بغير ما قضى به فيعود الى الحديث ويلغى رأيه ، وفي ذلك يقول غير واحد من الأئمة : اذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولنى عرض الحسائط •

ولعل الضعف السياسى الذى منيت به الأمة الاسلامية ، وتسلبت الأثرak والمبويهين وغيرهم من الجهلاء على هذه الأمة ، كان من الأسباب التى هيأت لضعف فكرى ، وقلقت ثقة العلماء بأنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يكونوا أحرار الفكر ، في جو من العبودية والكبت •

مشكلات بلا حلول :

ومر الزمن وزادت الحال سوءا عندما ظهرت مشكلات تتطلب الحل ، وليس لها حل فيما افترضه السابقون من فروض ، وما خطر ببالهم من احتمالات ، ووقفت هذه المشكلات الجديدة تتطلب حلا ولا من مجيب ، فقد كان جمهور الفقهاء قد وقف يهاجم الاجتهاد ويدافع عن التقليد ، وحظى التقليد بكبار الشيوخ يدينون به ويتبعونه ويتحمسون له ، ويرمون من حاول الاجتهاد أو من أقدم عليه بالكفر والزندقة على ما سيأتى .

صراع في المجتمع باسم الإسلام :

وتخطى هؤلاء الفقهاء حدودهم ، وأسرفوا في تقديرهم للتقليد واعجابهم به ودفاعهم عنه . فتراهم في عهد من العهود يعدون تعليم الجغرافية والحساب بدعة ، ولبس الزى الأوربي تشبها بالنصارى ومن تشبه بالنصارى فهو منهم ، وغير ذلك مما سيأتى بيانه في حينه ، والمهم هنا أن نذكر أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن يوجهوا الفقه الإسلامى وجهة حية ، ثم لم يستطيعوا أن يسيطروا على الناس حتى يبقى هؤلاء يتبعون الحدود التى يريدونها الفقهاء ولا يتعدونها ، بل تمرد الناس على آراء الفقهاء وساروا فى الطريق الذى دفعتهم له الحياة تاركين الفقهاء يعيشون فى عالمهم الضيق المحدود .

وهكذا بَعُد الفقه الإسلامى عن الحياة ، وبعُد الفقهاء عن الناس ، وأصبحنا نرى الفقهاء وأفكارهم فى جانب ، وغالبية المسلمين فى جانب آخر ، واتسعت هوة الخلاف بين الجانبين اتساعا كبيرا ، هؤلاء يستعملون زيباً وأولئك يستعملون زيباً آخر ، ول هؤلاء ثقافة ولأولئك ثقافة غيرها ، ول هؤلاء معاهدهم ولأولئك مدارسهم ، ول هؤلاء خطتهم فى الحياة ولأولئك خطة أخرى .

وجاء جيل جديد أصبح ينظر للفقهاء ولآرائهم واتجاهاتهم باشمئزاز قليل أو كثير ، وكأنما أحس هؤلاء الفقهاء بشذوذهم وسط المجتمع ، فلم

يريدوا لأولادهم أن يسيروا سيرتهم ، بل اتجهوا بأولادهم اتجاهات أخرى ، ولم يوجد فيهم أحد تقريبا سلك بأولاده طريق ثقافته وتعليمه . وجاءت النتيجة سيئة لهذه الخطوات ؛ فلن أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جمود الفقهاء ناشيء عن جمود في الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم في الدين ، وقل احترامهم للمتدينين .

نهضة إسلامية شاملة :

أريد هنا أن أقطع هذا الحديث الذي يهول المشركين بين أعطافه ، فمن الحق أن نذكر أن جيلنا اقتنع بالشك ، انتهى تخلفت عن الديار الماضى وأعمل الفكر فيها ، وأزلنا تأثيرها من الأسباب والأخبار الذميمة ، وكسوا الفكر الإسلامى ، وألم تترك قضية أو موضوعا إلا درسته ، فكثروا المفكرين المسلمون فكتبوا الدراسات الإسلامية من جديد ، كتبت الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق الفقه الإسلامى بكثير من النضج ، وكتب الأستاذ سيد قطب ومجمع البحوث الإسلامية تفسيرا جديدا للقرآن الكريم ، ويشرفى أنى أسهمت في هذه الحركة فكتبت التاريخ الإسلامى من مطلع الإسلام حتى الآن لجميع العالم الإسلامى في عشرة مجلدات كما كتبت الحضارة الإسلامية في عشرة مجلدات كذلك ، وكتبت مقارنة الأديان في أربعة مجلدات ، وكتبت عن « الإسلام » بأكثر من لغة .

وهناك ألوان من الدراسات الإسلامية خرجت كالزهور البائعة أو النجوم المتألقة كتبها الدكتور حسين هيكل والفتاح وسليمان وفريد وحيدى والدكتور عبد الحليم محمود ، وغيرهم من الباحثين والدارسين ، وفي هذه الجهود اجابات من كل ما يحتاجه العصر من العلم وما يواجهه من

وانتقل إلى الحديث عن الماضى لترى صورة القلوب التى كانت من أبواب العلم الإسلامى ، والله فقه بآثار العلم الإسلامى .

دراسة المادة لا الروح :

تحدثنا من قبل عن روح الاسلام ، وصورناها ، وبيئنا كيف نعم في ظلها المجتمع الاسلامي الأول ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبرزوا روح الاسلام في سموها ، وفيما تفيضه من حب ويسر ، وما تخلقه من تعاطف وتعاون ومشاركة وجدانية عميقة نافعة ، ولم يخل من روح الاسلام عمل قاموا به ، أو قول قالوه ، أو فتوى أصدروها .

ويجب هنا أن نبين أن المصير المتأخرة بعدت بعدا كبيرا عن روح الاسلام واهتمت بالجسم والمادة ، حتى أصبحت الدراسات الاسلامية دراسة لا حياة فيها ولا لذة ، وبجرت عدوى هذه الدراسات الى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها ، تعال بنا نكمل جولة قصيرة فيما كتبه هؤلاء الفقهاء وما تدارسوه .

الزكاة وتصويرها :

ولتبدأ بباب الزكاة ، أدم أبواب الفقه صلة بالفاحية الاجتماعية ، كيف يدرس الفقهاء هذا الباب ؟

إن الباحث يتوقع من الفقهاء حين يعرضون الى الحديث عن الزكاة أن يتحدثوا ولو قليلا عن هذه الفريضة الاجتماعية ، ويشرحوا بليجاز أو بإفادة نظرية الاسلام الاقتصادية ، ووجوب التعاون بين المسلمين حتى لا يكون فيهم متختم الشبَّح وشاك من الجوع ، ويبيئوا ما بينه الباحث من المحدثون من أن المال ، والمرص عليه ، والاستكثار منه ، واقتضاه وسيلة لاستعلاء الانسان على الانسان ، كأنه ولا تزال شيئا لثبات المسلم ، ومصهرا للثورات والحروب ، وأن عبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الفلطي الذي أصاب العالم ، والذي لا يزال العالم يروم تخفيف أعبائه ، وأن الاستكثار من المال والاعتماد عليه هو الذي قضي على الإنسانية الإنسانية وبينت الناس بعضهم لبعض دهورا ، وأر أنهم كانوا نفسا واحدا وأمتا

تفكيراً لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المال ؛ ولرأوا بذل المال للمحتاج أكبر جاهاً من إذلال الناس لهذا المال (١) .

ولكن مئات الفقهاء لم يفكروا في ذلك ، بل راحوا يتكلمون عن المادة والجسم دون أية عناية توجهه للروح ، إنهم يبدعون كلامهم بقولهم تجب الزكاة في خمسة أشياء : المواشى والأثمان والزرع والثمار وعروض التجارة ، ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكثرون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التي كانت أهم مصادر الثروة والغنى في الجزيرة العربية ، وينسون أنبا الآن لا تكاد توجد في أكثر العالم الإسلامي ، ولم يهتم إلا أفراد قلائل بمصادر الثروة التي جدت في العصور الحديثة ، وبضرورة الزكاة فيها ، وذلك كالعمارات والحوانيت المؤجرة والمصانع والمهن الحرة ، مع ما تقدمه لأصحابها من ثراء .

وقد قلنا ان أغلب الفقهاء أهملوا روح الاسلام ، ونريد أن نقرر هنا شيئاً يبلغ الغاية في الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الاسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التي يتخلصون بها من الزكاة ، كأمر برسم للمالك أن يهب ماله لابنه أو أزوجه قبل أن يهول الحول ثم يستوهبه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب زكاة عن الحول الماضي لأنه لم يكمل . وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول فلا تجب عليه زكاة قط (٢) .

الصوم في كتب الفقه :

فإذا تركنا الزكاة الى الصوم نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق ليس فيهم من أورد الأفكار التي سبق أن سقناها عن الصوم عند الحديث عن اختلاف العقل والنقل ، ليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم ، وأنه

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٣٢ .

(٢) الحزيري : الفقه على المذاهب الأربعة .

عن طريق الصوم يتحرر الانسان من العادات التي خضع لها كتناول الطعام في وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العادات التي يمكن أن يقال إن الشخص أصبح عبدا لها لا يستطيع أن يتخلف عنها .

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت في إعداد الطعام عن مواعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفذت منه في وقت لا يستطيع أن يشتري بدلها ، كأن يكون في الليل أو في رحلة ، وفي كثير من الأوقات يصبح الغنى معدما ، على أن الغنى هو في أوج غناه تأتي عليه ظروف لا يجد كوب الماء أو كسرة الخبز ، فكم من الأغنياء يحتاجون الى كوب ماء وهم في جلسة عامة ليس له الى الماء من سبيل ، وكم اضطرت الأعمال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيرا ، وليس الصوم إلا مدربا يُعِدُّ الشخص للتغلب على العادة التي اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ويهيئه لما قد يُلْمُّ به من مشكلات وأزمات .

ماذا كتب الفقهاء عن الصوم ؟ إن الجمهرة العظمى لهؤلاء الفقهاء تصوّر الصوم جوعا وحرمانا ، تضع له الشروط ، وتسرف في بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تعطي أى اهتمام للجانب الروحي في هذه الفريضة السامية ، وأسوق لك مسألة أوردها النووي وقال عنها : انها مسألة نفسية ، وقد طلبتها سنين حتى وجدتها والله الحمد ، ما هي هذه المسألة ؟

أصبح شخص ولم ينو صوما ، فتمضمض ولم يبائع ، فسبق الماء الى جوفه ثم نوى صوم تطوع ، صح على الأصح .

تلك هي المسألة النفسية التي تطلبها النووي رحمه الله حتى وجدها ، وهناك في الكتب الفقهية مسائل من هذا النحو تعد بالمئات ، ليس لها من دلالة الا جفاف الدراسات وبعدها عن الحياة ، واليك بعضها :

لو غرز الصائم سكيناً في لحم ساقه لم يفطر !! بخلاف لو غرزها في جوفه فإنه يفطر !!

لو أدخل بعض خيط في جوفه قبل الإمساك وبقي البعض الآخر خارج الجوف ، فإنه يفطر إذا شد الخيط وأخرجه من جوفه ، ويفطر كذلك إذا ابتلع الباقي .

لو بل خيطاً بريقه ثم أخرجه ثم أدخله في فمه وهو رطب واختلط بل الخيط بريقه وابتلعه أفطر .

هذا وأمثاله ما اهتم به كثير من الفقهاء في موضوع الصوم ، أما هجر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم والانتفاع به ، أما اهمال الاعمال بسبب الصوم ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه ، أما ضيق صدره وثورته لسبب أو لغير سبب ، فهذا ما لم يعن به الفقهاء أو ما منحوه عناية ضئيلة .

وقد سبق عند الكلام عن الزكاة أن تحدثنا عن أولئك الذين حاربوا روح الاسلام بذكرهم الحيل التي يتغلص بها المسلم من دفع الزكاة ، وقد حدث في الصوم مثل ما حدث في الزكاة ، فإن الفقهاء تحدثوا عن السفر الذي يبيح الفطر من حيث طوله دون أن يتكلموا كلمة واحدة عن أهدافه وضرورته للصائم ، ولذلك نجد أعرابياً يعتمد على أقوال الفقهاء ويهتف عندما استقبل رمضان في فصل الصيف قائلاً : والله لأشتتته بالسفر .

الصلاة في كتب الفقه القديمة :

وفي باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشتاتا من الاحتمالات قدرها الفقهاء وتكلموا فيها ، ولكنهم كالجهل بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انفلات من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى الصلاة لحظات من اليوم ، وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء ، ومنهم من كان يفتي الخليفة ، والاشغال بين يديه ، والحديث في

حضرته ، وقد سرر بعضهم هذه الأدب أروع تصوير ، وسار عليها الفقهاء والعلماء الذين عرفوا طريقهم الى مجالس الخلفاء ، وقد أوضحت ذلك في كتابي « تاريخ التربية الاسلامية » وما جاء في ذلك ما يلي : فالداخل إلى حضرة الخليفة أو الى مجلس سره يجب أن يكون نظيفا في بزته وهيئته ، وقورا في خطوه ومشيته متبخرا بالبخور الذي تفوح رائحته ، وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه (١) ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات الى جانبيه وورائه ، والتحريك ليد أو شيء من أعضائه ، وأن يعض طرفه عن كل مرئى إلا شخص الخليفة وحده وأن يمتنع من الضحك وإن جرى ما يرببه ويعلم أن أجل ما يكون الانسان في عين صاحبه اذا كان شخصا صمتا وجسما صلدا ، لا يخرج منه شيء كالنبصاق والمخاط ولا يدخل اليه شيء كالطعام والشراب (٢)

ويوصى كساجم (٣) جليس الخليفة أن يقبل عليه بالوجه والنظر والوعى ، فلا يشغل الجليس طرفه عن الخليفة بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر .

وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة ، انه أدب شمل نظافة البدن ، وجمال اللبس ، وعطر البخور ، ثم تعدى ذلك الى ضبط الحركة ، وضبط الشعور ، وشدة الاهتمام ، ثم تجاوز ذلك الى الاتجاه للخليفة بالتفكير والوعى ، عرف الفقهاء والعلماء هذا ودونوه ، فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله ؟

الحقيقة المؤلمة أنهم لم يدونوا شيئا من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجها اتجاها ماديا جافا ، جبل من الصلاة عملية أوتوماتيكية كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء أو التيمم

(١) الصابى : رسوم دار الخلافة ٤٦ — ٤٧ مخطوط .

(٢) رسوم دار الخلافة ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) ادب الأندلس ص ٣٢ — ٣٣ .

وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما في الصلاة من تفرغ الى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلى العظيم ، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماما ذا بال ، وحتى كلمة « الخشوع » التى قفزت الى اصطلاحات الفقهاء ، خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأنى في السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معانى هذه الكلمة من الخضوع والتفكير في الله والاجلال لذاته •

وستورد فيما يلى نماذج قليلة لما أورده الفقهاء في بابى الوضوء والصلاة مستقاة من أهم كتبهم •

السواك ؟

أنقل لك نصا بحروفه ورد في أكثر من كتاب من كتب الفقه ، لترى مجموعة من فقهاء المسلمين يختلفون ويتفقون ويوردون الأدلة والردود والاعتراضات على قضية ظنوها خطيرة هي أن يستاك الشخص بإصبعه أو إصبع غيره ، وما إذا كان ذلك يجزى أو لا يجزى وهناك ذلك النص :
« وأو استاك بإصبع غيره !! وهى هشة أجزاءه قطعا ، قاله في شرح المهذب ، وفي أصبعه خلافا ، الراجح في الروضة لا يجزىء ، والراجح في شرح المهذب الأجزاء ، وبه قطع القاضى حسين والحاملى والبغوى والشيخ أبو حامد واختاره الدرمانى في البحر ! ! ! »

غسل الوجه في الوضوء :

يجرى الفقهاء في تحديد الوجه عملية هي أقرب الى علم الهندسة والمساحة منها الى علم الفقه ، قالوا : وحدد الوجه من مبدأ تسطيح الجبهة الى منتهى الذقن طولا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا ، وموضع التحذيف من الوجه ، والصدغان ليسا من الوجه على الأصح في الشرح والروضة ، يحس في المحور أنهما من الوجه قال في الروضة يجب غسل جزء من

رأسه ورقبته ربما تعنت ذقنه مع الوجه ليتحقق استيهابه ، ولو تأخرت الأذنان أو تقدمتا عن محلها المعتاد ، اعتبر الأصل •

المضمضة والاستنشاق :

يستحب التثليث في المضمضة والاستنشاق ، ولها صور ، أن يتمضمض ثلاث مرات ثم يستنشق ثلاث مرات ، أو أن يتمضمض مرة ثم يستنشق مرة وهكذا ثلاث مرات ، وتغيير الماء تختلف الأقوال فيه ، فمنهم من يرى تغييره في كل مرة فيستعمل ست غرفات أو أن يستعمل غرفة واحدة للمضمضة ثلاث مرات وغرفة أخرى للاستنشاق ثلاث مرات ، فإذا تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، جاز أن يستعمل ثلاث غرفات ، والأفضل أن يستعمل غرفة واحدة للجميع فهذه أو سنها وأشرفها •

هكذا نص الفقهاء ، ولا يستسيغ عقل سليم أن يقبل أن يكون أو سنها

أشرفها •

ترك استقبال القبلة للمصلي المحارب :

تصورَ الفقهاء رحمهم الله أن الإسلام وهو دين اليسر والسهولة ، الدين الذي يجيز للمسافر أن يفطر في رمضان وكذلك يجيز الفطر للحامل والمرضع ، هذا الدين السامح تصوره الفقهاء يُلزم المجاهد بالصلاة وهو في وسط المعركة يحارب أعداء الإسلام حرباً شرعية ، استمع اليهم يقولون بالحرف الواحد في أكثر من كتاب : « إذا التحم القتال ولم يتمكن المسلمون من تركه بحال لقاتلتهم وكثرة العدو ، صلوا ركباناً أو مشاة ، مستقبلي القبلة وغير مستقبلها ، وليس لهم التأخير عن الوقت للآية الشريفة الدالة على إقامة الصلاة في وقتها ، واعلم أنه إنما يعفى من ترك الاستقبال إذا كان بسبب العدو ، فلو انحرف عن القبلة لجماح الدابة وطال الزمن بطالت صلاته ، ويازمه الركوع والسجود أو الإيماء بهما إذا لم يستطع إتمامهما

على أن يكون السجود أخفض من الركوع ، ويجب الاحتراز عن الصياح بكل حال لعدم الحاجة إليه ، ولو احتاج الى الفعلات الكثيرة كالطعنات والضربات المتوالية فعل ولا تبطل صلاته وقيل تبطل ونص عليه الشافعي •

سامح الله هؤلاء الفقهاء كيف ألزموا المحارب بأن يصلى ، وهو يكافح عدوا أقوى منه واشتروطوا عليه ضبط نفسه في هذه الحال فلا يصرخ ، وضبط دابته فلا تجمح ، بل إن منهم من أبطل صلاة المحارب إذا أكثر الضرب والنظن ••

ليت الفقهاء تذكروا القصر والجمع في الصلاة عند السفر ، ولو قاسوا قيام المعركة بالسفر لوجدوا حلا للمسلم ليجمع بين الصلاة وواجب الدفاع عن الدين والوطن •

وقد أجاز الفقهاء المحدثون الفطر للطلاب أيام الامتحانات اذا كان الصوم يضر بهم وبمستقبلهم ، ولعلمهم قاسوا الامتحانات على السفر •

ما أجمل الشريعة الإسلامية لو أعمل الفقهاء عقولهم للصالح العام •

وكثيرا ما يحس الفقهاء أن ما يذكرونه من الفروع بعيد عن الفهم والاحاطة وحينئذ يلجئون الى التمسك ويديونون به هذه التقريرات العجيبة • ومن ذلك ما نظمه بعضهم عن أحوال موافقة المأموم للإمام في أفعاله وعدمها :

فعلا وتركنا في سجود تلاوة وافق ، وتركنا في تشهد أول
وبضده لسجود سهو ثم لا هذا ولا ذا في قنوت فاعقل

وقول الآخر في حضور المرأة الصلاة في المسجد مع الرجال :

سألت وتحضر العجوز بإذن زوجها يجوز
أما إذا حضرته أمه أو بنتها فلا حضورا

فقهاء العصر الحاضر وتأثرهم بالماضى :

قد يظن القارئ أن هذه الاتجاهات المادية والفروض العجبية ترتبط بالماضى وليس لها وجود أو بقايا فى الحاضر ، وهذا الظن خاطئ ، فقد تأصلت هذه الاتجاهات الغربية فى نفوس بعض الفقهاء المعاصرين ، وعانينا منها ونحن ندرس فى الأزهر ، بل إنها تقفز أحيانا الى الصحافة اليومية ، وعلى لسان كبير مسئول فى أمور الشرع هو المفتى • وأرجو أن يستجمع القارئ نفسه حتى لا تشتمز مما سنقتبسه من فقرات حكايته التى تجرح الحياء ، وأن يسيطر على معدته حتى لا يتقأيا مما ورد فى بعض العبارات •

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم مراد (الأخبار فى ١٤ رمضان سنة

١٤٠٥ هـ — ٢ / ٦ / ١٩٨٠ م) •

« وافانى أحد القراء بقصاصة من جريدة تتضمن حديثا قصيرا لفضيلة الشيخ عبد اللطيف حمزة ، مفتى جمهورية مصر العربية بعنوان مفسدات الصوم • وقد بدأ فضيلة الشيخ حديثه أو مقاله بقوله ويفسد الصوم بالجماع فى أحد السبيلين على المفاعل والمفعول به ؟؟ (يالله من هذا التعبير العجيب) ، ثم انتقل فضيلته الى مفسدات الصوم بالاكل والشرب • فقال والاكل والشرب سواء فيه ما يتغذى به أو يتداوى به • وابتلاع مطر دخل فمه ، •• ثم قال وأكل الطين الأرمنى مطلقا والطين غير الأرمنى وأن اعتاد أكله ••

« وأسأل فضيلة المفتى جادا لا هازلا ما هو هذا الطين الأرمنى وما الطين غير الأرمنى ، وبخاصة أن فضيلته فى ختام حديثه عاد فقال ومن مفسدات الصوم أيضا اذا أكل الصائم ارزا نيئا أو عجينا أو دقيقا بدون سكر ، أو طينا غير أرمنى لم يعتد أكله •• ولتكرار الحديث عن الطين

(م ١٧ — المجتمع الاسلامى)

الأرضين، غير الأرضي ، سواء اعتاد المرء تكله أم لم يعتد ذلك ، أتساءل عن هذا الطين وذلك للساين ، أما الأرض النبيء ، والعجين فأمرهما مفهوم .

« ثم ختم فضيلته حديثه عن مفسدات الصوم بقوله « أو ابتلع حصة أو حديدا أو ترابا » مرة أخرى ، فما رأى فضيلته فيمن ابتلع قطعة من النحاس أو القصدير أو الألومنيوم ، هل يكون الأمر فيها كالأمر في الحديد أو يخالفه ؟

« وفي وسط الحديث يقول فضيلته انه مما يفسد صوم الصائم « ابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لا غيرها » وهنا أيضا أتساءل لماذا يفسد الصوم ابتلاع بزاق الزوجة أو الصديق ، بينما لا يفسده ابتلاع بزاق شخص آخر ؟ مع الاعتذار للقراء عما في هذه العبارة من أثر .

« يا فضيلة المفتى ، عندي لك ألف سؤال مماثل ، ولكن السؤال الملح بعد قراءة حديثك هو : هل تعيش فضيلتك فعلا في السنة الخامسة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة » ؟

محمود عبد المنعم مراد

وفي نفس اليوم علق الأستاذ أحمد بهاء الدين بجريدة الأهرام على هذا المقال العجيب الذي نشره المفتى بقوله :

« لم اصدق عيني وأنا أقرأ في جريدة « الوفد » المقال الذي كتبه الزميل جمال بدوي ، مدير التحرير . . مطلقا على كلام نشره الشيخ عبد اللطيف حمزة مفتى مصر عن « دليل الصائم ومفسدات الصوم » ورجعت الى أصل كلام مفتى الديار غير مصدق فوجدت العجب !

« وإن أمين القراء بما ذكره المفتى بين « مفسدات الصوم » من صور غريبة للعلاقات الجنسية الشاذة ، التي لم ترد في « ألف ليلة وليلة »

المصادرة بحكم قضائي ، والتي ذكر أنها تشدد الصوم ٠٠ وكان مقبولته يرى أنها - في غير أيام الصوم - أمور مقبولة !!

« ولكنني أضرب مثلا من عجائب أخرى ، فأكل اللحم النييء يفسد الصوم ، الا اذا ضرب فيه الدود و «أكل الطين الأرمني مطلقا أو أكل الطين « غير الأرمني » للمعتاد أكله .»

« ومن مبهلات الصوم « ابتلاع بزاق » أي - بصاق أو لعاب - الزوجة ٠٠ أو الصديق !! وقد فهمت حالة ابتلاع « بزاق » الزوجة ولم أقهم حالة ابتلاع « بزاق » الصديق .»

« ومما يفطر الصوم أكل الارز نيئا أو عجينا أو دقيقا بدون سكر أو نواة أو قطنا أو سفرجلا ! أو ابتلع خصاة أو حديدا أو ترابا ! أو إن دهَنَ شاربته ثم أكل منه متعمدا !»

« (وأي مجتمع مسلم اليوم يأكل اللحم النييء وقد ضرب فيه الدود ؟ وياكل الطين الأرمني أو غير الأرمني ومعتاد على ذلك ؟»

« هل بلغ الجمود في النقل ، وتعطيل العقل ، حدٌ عدم تمييز الزمن الذي نعيش فيه وحدٌ عدم الانتقاء حتى في النقل .»

« وقد صح تعليق الزميل جمال بدوي حين قال « إن المسلم المعاصر يعرف من أمور دينه أضعاف ما تقدم تلك المعلومات التي تذكرنا بما كان يتناقله أدياء الفقه في عصور الانحطاط ، عندما كانوا يفترضون المستحيلات لآظهار براعتهم في الافتاء ، فكان شأنهم شأن الحواة والمحتالين ، وليس شأن العلماء الذين يحترمون أنفسهم ويزنون كلامهم بميزان الذهب .»

« أبهذا النمط من التفكير ، يعيش بعض علماء الاسلام ، وفي أعلى المناصب في القرن الخامس عشر للهجرة ؟! هل هذا هو النمط الذي يراد منه أن يَنْتَهَى لنا في تقنين الشريعة الإسلامية ؟»

أحمد بهاء الدين

وعلق الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده في صحيفة « الوفد » الصادرة يوم ٦ يونيو سنة ١٩٨٥ على ما جاء في كلمة الشيخ المفتي بأن أكل اللحم النبىء اذا ضرب فيه الدود لا يفسد الصوم ، فتساءل الدكتور عن أكل الجوافة أو الشمس بدوده وما الفرق بين الاثنين ؟

وهكذا أثارَت هذه الأفكار سخرية المفكرين والصحفيين وهى فى الحق امتداد لحشد من الأفكار الهزيلة البعيدة عن روح الاسلام ، والتي تحتشد فى كتب الأوائل ، فلما أعلن الشيخ المفتي بعضها واجه هذا الاستنكار لأنه أراد أن يبعث الحياة فى ماض لا يستحق الحياة .

الفتهاء والمعاملات

ولندع العبادات لنذهب الى المعاملات التى يجب أن تكون متطورة شديدة الملازمة لشئون الخلق ، لنسرى الى أى مدى استطاع الفقهاء المسلمون أن ينتفعوا وينفعوا الناس بهذه الشريعة السمحة ، بل لنرى كيف أهمل الفقهاء روح الاسلام وروح التشريع ، ووجهوا كل العناية الى الجانب المادى الجاف فى دراستهم للفقهاء الاسلامى ، ولنكتف بأخذ باب الطلاق نموذجاً لدراستنا .

الطلاق :

عن الطلاق يقول صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ومن الواضح أن هذا الحديث المرجز يصور العلاقة الزوجية مقدسة سامية يثير قطعها غضب الله ، ويخيل إلى أن الفقهاء لو عنوا بياضاح روح التشريع فى هذا الموضوع ، وبينوا أن الطلاق لا يُلجأ إليه إلا إذا ضاقت السبل بإصلاح ذات البين ، لو فعل الفقهاء ذلك : لقل تهاون العامة بذلك الموضوع ، ذلك التهاون الذى جعل من المرأة سلعة يحتفظ بها صاحبها أو يبيدها عنه بالطلاق وقتما يشاء ، مما هدد الحياة

الاجتماعية ، ويجعل سعادة الأسرة في مهب الريح ، ولكن الفقيهاء استعملوا روح التيسير اهما لا تاما ، وبدأوا كلامهم في هذا الباب فبينوا التسليق لغة وشرا ، ثم بينوا أنه صريح وكناية ، وأوردوا ألفاظ الصريح ونماذج من الكناية • ودللوا على جواز الطلاق بالقرآن والسنة والاجماع ، وشرحوا عدد الطلقات المباحة للحر والعبد ، ثم أوردوا من مسائل الطلاق نماذج حار الباحثون في تعليل إيرادها • إن مئات منها خيال لا يمكن أن يقع ولا من هاذئ أو معتوه ، ولكنهم أضاعوا جهودهم ووقتهم في تصورها والاجابة عليها ، وطالما اتفقوا واختلفوا في ذلك حتى رمى بعضهم البعض الآخر بالجهل وقلة الفقه ، وسنورد فيما يلي نماذج قليلة مما حشده الفقهاء من مسائل في هذا الباب :

لو قال لزوجته : إن كلمت زيدا فأنت طالق • فكلمته ولو سكران أو مجنوناً طلقت • قال ابن الصباغ يشترط أن يكون السكران بحيث يسمع ويتكلم ، ولو كلمته وهو منعمى عليه أو وهو نائم لم تطلق ، وإن كلمته وهي مجنونة قال ابن الصباغ : لا تطلق ، وعن القاضي حسين إنها تطلق • قال الرافعي والظاهر تخريجه على حنث الناسي ، وإن كلمته وهي سكرانة طلقت على الأصح ، ولو خففت صوتها بحيث لا يسمع لم تطلق وإن وقع في سمعه شيء ، فذلك هو المقصود اتفاقاً لأنه لا يقال كلمته ، ولو نادته من مسافة بعيدة لا يسمع منها الصوت لم تطلق ، فلو حملت الريح كلامها ووقع في سمعه فالذهب أنها لا تطلق ، وإن كانت المسافة بحيث يسمع فيها الصوت فلم يسمع لذهول أو شغل طلقت ، فإن لم يسمع لعارض ريح أو لصمم فيه وجهان لم يصحح الرافعي ولا النووي هنا شيئاً ، وصحح الرافعي في الشرح الصغير الوقوع وجزم به في الشرح الكبير في صلاة الجمعة عند إسماع أربعين إلا أنه فرض المسألة في الرسم فقط ، ونقله في التتمة عن نص الشافعي ، وأما النووي فاذنلت تسحيحه ، فصحح في تصحيح التنبيه أنه لا يقع وجزم في صلاة الجمعة بالوقوع •

وعن محمد بن الحسن أن الرجل إذا كان له ثلاث نسوة لم يدخل

بواحدة دهنين ، اسم واحدة منهن زينب والأخرى عمرة ، والثالثة حمادة ، فقال لزينب : إن طلقك فعمرة طالق ، ثم قال لعمرة : إن طلقك فحمادة طالق ، ثم قال لحمادة : إن طلقك فزينب طالق ، فطلق زينب واحدة فان زينب تطلق التطليقة التي طلقها ، وتطلق عمرة تطليقة بالحنث ، ولا يقع الطلاق على غيرهما ، فان لم يطلق زينب ولكن طلق عمرة طلق عمرة تطليقة التي صدرت ، وطلقت حمادة بالحنث ، ولم تطلق زينب شيئاً ، فان لم يطلق عمرة ولكن طلق حمادة تطليقة طلق حمادة التطليقة التي صدرت وطلقت زينب تطليقة بالحنث ، وطلقت عمرة تطليقة أخرى بالحنث ، لأنه حنث في زينب فتطلق عمرة لحنثه في زينب ، فان لم يكن طلق امرأة منهن شيئاً ولكن قال : احداكن طالق ثم مات قبل أن يبين أيتها طلق فان لعمرة نصف الصداق ولا ميراث لها ، ولزينب ولحمادة صداقٌ وربع وصداق بينهما نصفين ، ولهما نصف الميراث بينهما نصفين ، ونصف الميراث يرد على كل حال وزينب وحمادة في حال تطلقان جميعاً ، وفي حال تطلق إحداها فلهما في حال صداق ، وفي حال صداق وربع صداق ، وأما الميراث ففي حالة تراث إحداها ، وفي حالة لا تراثان فلهما نصف الميراث بينهما نصفين .

ثم يرض محمد بن الحسن هذه الزوجات اللاتي لم يدخل بواحدة منهن أربعاً فكثر الحساب والكسور .

ولمنا لو قال : إن سرقته مني شيئاً فأنت طالق . فدفعت إليها كيساً فأخذت منه شيئاً لم تطلق لأنه خيانية لا سرقة ، قلت هكذا جزم به الرافعي والنووي وفيه نظر من جهة أن العامي لا يفرق بين السرقة والخيانة فاذا فسرت السرقة بالخيانة وأخذنا بذلك أوقعنا عليه الطلاق عملاً بعرفها واعتقادها .

ومنها إذا قال : إن كلمتك فأنت طالق . ثم أعاد الجملة طلقته لأنه كلمها ، وكذا لو قال ، اعرفني ذلك ، طلقته لأنه كلمها .

ولو قال : إن قرأت سورة البقرة في صلاة الصبح فأنت طالق فقرأتها
وفسدت صلاتها في الركعة الثانية لم تطلق على الصحيح ، لأن الصلاة
عبادة واحدة يفسد أولها بفساد آخرها •

وهكذا لا يستطيع الانسان أن يدرك أنه فراق حدث بين زوج
وزوجته لعدم استطاعة التوافق والانسجام بينهما ؟ أو هي عملية حساب
رلغة ومنطق ؟ وأين «ذا الذي سيعتد قرانه على ثلاث أو أربع ولا يدخل
بهن ثم يبدأ في عملية مثلية بين زينب وعمرة وحسادة ؟ انه الجانب المادى
الجاف الذى ازدحمت به كتب الله ، وشغل به الفناء ، وهو بلا شك
دليل على نشاط عقلى ولكنه من الناحية الواقعية لا يسان له •

وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس عالم
الفقه وحده هو الذى بلى بهذه الدراسات الجافة • بل إنها العلوم كلها
التي عالجه من نسميهم العلماء ، انها المنطق والحديث والتفسير والتاريخ
الاسلامى وعلم الكلام والنحو والصرف والبلاغة ، فقد تشبعت هذه العلوم
جميعا بالعجمة وانعدمت السروح في دراستها ، وستعرض لبعضها عند
الحديث عن « دراستى في الأزهر » ولكنى هنا أجس بأنه من الضروري
أن أورد صوراً تبين الدراسات التي اتصت بالقرآن الكريم ، هذا الكتاب
المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذا الكتاب المعجز
في أسلوبه ومعانيه ، هذا الكتاب العربى المبين ، ماذا فعل به هؤلاء العلماء
عندما كتبوا عنه ما أيسموه تفسيراً ؟

الجواب أنهم كتبوا كل شيء لا يلزم ، وأهملوا جثلاً ما يجب أن
يكتب ، أهملوا إبراز جمال القرآن في أسلوبه ومعانيه ، وما يدعوا له من
خلاقٍ وبر وعمل صالح ، وأحالوا السروح المتدفقة والمعنى الخلاب
والأسلوب المعجز ، الى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية • إن الرجل
للعربى ليقراً القرآن فيحس بلذة ما تعدلها لذة ، فاذا ذهب يقرأ تفسير
القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق •

ومن القصص التي تروى عن إحساس العرب بجمال القرآن أن رجلاً مرَّ بفتاة تنشد من شعرها هذه المقاموعة :

أستغفر الله لذنبي كله قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دكته وانتصف الليل ولم أصله

فقال الرجل : أعيدي يا فتاة ، فشعرك من أعذب ما سمعت وأجمله

فأجابت الفتاة : هل ترك القرآن يا أبتاه لنا عذوبة أو جمالا ؟ لقد استأثر كلام الله جلَّ وعلا بالبيان المبين ، والقول المفصل ، والحكمة الرائعة • وأوشك كلامنا إذا قيس به أن يصبح غناً لاجمال فيه •

قال الرجل : كيف ذلك يا فتاة ؟

قالت : انظر الى الآية الكريمة « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » (١) كيف اشتملت آية واحدة على أمرين ونهيين ويشارتين (٢) مع جمال أسلوب وحسن وقع •

ذلك لون من تفسير القرآن الكريم بابرار محاسنه ، وما فيه من سحر وجمال • فهذا فعل المفسرون عندما عمدوا الى كلام الله يدوّنون تفسيره ؟

نسوق فيما يلي بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم نردفها بما ذكره المفسرون عنها ، وتلك الآيات تقيض جمالا وعذوبة عند المسلم الذي ينظر الى القرآن نظرة تقديس واجلال ، وكذلك عند الكافر أو المشرك الذي يقرأ القرآن على أنه صفحات من الأدب العربي فحسب ، وهذه هي الآيات :

(١) سورة القصص الآية السابعة .

(٢) الأمران : أرضعيه ، القيه • والنهيان : لا تخافي ، ولا تحزني •
والبشارتان : إنا رادوه إليك • وجاعلوه . . .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هيناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبنيون أربعم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً ، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ، والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرشوا عليها صماً وعمياناً ، والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين وأجعلنا للمتقين إماماً ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » (١) .

ذلك نموذج من كلام الله وأستطيع أن أقول إنه لا يحتاج الى تفسير ، إنه إبراز جميل للخلق الذي يتحلى به عباد الرحمن ، وتصوير مخيف للشرور التي يرتكبها العصاة ، وفي هذا الأسلوب حلاوة وطلاوة وفن وأدب ، فماذا قال المفسرون عن هذه الآيات ؟ سنورد النص الحرفي لعبارة البيضاوي وهي غير بعيدة عما ذكره غيره من المفسرين ، قال :

(وعباد الرحمن) مبتدأ ، خبره أولئك يَجْزُونَ الغرفة أو (الذين يمشون على الأرض) واصفانهم الى الرحمن للتخصيص والتفصيل أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن يكون عباد جمع عابد ككاتب وكتابر (هونا) هينين أو مشياً هينا مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع . (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) تساماً منكم وترثاً لكم لا خير بيننا ولا شر ، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الايذاء والاثم ، ولا ينافيه

آية القتال لتتسخه فان المراد به الاغضاء عن السفهاء ، وترك مقابلتهم في الكلام (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) في الصلاة وتخصيص المبيتة لأن العبادة بالليل أهدأ وأبعد عن الرياء ، وتأخير القيام للروى ، وهو جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه (والذين يقولون ربنا احرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) لازما ومنه الغريم للالتزمته ، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق ورجلون من العذاب مبتهلون الى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم وهدم وثوقهم على استمرار أحوالهم (إنها ساعت مستقرا ومقاما) أى مقيمت مستقرا وفيها ضمير مبهم يفسره المميز ، والمخصوص بالذم ضمير محذوف ، به ترتبط الجملة باسم إن ، أو أحرزت وفيها ضمير اسم إن ، ومستقرا حال أو تمييز ، والجملة للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله • (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يفتروا) ولم يضيفوا تضييق الشحيح ، وقيل الاسراف هو الانفاق في المحارم ، والتقتير منع الواجب • وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ، ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أفتروا وقرئ بالتشديد ، والكل واحد (وكان بين ذلك قواما) وسطا عدلا ، سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي بمواء لاستوائه ، وقرئ بالكسر ، وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص • وهو خبر ثان أو حال مؤكدة ، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغوا ، وقيل إنه اسم كان لكنه مبنى لاضافته الي غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالأخبار بالشيء عن نفسه •

وهكذا يسير البيضاوي في تفسيره ، وأستطيع أن أقول دون تحرج أنه جمى على القرآن بعد أن كان لى واضحا ظاهر المعنى رائع الأسلوب •

ومن صور التقاسير ما أورده الزركشي من أن الألف والميم لله الجسد لأنه مختلف فيهما ، قيل للاستغراق وقيل لتعريف الجنس ، واختاره الزمخشري ومنع كثرها للاستغراق ، قيل وهي ترعة اعتزالية ، ويشبه أن

يقال في تبیین مراد الزمخشري أن المطلوب من العبد إنشاء الحمد لا الإخبار به ، وحينئذ يستحيل كونها للاستعراق ، إذ لا يمكن للعبد أن يتشبه بجميع المحامد منه ومن غيره بخلاف كونها للجنس (١) .

وقد بلغ من عنايتهم بالناحية المادية في القرآن الكريم ، بعد أن غفلوا عن روحه ، أن ذهبوا يعدون حروف القرآن وكلماته وعدد ما به من الألفات والباءات والتاءات وغيرها من الحروف الهجائية (٢) .

وهكذا اتجهت العناية الى الجسم والى الجانب المادى الجاف فى الدراسات الاسلامية ، وهكذا أهملت روح الاسلام وأخلاق الاسلام وفلسفة الاسلام عند كثير من الباحثين فى عصور الظلام التى طالت وامتدء أثرها إلى النصف الأول من القرن العشرين .

مقاومة الإصلاحات العلمية والاجتماعية باسم الدين

وعن علاقة الدين الاسلامى بالعلم يقول المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد أمين : ان إصلاح حال المسلمين يكون بشيئين : أحدهما فصل العلم عن الدين ، والتوسع فى العلم الى أقصى حد مستطاع (١) ولكنى لا أوافق على هذا الرأى ؛ فمن الخير أن ينمو العلم فى ظلال الدين ، فإن العلم عندما نما فى أوروبا بعيدا عن الدين والخلق ، كان العلم مدمرا ، بعث الخراب فى العمور ، وأثار الفزع فى القلوب ، وسبب الموت للشباب ، واليتم للأطفال ، ورمل النساء ، وحطم قلوب الآباء .

والدين الاسلامى على وجه الخصوص يجب على العلم ويدعو إليه ، قال الله تعالى :

يُرفِعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يُرْجَاتُ (٤) .

(١) الكشكول للعالمى ص ٨ .

(٢) الكشكول للعالمى ص ١٧٥ .

(٣) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٤) يوم الاسلام ص ١٨٩ .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) ؟

— وقل ربى زدنى علماً (٢) •

— فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٣) •

وقال عليه السلام : اطلبوا العلم ولو فى الصين •

ولكن بعض من يتحدثون باسم الدين اتجهوا بالعلم اتجاهها خاصا عقيما • وعدوا ما سواه ضللا وزندقة ، وقد سبق أن قلنا إن العلماء توقفوا عن الاجتهاد وأنهم اتجهوا فى دراستهم اتجاهها جافا ، وأهملوا الروح وغنوا بالمادة وبالفروض الوهمية • ونزيد على ذلك هنا أنهم حاولوا أن يمنعوا غيرهم من السير فى الطريق العلمى القويم ، وأرادوا أن يلزموا الدول والأفراد باتجاهاتهم ، وكان لهم نفوذ وبخاصة على العامة ، إذ كانوا قادة الجماهير ، فأعلنوا أفكارهم ، ووقفوا منها موقف المدافع الحامى ، فقدّر لهم النجاح الى حد كبير ، وقد سبب نجاحهم تخلفا قليلا أو كثيرا فى الحياة العلمية والاجتماعية بالدول الاسلامية •

وسنورد فيما يلى نماذج لما أصاب العالم الاسلامى من تخلف بسبب فهم العلماء للدين الحنيف •

ستامة الاصلاح فى تركيا أيام الخلافة العثمانية :

عندما ظهرت تركيا فى أفق السياسة الدولية كانت دعامتها الأولى جيشها الباسل الذى استطاع أن يسحق كل القوى التى حاولت الوقوف فى سبيله وقد كسب هذا الجيش لتركيا نصرا مؤزرا فى آسيا وأفريقية وأوروبا ، فحكمت تركيا امبراطورية من أعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وتهافت قوى أوروبا أمام القوة التركية وهى تزحف كالسيل العارم • ومّرت الأيام ، وتوصلت الدول الأوروبية الى أسلحة جديدة ونظم جديدة فى ترتيب الجيوش وتدريبها ، وبدأت أوروبا تحاول استعادة مكانتها

(١) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٢) سورة طه الآية ١١٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٢ .

واسترداد ما اغتصبته تركيا ، فالروس يتحفزون للوثوب على القسطنطينية ، وفرنسا تهاجم مصر ، والثورة بدأت تتحرك في البلقان .

وأحس السلطان سليم الثالث بالخطر يوشك أن يحدق به ، فأراد أن يستعد له ليضمن السلامة للدولة . وليس الاستعداد إلا بأن يقتبس النظم والأسلحة الجديدة التي أوثقت أن تجعل كفة أعدائه راجحة على كفته ، وأن يعيد تنظيم « الإنكشارية » التي كانت قد أصبحت رمز الاضطراب والرجعية (١) .

ماذا في ذلك ؟ وكيف يتعارض هذا مع الدين الذي يقول بارئه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٢) ؟ ، لسنا نفهم ، ولكن علماء تركيا في ذلك الوقت وعلى رأسهم شيخ الاسلام قاوموا هذه المحاولة مقاومة شديدة ، وحرصوا العامة ضد السلطان بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج . وكان للعلماء النصر ، فانهزم السلطان وخلق ثم قتل .

الاخوان في السعودية :

ظهرت بجزيرة العرب في عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود جماعة « الإخوان » وقد عرفت هذه الجماعة بالتعصب الديني والرجعية ، وكان الملك مصلحا اجتماعيا فذو شديدا الفهم لروح الاسلام ، وكان هؤلاء لا يستجيبون للتطور أيا كان مداه واتجاهه ، وأهدافه وبواعثه ، ولذلك حدثت بينهم وبين الملك صراعات وخلافات كثيرة ، ويصور لنا الشيخ حافظ وهبة بعض مواقف هؤلاء من الملك ، قال (٣) :

« شاهد الملك عبد العزيز التليفون لأول مرة في مكة ، ورأى الفائدة العظيمة التي يسديها في انجاز الأعمال وسرعة المواصلات ، ولما نقل معسكره من الزاهر (بقرب مكة) الى حذاء أراد أن يمد سلكا تليفونيا

(١) اقرأ ما كتبه عن الانكشارية في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣١٦ وما بعدها . وقرأ عن صراع الملك ضدهم في الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف .

بين مكة وبين حداء ، وسلكا آخر بين الرغامة وبين حداء حتى يكون على اتصال تام فيما بين مكة ومقره في حداء وميدان الحرب ، وكنا تقطع المسافة بين مكة وبين معسكره في أربع ساعات ذهابا ومثلها ايابا على ظهور الإبل أو الخيل ، ولكنه عدل أخيرا عن هذه الفكرة لأن انشاء التليفون يهيج نائرة الإخوان فأرجأ هذه المسألة .

« ولما مدت أسلاك التليفون بعد ذلك كان الإخوان يقطعونها لأنها عندهم منكر يجب إزالته ، وكثيرا ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر الملك أثناء وجوده في مكة .

« وحدث مرة أن أحد الاخوان ضرب خادما للملك يركب دراجة وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة ، وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان .

« ولما علم رجال الدين بعزم الملك عبد العزيز على إنشاء محطات لاسلكية في الرياض وبعض المدن الكبرى في نجد ، هرعوا له وقالوا : يا طويل العمر ، لقد غشك من أشبار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا .

قال الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست والله الحمد بضغيف العقل أو قصير النظر لأخدع برأى المخادعين ، وأؤكد لكم أنني لا أسمع كلام أحد فيما تظهر فائدته لى ولبلادى ، مادام ليس هناك دليل من كتاب أو سنة على تحريمه .

وعندما وضعت الآلة اللاسلكية في الرياض واستعملت ، كان الناس يعزى بعضهم بعضا بأن انشاء هذه المحطة هو الحدث بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح التي تقدم لهؤلاء الشياطين ، فلم يجدوا شيئا .

وعندما ظهرت الساعة منذ حوالي ستين سنة في نجد حطمها من يدعون

المعلم والدين من الإلهوان بدعوى انها من سنة الشيطان ، او انهم يريدون
 الأحوال بدعة ، وقد اضطر أحد المشايخ التقدميين أن يكتب رسالة وينشرها
 وينشرها ردا على دعوى هؤلاء بعدم جواز استعمال الساعة .

ويقول الشيخ حافظ وهبة إنه صبح مرة أحد العلماء الى محطة
 التلفزيون الماسلكى ليريه أنه ليست هناك ذبائح ولا شياطين ، ولكن هذا
 العالم ظن أن الشيخ حافظ دبر هذه الزيارة فأخفى الذبائح ، ولهذا تكررت
 زيارة العالم للمحطة لزيارات مفاجئة .

وقد حدث مثل هذا عند ظهور المذيع ، وقد خمرت فكرة في ذهن
 الملك وضع بها حدا لهذه الشبهات التى طال أمدها ، وهى أنه أمر أن يقرأ
 القرآن الكريم فى المذيع والتليفون ، وسأل العلماء : هل يقرأ الشيطان
 القرآن ، وبهذا من جهة ، وبالزمن من جهة أخرى خمدت هذه الفتنة
 الغاشمة (١) .

فى هـ ٣

وقد منيت مصر أيضا فى القرن الثامن عشر وما قبله بمثل هذه الحال ،
 حتى لقد أرادت الحكومة المصرية أن تدخل علوم الرياضة والطبيعة فى
 مدارسها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم على ذلك دون أن تستفتى شيخ
 الأزهر خوفا من ثورة العلماء ، فكتبت له السؤال التالى :

هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة
 وعلوم الطبيعة ؟

ويجيب شيخ الأزهر فى حذر : إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها .
 وهكذا لم يعمل العلماء فى ميدان الثقافة والمعرفة ، ولم يدعوا غيرهم

(١) انظر جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، واقرا عن
 تطور هذه الفتنة والقضاء عليها بالقوة فى الجزء السابع من موسوعة التاريخ
 الاسلامى للمؤلف .

يعملون ، فوقف العالم الاسلامى ، وقطعت أوروبا فى طريق الحضارة
شوطا بعيدا .

هذهان المرأة من العلم :

أما التخلف الاجتماعى الذى منى به العالم الاسلامى بسبب جمود
الكثيرين من العلماء فيتمثل فى عدة أشياء لعل من أهمها « شل نصف المجتمع —
المرأة — والحيلولة بين هذا النصف وبين الاشتراك فى نضال البشرية من أجل
مستقبلها وأمنها وسلامها ، لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون على المرأة
المسلمة أن تولد وتلد ثم تموت ، أى جَعَلت منها الكهانة آلة مسيرة
لا عقل لها ولا رأى ولا حق ، فكيف يمكن — إذا — أن تثبت ثقافة الفرد
المسلم ، وكيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصيفهم — باسم الدين —
كان يعيش مغلولاً بلا عقل (١) ؟ .

وعلماء الدين يعرفون بلا شك ما حققتة المرأة المسلمة فى عصور
الاسلام الأولى من تقدم ونجاح فى ميدان العلم والمعرفة وغيره من
الميادين ، انهم بلا نزاع سمعوا عن عائشة ورووا الأحاديث عنها ، وأغلب
الظن أنهم رأوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد وعرفوا أنه خصص أحد
أجزائه لرواية الأحاديث عن النساء ، فروى فيه عن أكثر من سبعمائة
امرأة ، وأغلب الظن كذلك أنهم قرءوا قليلا أو كثيرا مما كتبتة الشواعر
من قصائد رائعة ، ولعلمهم بعد ذلك سمعوا عن برعهن فى الطب كزينب
طبيبة بنى ود وأم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى وغيرها (٢) .

قلت شعرى لماذا حوربت البنت ومُنِعَت من التعظيم باسم الدين
أو باسم الاستقرار بالبيت الذى ظنوا أن الاسلام فرضه ؟ وقضى
عليها بأن تولد وتلد ثم تموت ؟ ومن العجب أن تحرم البنت حتى من

(١) أنور السادات : نحو بعث جديد ص ٣٣ .
(٢) عقدنا فصلا خاصا عن ثقافة المرأة بكتابتنا « تاريخ التربية الإسلامية »
ص ٣٢٧ — ٣٥٢ من الطبعة التاسعة .

الثقافة الدينية ، وألا يفكر الأزهر أن ينتح أبرامه لابنت لقتال ، من تتألفه الاسلام زادا ينير لها دنياها التي أطبق عليها ظلام حالك ، رلم ينتبه الأزهر لهذا الموضوع الا سنة ١٩٥٦ بعد أن وجدت البنت طريقها الى المدارس والجامعات قبل ذلك بعشرات السنين ، مما يتسعر أن مشروع الأزهر جاء متأخراً ، وعند كتابة هذه السطور للطبعة الأولى في الشهور الأخيرة من عام ١٩٥٨ كان مشروع الأزهر لم يخرج بعد للنور .

البدع والخرافات :

وفي عهد الثقافة الضحلة الهزيلة التي عاشها المسلمون قرونا طويلة نبتت البدع والخرافات ، كما نبت ما يمكن أن نسميه عبادة الأولياء ، هنا مثلا شجرة مقدسة يلجأ لها الناس معتقدين أن المريض يجد عندها الصحة ، والعانس تجد الزوج ، والعاطل يجد العمل ، وهنا حجر يتلمس الناس عنده البركة ، ويترقبون منه فيضا من الخير والأمل .

عبادة الأولياء وثورة الإصلاح بنجد :

على أن كبرى هذه البدع هي ما أسميناه عبادة الأولياء ، وقد أولت الثورة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية هذا الموضوع عناية كاملة ، فراح الشيخ يهدم القبور ، ويدفع الناس الى العودة الى عبادة الله وحده .

واذا كان هناك ولي لله من بين الناس ، أي رجل "أقبل" على الله وقبل الله منه ، فان هذا الرجل لا يدرف نفسه ، ولا يستطيع الناس أن يميزوه ، لا يعرف الولي نفسه لأنه دائما يتهمها بالتهدير ، وهو دائما خائف وجل ، وقد تتحقق له كرامة ، أو يستجيب الله لدعائه أو نحو ذلك ، ولكنه لا يتخذ ذلك دليلا على مكانة وصل لها ، انه يفهمه على أنه منحة وعطف من الله العلي العظيم ، وأعتقد أن شخصا ما ، لو بدأ يحس أنه ولي لله

اتكان ذلك بدء فساد ولايته ، لأن الإحساس بأداء الواجب كاملا تجاه الله
موضوع من النقض لا يقع فيه الأولياء ، فأى عاقل يستطيع أن يدعى أنه أدى
كامل الطاعة ؟ وقام بكل واجب تجاه الله تبارك وتعالى بالكرامة ؟ وعلى هذا
فالوالمش لا يعرف نفسه ، وإذا جهل المولى نفسه مع أنه يعرف بمعمده عن
العصيان وقربه الى الطاعة ؟ فكيف يعرفه الناس ؟ وربما كان عسريا في
مستور أو مطيعا في رياء ، إننا نقولها بكل قوة ، إن الولاية يصل لها أناس
ويحسبون في غمار الناس ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعرفهم الناس .

ولكن العامة لم تخطر لهم هذه الأفكار على بال ، بل جعلوا مقياس
الولاية هلالة الثياب ، أو شرود الذهن ، أو العتة ، وأحاطوا من رآوه
كذلك بأساطير تؤكد أنه شوهد مرة يطير في الجو ، أو أنه تنبأ بشيء فحدث ،
أو نحو ذلك ، وليس لهذه الأساطير من مرجع يعتد به ، الا الخيال أو
الدعاية التي يطلقها هذا المحتال أو يذيعها عنه أتباع أرادوا الثراء
على حساب خبل هذا الرجل وضعف عقلية العامة ، ويصبح ذلك الرجل بهذا
إلها صغيرا ، فاذا مات بنيت له القباب ، وبولغ فيما أذيع عنه من أساطير ،
ولا تكاد تخلو قرية من إله صغير يقدم الناس له ولأتباعه الذبائح ، ويقسم
به الأطفال ، وتقام له الموالد ، وهناك آلهة أخرى يمكن أن تعتبر آلهة
مناطق ، ومقرها المدن ، وتلك يهرع لها إذا تشر على الإله الصغير أن
يحقق الآمال .

ويمضى الزمن ولا يحقق هذا ولا ذلك أملا ، ولكن الناس في غيهم
سأدرؤنا .

تكفير المخالفين في الاتجاه الفكري :

من الواضح أن الإيمان مقره القلب ، وأن من الصعب أن يدرك
انسان خفقات قلب الآخر ، وبذلك وضع الاسلام المؤمن بمؤمن من أن يرمى
بالكفر ، فما على المسلم الا أن يعلن ايمانه ، أما حقيقة نواياه فلتترك الله
المطلع على السرائر ، وقد ذمَّح القرآن الكريم والحديث الشريف هذه النقطة

ايضاها سافيا ، قال تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا » (١) ، فبمجرد قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله ، يَنْجَبَتْ ايمانه ، وليس لأحد أن يدعى أن هذا غير مسلم أو ينسب له الذم .

ومن ذلك ما يرويه أسامة بن زيد أحد أبطال غزوة جهينة قال : لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا من جهينة ، فلما غشيناه قال : « لا إله إلا الله » فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يا رسول الله ، انما كان متعوذا . (معتصما بها من القتل لا معتقدا لها) قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم حقيقة ما به (٢) ؟ .

ذلك هو الاتجاه الاسلامي القويم ، ولكن بعض الفقهاء نسوا هذه المبادئ ، وفهموا في الدين فهما خاصا ، وراحوا يرمون بالكفر كل من عارضهم ، ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين (٣) عن الشيخ عليش ما يلي : هو شيخ من أصل مغربي ، شهرته في تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهى الأسباب . وضيق أفقه ، وشدة غيرته على الدين بالمعنى الذي يفهمه .

وقد سبق أن قررنا أن الجمهرة الغالبة من الفقهاء جمدت عن مواصلة الاجتهاد وقتعت بتقليد السابقين من المجتهدين ، ولكن لم يخل عصر من العصور الاسلامية من مفكر مجتهد يهاجم التقليد ويسير في الطريق القويم الذي يحقق أن الاسلام دين كل زمان ومكان . وقد تعرض هؤلاء المجتهدون للأسف الى حملات عنيفة شننها عليهم الجامدون ، وبالغ

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٢) الحكومة والدولة في الاسلام للمؤلف ص ٢٥ .

(٣) زعماء الاصلاح ص ٢٨٨ .

الجامدون أحيانا في عنفهم حتى رموا المجتهدين بالكفر والزندقة ، لا لشيء الا لأن المجتهد خالفهم في رأى ، أو اقترح حلا لمسألة وقف هؤلاء منها جامدين .

وأصبح الرمى بالكفر شبيها يسيرا ، وأصبح سباب المسلم ايمانه وهو أعز ما يملك أمرا هينا ، يمكن أن يحدث لإتفه الأسباب ، وقد عانى المجتهدون في جميع العصور هجوما سافرا حادا وتسلط عليهم الجامدون تؤيدهم العامة ، وتؤيدهم السلطة التي كثيرا ما كانت الى الجمود أميل ، هذرا من الجانب المتطور أن يُجرّمهم بتياريه الصاخب ، ومن هذه الأسباب الثقافية ما روى أن الفقهاء في القرن الماضي ومطلع القرن الحالى كانوا يرون أن « كل شيء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه ، فتحويل الميضاة القذرة الى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة . وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس الجزمة بدعة ، فان تحركت نفس صالحة للإصلاح ، خنقّت دعوتها في مهدها ورُميت بالزندقة » (١) .

والشيخ محمد عبده يسأل عن حكم لبس المسلم القبعة ، فيفتى أن لبسها اذا لم يقصد به الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره لا يعدّ كفرا ، واذا كان لحاجة أو دفع مضرة كحجب شواربة الشمس لم يكره ذلك ، وقد تعرض الشيخ محمد عبده بهذه الفتوى الى حملات قاسية شنّها عليه العلماء ، وهيجت الصحف عليه العامة والغوغاء .

وفي إندونيسيا — في فترة من الفترات — كان استبدال الزى الأوروبى (بالسازونج) يعرض الشخص الى أن يرمى بالتشبه بالكفر والتمرد على الاسلام .

ويؤلف الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابه القيم « قصص الأنبياء »

فيؤلف الأزهر لجنة لدراسة الكتاب وبيان مدى صلاحيته ، وتصدر اللجنة تقريراً يجيء فيه :

« ونحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف الكتاب : اللهم إنا نبرأ إليك من مثل هذه الآراء . »

« نستغفرك اللهم ونتوب إليك سبحانه هذا بهتان عظيم . »

« ولقد لحقتنا الدهشة من ادعاء المؤلف أنه لم يقف على تلك الأحاديث ، وهذا الاحتمال لا يتصور من مثل فضيلة الأستاذ ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم . »

وقد رد الأستاذ عبد الوهاب النجار على نقد اللجنة ردوداً فيها قوة وهجج بالغة ، ونشر الكتاب وأقبل عليه القراء بشغف وتقدير ، أما الذين هاجموه فكان مآلهم النسيان .

وحدث الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو شيخ للأزهر أنه كانت تعرض له مسائل يرى ضرورة الاجتهاد فيها ، فيعمل الفكر حتى يصل الى حل ملائم لها ، ثم يخشى أن يعطن هذا الحل على الناس على أنه من اجتهاده وبحته مخافة أن يسلب العلماء اسلامه منه ، ولذلك كان يلجأ الى بعض خواصه ، فيعطيهم الحكم ويسألهم أن يبحثوا في آراء المتقدمين عما يدعم هذا الرأي من قريب أو من بعيد ، حتى يظنهم الرأي منسوباً الى أحد هؤلاء المتقدمين بدل أن ينسب الى مجتهد حديث .

عجبا ! ! كيف لصغار الفقهاء المتقدمين وكبارهم أن يجتهدوا ، ويحرم الاجتهاد على المراغي وأمثاله مع ملهم من ايمان عميق واطلاع واسع ، وفكر ثاقب ، وغير ذلك من الصفات التي كثيراً ما ترجح صفات بعض المتقدمين ؟

والذي عمله الامام المراغي عمل نحوّه كثير من المجتهدين المعاصرين ،

فمنهم من توقف عن الاجتهاد ومنهم من أخذنى اجتهاده حردا على عرْضه أن يوان وعقيدته أن تهاجم ، وقد نبهتم عن ذلك خطر كبير اذ بقيت أسئلة كثيرة تدبر أن تبيد اياها جوابا (١) ، هناك الفنون والمعاملات معها من ايداع أو اقتراض ، وهناك البرص والدم ، وهناك حكم سيام العمال الذين يحملون الحجارة الثقيلة ويرتفعون بها عدة طوابق في السماتر الشاهقة في أيام رمضان ، وهناك -- كما سبق القول -- اباحة الطلاق دون قيد ، واباحة تعدد الزوجات دون شرط ، وغير ذلك من الأشياء التي تحتاج الى تفكير أو اعادة النظر تبعا لتجدد الظروف والأحوال ، ولكن العلماء صامتون ، انهم يرون العامل في العمارات يأكل ويشرب علنا مقررا استحالة الصوم مع الجهد الذي يبذله ، ومقررا ضرورة العمل لكسب القوت ، إن العلماء يرون ذلك ، ويتركون الرجل يفطر عاصيا ، ولو اجتهدوا وقاسوا هذا العمل بالنسفر فربما أباحوا له الفطر ، والقضاء في الأيام التي لا يعمل فيها ، وهذا يجعله يفطر وهو طائع بدل فطر فيه روح العصيان والتمرد ، ولكن بعضهم كما قلنا لا يؤمنون بالاجتهاد ، والآخرون يؤمنون به ولكنهم يؤثرون السلامة .

تحويل المذاهب بالتعصب من نعمة الى نقمة :

سبق أن قررنا أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان التفكير يختلف حول بعض المسائل ، وقد كان لعمر رأى غير رأى الرسول في مسألة أسرى بدر وغيرها ، واختلف رأى عمر مع رأى أبى بكر في بعض المسائل أيضا كما اختلف على مع عمر ، وكان الاختلاف في الحكم راجعا الى الاختلاف الطبيعى في العقول ، أو الاختلاف في فهم الآية أو الحديث ، فهنا يقول الله تعالى « فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » (١) . وقد تبع ابن عباس صريح اللفظ فأعطى الأم الثلث سواء أكان مع الأبوين أحد الزوجين أو لم يكن ، وقال الجمهور ان القاعدة العامة هي ألا تفضل

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

الأنثى الذكر المساوي لها في الجهة والقرب . ولذلك أولوا الآية ، فقالوا
إن للأنثى ثلث الباقي عند وجود أحد الزوجين ، وهذا خطأ ، وهذا
رأيان ، وأحياناً كانت توجد آراء ثلاثة ، ابن كثير .

وقد برهن السابقون من المسلمين في العصر الزاهر على سعة أذق ،
وانفساح صدر ، كان كل منهم يحترم اجتهاد الآخر احتراما كاملا ، ففي
خلافة عمر يقضى على^١ في مسألة يرى عمر فيها رأيا آخر ، فلما قيل لعمر :
لم لا تقضى برأيك والأمر لك ؟ أجاب : إننا نقضى بالرأى ، والرأى مشترك ،
ولست أدري أى الرأيين أحق عند الله .

وفي الآية السابقة يسأل ابن عباس ابن عمر : كيف تعطى الأم ثلث
الباقي والقرآن يقرر لها الثلث ؟ فيجيب ابن عمر : هذا رأبي ولك رأيك .

وفي عصر الأئمة اختلفوا كثيرا ، وانتفقوا كثيرا وكان كل منهم يقرر
الرأى الذى يؤديه اليه اجتهاده دون أن يهاجم الامام الآخر أو ينال منه ،
وتكوّن للمسلمين مجموعة من الآراء قبل عصر الأئمة وفي خلال ذلك العصر ،
ولا نزاع أن هذه الآراء نعمة كبيرة للمسلمين ، انها تثقّد لنا ذخيرة واسعة ،
انها نتاج أفكار كدّت وجدّت لتقدم لنا أطيب النتائج ، فما على المسامنين
الا أن يستعرضوا هذه الآراء التى بنيت على اجتهاد حصيف ليختاروا منها
ما يلائم حياتهم ويتناسب مع ظروفهم .

وجاءت عصور التقليد أو عصور الظلام ، واذا كان المجتهد يُجلّ
اجتهاد الآخرين . فذلك لاداركة ما يستازمه الاجتهاد من كدح ذهن وسعة
اطلاع ، انه كالقائد البطل يُجلّ خصمه القائد البطل ، ان المجتهد يأخذ
الحرية لنفسه وهو لذلك يدرك قيمتها ويمنحها الآخرين ، أما المقلد فقد
عاش على حساب المائدة التى أعدها شيوخ مذهبه ، ولم يرجع للقرآن

أجاب الضيف : شافعي .

- وكيف نصلي ، أين ، شافعي ؟

... قل ، فقراء البلدة يتبعون مذهب الشافعي وكل السكان كذلك .

- ولكن أنا وأنت أيهما ؟ على خلفه ؟

- إني أصلي خلف من أتى من بلدي ، ثم بعد الصلاة .

- هل أنت متأكد أنك ستصلي مع ربيع وأنت في المسجد ثم أنت في

كالمشافية وتمعرة أو يجرى في

... أنا غير متأكد أنه يصلي مع ربيع وأنت في

... إذا فصلتنا باطلية .

|

وبدأ الحديث همسا كما قات ، ولكنه اشتد وانتهى بانسحاب الضيف ،
وتساءل الناس عما حدث ، وغمدت الفتنة لامل واحد هو اهتمام أهل
الريفة باحترام الضيف والتجاوز عن هناته .

هنا عقلان جاهدان ، لم يستطع الضيف أن يصلي الجمعة ولو -
على أثر الاحتهالات - قضاها ظهرا بعد ذلك ، ولم يستطع الضيف أن
يقترح ذلك عليه ، انه الجمود وقصر النظر أمام المشكلات الاجتماعية ،
وأمام حق المجتمع على الفرد ، ولكنها صورة من صور المحن التي عادت
بالضرر البالغ على العالم الإسلامي بسبب اختلاف أتباع المذاهب .

هنا كذلك أهل السنة والشيعة ، وطالما اشتعلت الخصومات
رقامت المنازعات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين ، ولا نزاع أن كثيرين من
المعرضين وأعداء الاسلام انتهزوا فرصة هذا الخلاف المذهبي ودخلوا
يوسعون هوته ويواعدون بسين الشقيقتين ، ولو أنصف هؤلاء وأولئك
لأدركوا أنهما فرعا آرومة واحدة ، ولكن للأسف كان الخلاف يشتد أحيانا

معتاد، يفتن المنوع بمسيحي أكثر من ثقته بثيبي ، ويتق الشيعة بيهودي أكثر من ثقته برحمان من أهل السنة ، مع أن أهل السنة والجماعة ينفقون في أقطار الأهر ، يتفقون على دراسة الإسلام كثيرا وقوانينه وتشرياته ، فلماذا ينسون ذلك ويبحثون عن نقاط الخلاف ؟

وفي إندونيسيا عصبية من نوع آخر ، عصبية ليست مذهبية ولكنها وثيقة الشبه بالعصبية المذهبية ، فالأغلبية الساحقة من مسلمي اندونيسيا تتبع مذهب الامام الشافعي ، وبهذا نجت اندونيسيا من الاختلاف المذهبي ، بيد أنها منيت بخلاف من نوع آخر ، ذلك هو قيام الأحزاب والجماعات الاسلامية التي يقرب مجموعها من عشرة ، ويمكن القول إن الوئام غير تام بين هذه الطوائف ، وان النفور كثيرا ما ينتشر بين تابعيها ، ومن مظاهر ذلك النفور أن يُنزل المصلون في أحد المساجد خطيب الجمعة من فوق المنبر لأنه يتبع حزبا اسلاميا غير الحزب الذي يتبعه سكان هذه المنطقة ، ومن مظاهره كذلك أن يبدأ رمضان عند طائفة في يوم ، ويبدأ عند طائفة أخرى في يوم آخر ، وقد حدث في سنتين متتاليتين وأنا بأندونيسيا أن يصبح الصباح وأتباع هذا الحزب صائمون وأتباع حزب آخر مفطرون لأن الصوم عندهم يبدأ في اليوم التالي . أما الخلاف بين هذه الأحزاب في المشاكل الداخلية والخارجية فكثيرا ما يشتد حتى تتسع الهوة بين طوائف المسلمين ، والعجيب في الأمر أن كل هذا الخلاف يتم باسم الاسلام واسم مبادئ الاسلام .

تشبث بالتقديم :

في بعض الأحوال أتيج لمنطقة من مناطق العالم الاسلامي أو لقطر من أقطاره حاكم أو زعيم فيه رغبة في الاصلاح الاجتماعي أو الثقافي أو النهضة بالمؤسسات الفكرية بوجه عام .

وكان المفروض أن ينتهز رجال الدين هذه الفرصة فيستجيبوا لهذه الإصلاحات ، وتندفع المؤسسات الاسلامية الى الأمام ، ولكن الذي حدث

أن بعض رجال الدين رفضوا اتجاهات الإصلاح في حالات كثيرة وتمسكوا
بالقديم ، وفي حالات كثيرة أنشأ المصلحون السياسيين مؤسسات جديدة
توافق اتجاهاتهم ، وتركوا المعاهد والمؤسسات القديمة تنطك في نوم عميق ،

أراد الحكام أن يصلحوا الأزهر ، وأن يشمل الإصلاح قاعات
المحاضرات ، ومرتبات المدرسين ، وأمانات الطلاب ، ونظم الدراسة ،
وموادها ، وطرقها ، أو بعبارة أخرى أن يتطوروا به مع الزمن ؛ ولكن
رجال الأزهر في ذلك العهد أو رجال الدين ثاروا وأبدوا سخطهم فتركهم
الحكام وتركوا أزهرهم وراحوا ينشئون المدارس الابتدائية والثانوية ،
والعالية ويؤسسون الجامعات ، وأدخلوا في هذه وتلك ما عن لهم من
اصلاح وتطور .

وكانت المحاكم الشرعية هي المحاكم الوحيدة في مصر ، وأراد الحكام أن
يجعلوا قانونها حيا متطورا ، فأشاروا بتأليف لجنة تستعرض القوانين
الاسلامية للمذاهب كلها وتختار منها أصلحها وأكثرها ملاءمة للزمن وتتطور
بها عن طريق الاجتهاد لتسد حاجات العصر ، إذ كما يقول الشيخ المراغى
« لم يكن الفقه الحنفى وحده بسادس حاجات المجتمع ، وحاجة الحكومات
والدول في التشريع والتنظيم » ولكن الفقهاء رفضوا ذلك الاتجاه ، وقاموا
الاجتهاد ، وأصروا على أتباع مذهب أبى حنيفة وحده لأنه مذهب الخلافة
التركية ، فترك الحكام المصريون المحاكم الشرعية على حالتها ، وأسسوا
المحاكم المدنية ، وقصروا المحاكم الشرعية على النظر في الأحوال الشخصية
كالزواج والطلاق والميراث ، ثم بعد فترة ألغيت هذه المحاكم الشرعية
نهائيا وضمت اختصاصاتها وخسم قضاتها الى المحاكم المدنية .

ولم يلتفت رجال الدين الى البنات وأهملت المرأة اهمالا تاما كما
سبق أن ذكرنا ، ورأى الحكام أن اهمال نصف الأمة يعود على الأمة كلها

بالضرر ، وأن عدم تربية الأم ينشئ جيلا من الرجال بعيدا عن الكمال ، ولم تتحرك المعاهد الاسلامية لتعليم البنات فأنشأ الحكام المدارس للبنات وشجعوها على التعليم ، وعندما بدأ الأزهر يفكر في فتح أبوابه للبنات كانت مصر تعج بالطبيبات والمدرسات والموسيقيات وغيرهن ممن تخصصن في الدراسات المختلفة وأثبتن نجاحا ظاهرا كما سبق القول .

والحكم الاسلامى حكم شورى لمصلحة المحكومين بلا نزاع ، وكان على الفقهاء أن يتطوروا بدراسة نظم الحكم حسب الظروف والأحوال ، وأن يبيّنوا مَنْ هم أهل الحل والعقد ، ويبيّنوا طرق اختيار الخلفاء ، ولكنهم لم يفعلوا ، فاقتبس الحكام هذه النظم من أوروبا ، وقد حدث مثل هذا أيضا بالنسبة للقوانين ، فان توقف الفقهاء عن الاجتهاد أوجد فراغا في عالم التشريع ، فاضطر الحكام الى اقتباس القوانين من بلجيكا وفرنسا ، والعجيب أن الفقهاء قد يثورون على الحكام لاقتباسهم القوانين الأوربية ، وطالما صاح الفقهاء في وجه الحكام بالآية الكريمة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (١) ، وتجاهل الفقهاء أنهم هم الذين لم يشرحوا ما أنزل الله ، وأنهم هم الذين أهملوا الدراسة والبحث والتفكير ، ليحصلوا من المصادر الاسلامية على ما تحتاجه الدولة من قوانين .

ونحن نلهث الآن لتطبيق الشريعة الاسلامية ، وليتنا نحقق هذه الغاية ، وقد كان الزمام في أيدينا فلما غفلنا عنه ، والتقطه سوانا بدأنا نصرخ لاستعادته في العهد الحاضر عندما صح المسار وتيقظ رجال الدين ، وعلت كلمة الحق في عصر الحرية والنور . .

وقبل أن نطوى الحديث عن ذلك الموضوع نقول بقوة وإيمان ان حديثنا عن الفقهاء لا يمس من قريب أو بعيد هؤلاء العباقرة المجتهدين من الفقهاء في الماضى والحاضر ، أولئك الذين أحسنوا لدينهم وللمسلمين شيئا كتبوه

وما أبدوه من آراء ، لقد كان هؤلاء قادة أحرارا ، وقد لاقوا من معاصريهم من الفقهاء كثيرا من العنت كذا سبق القول ، إننا في هذه السطور نذكر أسماء بعضهم نيمنا وطلبا للخير والبركة ، واعترافا بما ألدنا دن بهوثهم وآرائهم وسيرتوهم ، إن منهم هذه الأسماء اللامعة : الشرائي — ابن تيمية — ابن القيم — عز الدين بن عبد السلام — محمد بن عبد الوهاب — حسن الحدوي — محمد عبده — الرازي — شلتوت — عبد الجليم محمود — آل الندوي — المودودي — عثمان دانفديو — همكا وطاماء الجمعية الهندية بإندونيسيا ، وكثيرون سواهم ينتهزون اجتهاد الأئمة الاسلاميين .

ضلالات عقائدية أضفت العالم الإسلامي

في فترات الضعف التي مرَّ بها تاريخ المسلمين مئتي العالم الإسلامي بجماعات من أعداء الاسلام عجزوا عن مقاومته وهم خارج دائرته ، فتظاهروا بالدخول فيه ليحاربوه من الداخل فذلك أيسر لهم وأحرى ألا يثير ثائرة المسلمين ضدّهم ، وكانت حربهم هذه المرة حربا عقائدية فنفتوا سمومهم ونشروا ضلالاتهم متظاهرين بأنهم يحقّقون الحق وينيون السبيل ، وقد تكلمنا بإفاضة عما فعله مدعو التشيع في هذا المضمار (١) في عصور الاسلام الأولى .

وهناك نوع من الضلال العقائدي لا يزال قويا ، ولا يزال له دعاة وأتباع يعدّشون بالآلاف والملايين ، ويكثر هؤلاء في شبه القارة الهندية ، ويعملون جاهدين على نشر معتقداتهم في مناطق مختلفة من العالم وبخاصة منطقة الشرق الأقصى ، وهؤلاء أيضا مسلمون في أصل تفكيرهم ، ولكن ألوانا من الانحراء دفعتهم الى الانحراف ، ثم أصبح الانحراف أساسا لذهبهم وأفكارهم ، وسنعرض من هؤلاء نموذجين أحدهما عن أتباع الشيخ « معين الدين شيبتي » والآخر عن الأحمديّة (القاديانية) .

(١) الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

للمؤلف ص ١٥٠ — ١٦٦ من الطبعة الثانية .

معين الدين شيبهني وياب الجنة :

فمن أتباع « معين الدين شيبهني » اكتفى بنشر وثيقة مهمة يقوم هؤلاء الأتباع بتوزيعها في مختلف الأقطار الإسلامية بالشرق الأقصى، داعين الناس للحج الى الخريج المقدس الذي يثوى به الشيخ ، وقد أرسلت نسخة جملة من هذه الوثيقة أو الدعوة الى اندونيسيا عندما كنت هناك ، وأرسلت وزارة الشؤون الدينية نسخة منها لي لأرد على ما جاء بها . فكتبت ردا مفصلا على هذه الخرافة وقامت الوزارة بطبع هذا الرد وتوزيعه ، ويكفي هنا أن أنشر هذه الوثيقة بلغتيها الأوردية والإنجليزية ، وأن أدون ترجمتها العربية ، وسيرى القارىء مقدار ما تحويه هذه الوثيقة من ضلال ، وقد كان الانجليز إبان احتلالهم للهند يؤيدون هذه الحركات ويمدونها بالمال ، ويبدو أن هذه الحركات لا تزال تجد من حكومة الهند التشجيع والتأييد :

وفيما يلي هذه الوثيقة .

SPECIAL KHAWAJA URS FAIR

The day of Khawaja Urs Fair is drawing near. With my best Dua and good wishes I am wishing you and your family on this auspicious occasion.

There is a good arrangement in my house for meals, lodging with latrine and all kinds of facilities are given to the visitors free of charge. Moreover there is a P.O. system in my house.

This year the Urs Shareef of Sultanul-Hind Hazrat Khwaja Mohammad Chishti (R. A. Garb Nawaz) will be held from the 2nd February to the 7th February 1937 equivalent to the Islamic year for Rajab to the 6th Rajab 1376 Hijri.

On the Urs Day the Jannat Door or Khwaja Sahib's Rouza Shareef will be opened and it will remain opened for 6 days continuously. By this time all the devotees who are present in the Darbar enter in the Jannat Darwaza and make Towab 7 times walking around the Rouza Moharak as the Hazrat Sahib-e-Arkan Mozannam. It is said that people who will enter in this Door will also be able to pass through the Door of Jannat after their death.

Moreover it is the great interest of all devotees of Allah who intend to perform Hajj but unable to do so owing to the adverse pecuniary circumstances or due to some other cause the same of Hajj is over, they may attend Urs Fair of Khwaja Sahib and attain much benefit performing Hajj.

Thus a good number of people assemble together during this great festival, make Towab and console their hearts with full hopes and much satisfaction.

It seems that all troubles taken in the name of Khwaja Sahib on earth are changed into peace and tranquility.

So those who could not attend the last Urs of Khwaja Baba it is really a golden opportunity for them to perform Hajj and get their desires fulfilled.

On the sixth day of Urs the anniversary Fatcha and 'Qil' are performed and on the sixth day of Rajab 'Bata Gesal' is celebrated.

So if you or anyone of your kin and kins intend to visit the holy Shrine during this Urs Fair kindly inform me with a letter or a telegram 4 or 5 days before your starting so that I may make all necessary arrangements for your accommodation.

In case you are unable to attend on this auspicious occasion for some special reasons, you may take part in Fatcha Shareef by sending whatever amount you can afford to send as Nazar, Niaz, and offerings for Ke-ur Khan, Malik Shareef, Fatcha, etc.

Kindly mention your clear and full address so as to enable me to send you Tobaruk and Doanama. Please distribute my addresses to those who are willing to visit Ajmer or send Nazar and Niaz.

At the time of correspondence please write my full address as well as yours just after Fatcha come Tobaruk and Doanama are sent to the respective senders.

I am performing prayer and making special Dua for you and your family on these days for your welfare, success in business, escaped pestilence, ever lasting firmness, sound health, long life, peace and prosperity. (Ameen)

Please note.— Take my address card with you while you are coming down as Ajmer and show this card at Ajmer Station so that no body may adopt any unfair means.

Yours ever Dango,
SAMEBZADA SYED ZIAUDDIN CHISHTI
 S/o LATE HAJI SYED JALALUDDIN
 Gadduastha Khanqah-e-Chishtia,
 KAMAL MANZIL, CHHATRI GATE,
 Dargah Shareef, P. O. Box No 71.
 AJMER (India)

وترجمتها العربية هي :

عرس مبارك

« أصبح قريبا ذلك اليوم الذي حدد لافتتاح العرس السنوي المبارك أبو لانا عميق الأسرار الشريف سلطان الهند حضرة السيد مدين الدين شيبستي ، وأنتهز هذه الفرصة لأدعوك وأدعو عائلتك لحضور هذا الافتتاح وهذا العرس ، وبهذه المناسبة قد قمت باستعدادات واسعة لأضيء لك ولأسرتك وجميع الزائرين ضيافة بمنزلي تشمل تقديم المكان والطعام ، وسيستمر العرس من اليوم الثاني إلى السابع من شهر فبراير سنة ١٩٥٧ (١ - ٦ من شهر رجب سنة ١٣٧٦ هـ) »

« وفي هذا العرس سيفتح « باب الجنة » المؤدى إلى الروضة الشريفة ، وسيظل مفتوحا مدة ستة أيام ، وسيباح للمحبين والمريدين أن يدخلوا هذه الجنة ، وأن يقرءوا بالطواف سبع مرات حول الروضة الشريفة كما يفعل الحجاج في مكة المكرمة ، ومن الأثر أن هؤلاء الذين سيحبرون باب الجنة إلى الروضة سيفتح لهم أبواب الجنة بحد موتهم »

« وأخبر من ذلك فإن أبواب الله الذين يفتنون الحج إلى مكة وتغنمهم ظروف خاصة عن القيام بذلك ، يمكنهم أن يخيبوا زيارة روضة الشريف ، وسيجنون منقطة عظمى من هذه الزيارة »

« وستند في أثناء هذا الاحتفال العظيم وفود كثيرة ، حيث يقومون بالطواف والزيارة ويمتلئون قلوبهم بالأمل والغبطة »

« وكل آلام السفر التي يتحملها الوافدون لهذه الزيارة ستجاب لهم أمنا وهدوءا وسكينة » »

الله اعلم

هذه دعوة لا تحتاج إلى تعليق طويل ، وإنما من يعرف الناس النظر فيها وأن يحاول أن يفهم ما بين سطرها ، وأن يترك وراءه نظرية التبر (م ١٩ - المجمع الإسلامي)

عُقِدَتْ عن الطواف والروضة الشريفة ، وباب الجنة ، ولو أُتِيح لَاتِّبَاعِ
مَعِينِ الدِّينِ شَيْسْتِي أَنْ يَقُولُوا مَا فِي نَفْسِهِمْ لِأَعْلَنُهَا صَرِيحَةً ، بِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ
لِلْحِجِّ إِلَى مَكَّةَ وَأَنْ فِي رَوْضَةِ الشُّيُخِ الْكُفَايَةِ ، وَلَا دَاعِيَ لِإِبَادَةِ الْإِسْلَامِ
وَيُكْفَى أَوْ يَعْبُرُ الْمُرِيدُونَ بَابَ الْجَنَّةِ لِيُضْمِنُوا النِّجَاةَ يَوْمَ الْحِشْرِ ، وَلَكِنْ
هُؤُلَاءِ أَحْرَزَتْهُمْ الشُّجَاعَةُ مِنْ جِهَةٍ ، وَأَرَادُوا خِدَاعَ الْجَمَاهِيرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى
فَوَقَّفُوا هَذَا الْمَوْقِفَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ •

القاديانية أو الأحمديّة :

تنسب هذه البدعة إلى « قاديان » إحدى قرى إقليم البنجاب بشبه
القارة الهندية ، وتنسب أحيانا إلى شخص مبتدعها « أحمد » القادياني ،
فيقال « الأحمديّة » •

وقد ولد غلام أحمد عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٩ م) من أسرة تنتمي إلى
الترك ، وهي في الأصل وافدة من سمرقند ، ولكن غلام أحمد أخذ ينسب
نفسه عندما بدأت دعوته إلى الفرس ويذكر أن أمه من سلالة الفاطميين •

وأسرة غلام أحمد كانت غنية تملك أملاكاً واسعة في « قاديان »
بالبنجاب ، ولكن أحد أجداده خسر هذه الأملاك في حرب ضد السيخ الذين
كان لهم نفوذ كبير في المنطقة ، وعلى أثر هذه الهزيمة طردت الأسرة من
قاديان •

وفي عهد سلطنة الانجليز بالهند تمتّ صفتة مشبوهة بين الانجليز
وبين والد غلام أحمد بهتقضاها أعاد الانجليز لرؤا مرتضى والد غلام
أحمد أكثر ممتلكاته في نظير أن تقدّم هذه الأسرة خدماتها للانجليز ضد
الهند من جانب وضد المسلمين في كل مكان من جانب آخر ، ويقول غلام
أحمد عن رد هذه الممتلكات « ٠٠٠ ثم رد الله إلى أبي بعض القرى في عهد
الدولة البريطانية » (١) •

وعن الخدمات التي كانت الخيانة طابمها يقول غلام أحمد :

« دلت الوثائق التاريخية على أن والدي وأسرتي كانوا من كبار الممثلين للحكومة الانجليزية من أهل عهدهما ٥٥ وقد قدم والدي ثروة مؤلفة من خمسين فارصا لمساعدة الحكومة الانجليزية في الثورة عام ١٨٥٧ وأنتج على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة ، وكان أخي الأكبر (غلام قادر) بجوار الانجليز على جبهة من جبهات الحرب ضد الثائرين الهنود (١) »

وتلك خيانة خطيرة من هذه الأسرة ضد الشعب الهندي ، الذي كانت أساحة الانجليز تحصده حصدا خلال هذه الثورة ، وغلام أحمد يثبت أن أسلحة هذه الأسرة ورجالها تعاونت مع الانجليز ضد الوطن الذي تعيش به هذه الأسرة . ان هذه الكلمات تنبئ عن خيانة وتنبئ كذلك عن وقاحة وفجور ، فما كان أجدره أن يخفى هذه الأحداث المخزية ، ولكن الرجل الذي تقوّل على الله وبحارب الاسلام ليس ببعيد عليه أن يحارب المواطنين ويتحدث عن هذه الحروب بهذه الروح المنحرفة .

ولنعد لحياة غلام أحمد لنذكر أنه تزوج مرتين ، وطلق الأولى التي انجبت له ولدين ، أما زوجته الثانية فجاءت بعد ادعاءاته الدينية ، ولذلك كانوا يطلقون عليها « أم المؤمنين » وقد انجبت له عددا من الأبناء .

وتأقت نفسه لزواج ثالث ، وحسد الفتاة التي أراد أن يتزوجها وأعلن أن ذلك قضاء الله واردة السماء ، وتحدى بذلك العالم ، وخابت نبوعته فلم يتزوج هذه الفتاة (٢) ، بل تزوجت سواه ، وكان ذلك كافيا لبيان ادعاءاته وأكاذيبه ، ولكن الذين يرحبون بالضلال كثيرون .

(١) كتاب البرية ص ٣ و ٥ .

(٢) أبو الحسن الندوي : القادياني والقاديانية ص ١٠٢ .

وكانت حياة غلام أحمد أقرب للفقير والفاقة بعد وفاة أبيه ، فلما بدأ دعواه انهالت عليه الدنيا من البسطاء والمخدوعين حتى انتقل بحياته الى الثرف والنعيم ، بل الى الأسراف والبذخ مما أثار عليه بعض أتباعه .

وعرف شباب غلام أحمد بانحراف صحى ونفسى ، فقد مرض بأمراض الهستيريا والنوبات العصبية ، وكان يعارض استعمال الدواء الأمراض ، ويزعم أن ارادة الله ينبغى ألا تقاوم ، والدواء مقاومة لارادة الله بالمرض .

مراحل ادعاءات القاديانى :

إن المطلع على تاريخ هذا الرجل يرى أنه اتخذ عدة مراحل فى ادعاءاته على النحو التالى :

١ — دعوة الاصلاح والتجديد وكان ذلك فى المدة (١٨٧٩ — ١٨٩١) وكان يزعم خلال هذه الفترة أنه مأمور من الله بإصلاح العالم ، والدعوة الى الاسلام ، وأنه يعمل لتجديد هذا الدين . وقد لاقى نجاحا عظيما خلال هذه المرحلة ، فالهند بلاد المعتقدات والخرافات والأساطير ، وهذا الرجل يدعى أنه ملهم ومأمور من الله ، وهذا رفع شأنه .

٢ — الادعاء بأنه المسيح الموعود ، وأنه جاء ليدك العقيدة الصليبية وليكسر الصليب ويقتل الخنازير .

وهذه الوعود الخلاية جذبت المزيد من اليله لاتباعه ، وقد كانت هذه المرحلة بين سنتى ١٨٩١ و ١٩٠٠ .

٣ — وفى المرحلة الثالثة وصل قمة الادعاء فقد قال عنه أحد مريديه ، ان الميرزا غلام محمد مرسل من الله ، والايمان به واجب ، والذى يؤمن بالأنبياء ولا يؤمن به يفرق بين الرسل ، وقد طاب هذا الادعاء للميرزا فعندما حصل خلاف بين أتباعه أمامه حول هذه المرحلة صاح فيهم

« لا ترزعروا أصواتكم فوق صوت النبي » وقال في كتابه « المسألة القاديانية ص ٢٨ » أنا نبي وفقا لأمر الله وأكون أثما إن انكرت هذا ، وكانت هذه هي المرحلة الأخيرة من ادعاءاته وقد بدأت من سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٨ .

وقد وصل الى قمة الكذب والادعاء عندما ذكر مقارنة بينه وبين سيد الخلق وضح فيها أنه رسل الى قمة الروحانية التي لم يَنكأها نبي قبله .

ومخافة انفضاض أتباعه عنه أعلن أن رسالته مؤيدة للإسلام لا ناسخة لشريعته .

وفيما يلي أهم معتقدات القاديانية :

— يرى القاديانية أن ميرزا غلام أحمد القاديانى مؤسس الحركة الأحمدية هو المسيح الموعود والمهدى المسعود وأنه رسول الله يوحى إليه (١) .

— الآيات القرآنية التي تنص على أن محمداً خاتم الأنبياء وأن رسالته خاتمة الرسالات يؤولها القاديانية ، فيرون أن الذي ختم هو نبوة التشريع لا نبوة التجديد والدعوة (٢) .

— وبناء على هذا يدعى غلام أحمد أنه نبي يوحى إليه ، ويكلمه الله (٣) ، ومن الفاظه في ذلك : أنا على بصيرة من رب وهاب بعثنى على رأس المائة لأجدد الدين وأنور وجه الملة ، وأكسر الصليب ، وأطفىء

(١) تحفة البغداد لمؤسس الجماعة في عدة أمكنة .

(٢) دعوة الأحمدية وغرضها لمؤسس الجماعة ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) الاستفتاء لمؤسس الجماعة ص ١٦ .

نار النصرانية وأنا المسيح الموعود والمهدى المعهود ، من الله على بالوحي
والإلهام ، وكلمنى كما كلم رسله الكرام (١) .

وقال الميرزا بعدم الجهاد للتحرر من الاستعمار ، وأوجب طاعة
الحكومة البريطانية المحتلة وقال عنها ، انها أقامت الأمن وأظلتنا بظلمها (٢) ،
وفسر قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين (٣) » بأن الربوة
هى السلطة البريطانية التى كانت لنا أمنا وراحة ومستقرا حسنا (٤) .

وهكذا حشيدت المراجع الأحمدية بصور من الضلالات الدينية
والخianات الوطنية ، ومات الزعيم دون أن يكسر الصليب كما وعد ، ودون
أن يجعل الاسلام يعم جوانب الأرض كما تعهد ، ومع هذا لا يزال له أتباع
يتعدشون بالملايين ، ولا يزال هناك دعاة يحملون هذه الدعوة الى بقاع
كثيرة من الأرض .

وربما احتاجت الأجيال الأولى فى صدر الإسلام الى دليل يبرهن على أن
محمدًا خاتم الأنبياء ، أما بالنسبة لجيلنا فقد برهنت الحياة العملية على
ذلك ، اننا نستعرض الأنبياء والمرسلين فنجدهم متلاحقين مع فترات
وجيزة بين هذا وذاك ، بل ربما وجد رسولان فى وقت واحد كما كان
إبراهيم ولوط ، وكما كان اسماعيل واسحق ، أما محمد فقد انقضى على
وفاته أكثر من أربعة عشر قرنا ، ولم يظهر فى خلال هذه الفترة الطويلة
من تحقق رسالته أو حتى من يدعيها ، اللهم الا الخرافة التى جاء
بها الأسود العنسى أو سجاح أو ذلك القاديانى ، وعلى هذا فكون محمد
خاتم الأنبياء والمرسلين شئ حققته الحياة العملية وبرهنت عليه الأيام كما
برهنت على سواه مما قال به محمد بن عبد الله .

(١) الاستفتاء لمؤسس الجماعة من ص

(٢) المودودى فى الميزان ص ١٩٥ .

(٣) المؤمنون ٥٠ .

(٤) الاستفتاء ص ٤٦ بالهامش .

أما الاسلام وكونه آخر الأديان ، فالسبب في ذلك أن هذا الدين حمل بين طياته أسباب خلوده ، إنه دين الدنيا والآخرة ، دين كل زمان ومكان ، وقد سبق أن أوضحنا هذا بمزيد من الشرح والبيان ، ودين كهذا ينظم حياة الفرد بالفرد وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة الفرد بخالقه ؛ دين متطور يستجيب لحاجات الناس في كل زمان ومكان في حدود مبادئه السمحة ، دين كهذا يحمل بين طياته — كما قلنا — أسباب خلوده ، وقد مرت القرون وستمر دون أن يجيء دين آخر ، وماذا سيحمل الدين الجديد للناس من عناصر لم يقدمها الاسلام للانسانية ؟

ومع هذا فهناك هذه الضلالات ، وهناك سواها من الانحرافات التي يكثر انتشارها في البلدان التي لم تزهز بها الدراسات الاسلامية بعد ، ومن واجب الحكومات الاسلامية والمصلحين المسلمين أن يعملوا جادين لإزالة هذه الضلالات ، ووقاية الفرد المسلم من خطرها وتحصينه بالفكر الاسلامي الصحيح ، ليكون نواة صالحة في المجتمع الاسلامي المنشود .

نهاية غلام أحمد :

توفي غلام أحمد القادياني في مايو سنة ١٩٠٨ ، وكان قد أجرى مباهلة مع مولانا « ثناء الله » فدعا كل منهما على الآخر ، وقد قبلت دعوات مولانا ثناء الله فأصيب غلام أحمد بالطاعون ، ومات في لاهور ونقل الى قاديان حيث دفن في مقبرة يسميها أتباعه « مقبرة الجنة » وكان عمره تسعا وستين سنة .

القاديانية بعد موت غلام أحمد

الحكيم نور الدين :

كان من أتباع غلام أحمد مريد اسمه « الحكيم نور الدين » وكان أبعد في الضلالة من شيخه ، وهو الذى كان يهيب الأفيكار والمعتقدات ويوحى بها الى غلام أحمد ، وكان غلام أحمد يعلنها بعد أن عرف سذاجة الكثيرين من أتباعه ، ولما كانه الحكيم نور الدين من الدعوة وصاحبها تولى قيادة هذا الإثم بعد موت مؤسس القاديانية ، وقد ظل هذا فى منصبه حتى توفى سنة ١٩١٤ •

الميرزا بشير الدين محمود :

هو ابن غلام أحمد ، وقد استخلفه الحكيم نور الدين قبل وفاته ، وبعد وفاة نور الدين تولى بشير الدين وكانت سنة خمس وعشرين سنة •

شعبتان :

ولم تلبث هذه الحركة الضلالة أن انقسمت إلى فرقتين :

١ - شعبة « قاديان » ويتزعمها الميرزا بشير نور الدين سابق الذكر ، وهى تسيّر سيرة الزعيمين الأولين وتقرر بوضوح نبوة غلام أحمد ، وفى هذا يقول ابنه : لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفذت ، ما قدروا الله حق قدره ، انكم تتنازعون فى نبي واحد ، وأنا اعتقد أنه سيكون هناك ألف نبي بعد محمد » (١) •

٢ - شعبة « لاهور » ويتزعمها محمد على اللاهورى ، من زعماء هذه الحركة ، وكانت هذه الشريعة لا تقول بنبوة الميرزا غلام أحمد ، ويؤمنون

بأنه المسيح الموعود ومجدد الاسلام والمهدى المنتظر ، ولم يكونوا مدفوعين لهذا الاتجاه احتراما للاسلام الحنيف ، بل كانوا يخافون أن تؤثر عقيدة النبوة في المسلمين الذين اتبعوا مخدوعين زيف هذه الحركة ، وتجعلهم ينفضون عن تأييدها ، فاتجاههم كان وسيلة للحفاظ على نجاح الحركة الزائفة ، ولكن ذلك لم يقبل من شعبة « قاديان » وبهذا يصف المفكرون هذه الشعبة بالمراوغة والنموض وخديعة المسلمين حتى لا ينفضوا عن الحركة بسبب مبالغات شعبة قاديان (١) .

والشعبتان تعمودهما الغشالة والأعراف ، والالتناء لأي منوما محظور على المسلمين ، ولم تكن هذه الحركة الاثريا دين - سياسية الاسلام ومحاربة الوطنية ، والاثبيدا للانجليز في الهند وفي كل مكان ذهب له هذا الاستثمار ، فلما خدع بهذه الحركة عدد من الناس أصبح من أهداف الحركة جمع المال والثراء على حساب المخدوعين .

دراستي في الأزهر

في أحاديثي عن الأسباب التي أضعفت المجتمع الإسلامي وتنبسب للدين ، ينبغي أن أقدم دراسة « شاهد عيان » فأقدم صورة دقيقة لحياتي بالأزهر ، فانها ستساعد على فهم هذا الموضوع مساعدة كبيرة . وأبدأ بأن أذكر أن العالم الاسلامي كله يهتم بالأزهر اهتماما كبيرا ، ذلك المعهد التقليد الذي خدم الدراسات الاسلامية ، واللغة العربية أكثر من ألف عام ، ولا يستطيع باحث يتحدث عن المجتمع الاسلامي أن يتخطى الأزهر دون أن يتحدث عنه قليلا أو كثيرا ، وإذا أهمله بعض الباحثين لسبب أو لآخر فإنه لا يستطيع إهماله وقد قضيت فيه أزهى فترة في عمر الانسان .

وأستطيع أن أقرر بادى ذى بدء أنه لو لم يكن الأزهر موجودا لتغير تاريخ المسلمين تغيرا كبيرا ، وجسبك أن تدرك أنه كان الملجأ الوحيد للعلم

(١) حسن عيسى عبد الظاهر : القاديانية : نشأتها وتطورها ص ١٥٩ - ١٦٤ باختصار وهذا الكتاب مفيد في موضوع القاديانية فقد عاين مؤلفه في جو من نشاط هذه الحركة ودرسها عن قرب .

في عصور الظلام الحالكة الطويلة التي مرت بالمسلمين ، لقد امتد الظلام اليه بلا شك ، ولكنه والحق يقال ظلت فيه شعلة من النور تغالب هذا الظلام وتقاومه ، وقد لعب الأزهر دورا كبيرا جدا في حياة المسلمين في جميع الأقطار ، ان مشعل النور الذي يقود المسلمين في اندونيسيا ويوجههم ، مصدره الاندونيسيون الذين تعلموا في أروقة الأزهر أو تفقهوا على شيوخ أو كتب وثيقة الصلة بهذه الأروقة ، وان انسياب الاسلام الى قلب افريقية كان أكثره على أيدي إفريقيين أو عرب عاشوا في رحاب الأزهر وتلقوا العلم فيه ، وقل مثل ذلك في جميع الأقطار الاسلامية دون استثناء .

أما فضل الأزهر على مصر فقد شمل الناحية الثقافية والناحية السياسية ، لقد كان الأزهر هو المدرسة الوحيدة بالعالم الاسلامي تقريبا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، فأى علم وأية ثقافة وأية معرفة منتظمة شاملة كانت لا تتبع إلا من الأزهر .

وكان الأزهر يحل مشكلات الطلاب المصريين والوافدين بسرعة هائلة ، فما ان يصل الطالب الى القاهرة ويتجه للأزهر حتى يجد حلا لكل ما كان يتخوفه من متاعب ، انه يجد في الأروقة حلا لمشكلة السكن ، ويجد في « الجراية » حلا لمشكلة الطعام ، ويجد في الحلقات المنتشرة في أرجاء الأزهر حلا للمشكلة العلمية .

وكانت الأروقة معدة لطلاب العالم الاسلامي كله ، فهناك رواق المنكرور ورواق جاره ورواق الأتراك ورواق الشام ورواق المغاربة وغيرها من الأروقة التي جعلت الأزهر أشبه بهيئة أمم .

وللمصريين هناك رواق البخاروة والشراقوة والصعايدة والفيومية .

وكانت هبات الناس لطلاب الأزهر كثيرة وموفورة من حين الى حين .

ولما بدأت النهضة الثقافية في مصر وبدأ ارسال البعث الى أوروبا

كان الأزهر هو المعين الذي اختير منه الطلاب للمعاهد التي أنشئت ،

وللمبعثات التي أرسلت وبعد أن انتشرت المدارس بمصر وكثرت الجامعات ظل الأزهر يمثل المكان الوحيد الذي يلجأ له الفقراء والمعوزون فيجدون العلم والعون المادى وطالما خرج من هؤلاء عباقرة كانوا قادة للأمة ومصدر توجيه ومنبع عرفان *

وفي حياة مصر السياسية لعب الأزهر دورا عظيما ، فمنه انبثق الصوت الذى هتف بالاستقلال ، وتبرعد المستعمرين ، وكان منبره منبر مصر ، وساحته ملتقى القادة والزعماء وطالما زلزلت الاجتماعات فيه أقدام الطغاة وهزت كيانهم ، ولهذا كان كثير من المستعمرين يضطرون الى مهاجمته أو مهاجمة المقاومة فيه *

ضعف بعد قوة :

لقد لعب الأزهر أخطر دور في خدمة الثقافة الاسلامية واللغة العربية طيلة قرون طويلة ، ثم استكان للأسف لنوم طويل أغرق فيه أحيانا مما سبب أن تتفوق عليه بعض المدارس والجامعات المصرية حتى في الدراسات الاسلامية التى تخصص فيها ؟ لقد سارت دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية والفلسفة الاسلامية والفقهاء الاسلامى والفقهاء المقارن والأدب العربى فى الجامعات المصرية شوطا طويلا ناجحا أخشى أن يرجح اذا قيس بما فى الأزهر اليوم من دراسات مماثلة ، وعندما فكّر الأزهر فى دفع زورقه للأمام لجأ الى أساتذة الجامعات المصرية ليعلموا به هذه العلوم ، ولكن جو الأزهر لم يسمح لهم أن ينهضوا بهذه الدراسات فيه نهضتهم بها فى الجامعات المصرية ، فتوقفوا ، عن استمرار العمل ، وقد كنت شخصا واحدا من هؤلاء *

وأنا بطبيعتى الشخصية والثقافية عميق الصلة بالأزهر ، ولهذا فعندما أكتب عنه أكتب بحب ورفق ، وإذا انتقدت كان نقدى بناء ، وأنا دائما أرجو أن يعود لهذا المعهد العريق رونقه وبهاؤه ، وفي السطور التالية وصف شاهد عيان لحقبة أمضيتها بالأزهر ، وهى تعد من أنصر العهود الأزهرية

!! كان بها من دقة في التعليم ودقة في الامتحانات ، ومع هذا فلننظر ماذا كان بها .

لقد عشت في الأزهر تسع سنين ابتدأت وسنى حوالى خمس عشرة سنة ، وانقضت وأنا في الرابعة والعشرين وفارقت الأزهر بعد ذلك . ولكنى في الحقيقة ظلت متصلا به ، متصلا به بثقافتى وبأصدقائى وأقاربنى الذين يتعلمون ويعلمون فيه .

وبمناسبة سننى فى الأزهر أذكر أننى سئلت مرة فى أوربا هذا السؤال :
ما أهم الأحداث والمفارقات التى حدثت لك بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ؟

وسألت أنا بدورى : لماذا تقصدون هذه الفترة من العمر ؟

وتلقيت الجواب : انها فترة الشباب المضطرب : مجازفات ، رحلات ، رياضة ، حب ، أخطاء ، أزمات نفسية ، خيال ، أمل ، تردد ، إقبال ، وفكرت فى هذه السن وفى حالتى وقتها «أجبت : لم تمر على هذه الفترة بعد .

وقال محدثى بمكر . هل لم تصل بعد الى الثامنة عشرة ؟

قلت : لقد وصلت فى حساب الزمن ، ولكنى كنت فى هذه الفترة طالبا بالأزهر ، فلم أعرف المجازفات ولا الرحلات ولا الرياضة ولا الحب ولا الخيال ولا الأمل وانما عرفت ألقىة ابن مالك والمتون والشروح والحواشى ، وكنت طالبا مخلصا للعلم ، فكانت هذه الدراسات هى على الذى فتحه لى الأزهر دون أن يفتح لى بابا سواه .

رحمة الله على هذا الشباب الذى ذوى بين هذه الجدران !

ولنعد للقصة من أولها :

وأنا بطبيعة الحال لا أقصد بسرد موجز لدراستي في الأزهر أن أروى قصة شخصية ، فمن حق القارىء ألا أشغله بأشياء خاصة بى ، ولكنها قصة الأزهر كما رأيته وراه معى الآلاف من الطلاب ، أو بعبارة أخرى هى سبب من الأسباب التى أدت الى ضعف المجتمع الاسلامى .

ولعل من حقى أن أقرر أن معرفتى بالأزهر كانت أعمق من معرفة الجماهرة الغالبة من الطلاب به ، وسبب ذلك أننى كنت طالبا حريصا الحرص كله على العلم ، وكنت أتمتع بجانب من الذكاء لا بأس به ، ولأضع لك هذه الحقائق فى أرقام أدق بياننا وايضاها ، أقرر أننى لا اذكر أننى تخلفت درسا واحدا ولا يوما واحدا طيلة هذه السنين ، وأننى كنت أول الناجحين فى جميع الامتحانات التى دخلتها بالأزهر ابتداء من الفرقة الثالثة الابتدائية حتى أنهيت القسم الثانوى ، أما فى الفرقة الأولى الابتدائية فكنت الثالث ، وكنت الثانى فى الفرقة الثانية ، ثم أصبحت الأول بعد ذلك ، ويدخل ضمن هذه الامتحانات السبع التى كنت أول الناجحين فيها امتحانات الشهادات العامة على جميع المعاهد الأزهرية فى القطر كله ، وكان يتقدم لامتحان هذه الشهادات عدة آلاف من الطلاب .

لقد منحت الأزهر كل نفسى ، وأقبلت عليه اقبالا نادرا ، وكنت موضع تقدير الشيوخ وحبهم ، فماذا منحنى الأزهر ؟ وماذا منحنى هؤلاء الشيوخ ؟ وماذا لحقنى من الحرمان بسبب التحاقى بالأزهر ؟

الجواب فى ايجاز تام غير مغل ، وبانصاف شامل هو :

حرماننا الأزهر حرمانا تاما كل تفكير فى الناحية الاجتماعية والحياة العامة ، لم يكن فى أزهرنا حفلات ولا رحلات ولا رياضة ولا آمال ، وانما كانت الدراسة أشبه بعملية ميكانيكية لا حياة فيها ولا طعم لها ، ولم تكن الصحف تعرف طريقها الى الأزهر ، فاذا اشترى طالب صحيفة الجهاد أو

الأهرام كان موضع القيل والقال ، مع أن مكاتب الصحف كانت تردحهم بمحررين من الأزهر ، ولكن هؤلاء كانوا أشبه بالمتبردين على التقاليد .

وهكذا أمغينا هذه الـ « بيننا وبيننا » بيئية محدودة ، ودلناهم زهدنا ، وأبناهم حسن ، وننا في المجتمع المصري نكون طبقة تكاد تكون « مغلقة » لها زيتها الخاص ، وانظما للمهذبة . كما أن لها تفكيرا اجتداعيا بل أن ينسجم مع تفكير الآخرين .

أما من الناحية العلمية فان الأزهر لم يمنحنا قط شيئا يتناسب مع سننا وثقافتنا حينذاك ، وانما أعطانا الأزهر علما انتفعنا به ولكن بعد سنين طويلة من تحصيله ، أو أعطانا علما لا نفع فيه على الاطلاق ، ولعل من الانصاف أن أثبت أن كثيرا من العلوم التي أنتفع بها الآن قد حصلت عليها بين جدران الأزهر ، وقد كانت حينذاك ألعازا ومعميات فأصبحت الآن زادا علميا كثير الخير .

ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الاطلاق علم الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات ، ولكني لم أعرف منه شيئا عن « الله » ذا بال ، وانما انعمت في اصطلاحات زادت تفكيري غموضا واضطرابا حتى تمنيت ايمان العوام ، بل العجيب أن أساتذتنا كانوا يحسنون لنا ايمان العوام ، ذلك الايمان الشاحب الهزيل اذا جاز أن نطلق عليه كلمة الايمان . وبدأت أدرس المنطق وانتهيت منه ، دون أن أنال منه قليلا من المعرفة أو كثيرا .

وحفظت قطر الندى وألفية ابن مالك وغيرهما من المتون عن ظهر قلب ، ثم خضت في شروحيهما ، ثم ارتقيت الى الأشموني فالصبيان ، وأذكر أنني كنت مرة غارقا في استذكار باب التصغير بما فيه من فروض وتعقيدات فصادفت بعض مشكلات عسيرة لم أستطع فهمها ، فشكرت الى زميل يكبرني سنا ودراسة ، وكنت أجهله لأنني كنت أراه ينشر بعض مقالات

في مجلة « الرسالة » ويظهر اسمه بها فيشير زوبعة من الاعجاب عند بعض الناس ، وزوبعة من الحسد عند بعضهم ، وعاصفة من السخط عند من رأوا اللغة قواعد ، وعدوا هذه الآداب مضيعة للغة .

سألت هذا الزميل عما صادفني من مشكلات في باب التصغير ، فوجدت بأنه سيقدم لي الاجابة بعد دقائق ، وبراً بوعده ، فما هي الا دقائق قليلة حتى عادلي يحمل بضعة من الكتب ، وضعها أمامي وقال لي : اقرأ هذه الكتب ، فهي مختلفة الموضوعات فاذا وجدت بها اسما مصغرا كان من الممكن أن تضعه وقتك في دراسة باب التصغير ، واذا لم تجد اسما مصغراً كان عليك أن تترك هذا الباب إلى الأبد . وترك هذا الزميل معي هذه الكتب وانصرف .

وداخلى شعور مضطرب بين أن أثور عليه لأنه يريد أن يبعث في الشكوك في العلوم التي وهبتها نفسي وروحي ، وبين أن أنتفع باتجاهه وأستفيد بتجاربه ، ولكني قرأت في هذه الكتب على كل حال ، وعانيت وأنا أقرأ فيها وفي سواها من كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ أن أحاول أن أجد اسما مصغرا ، ولكن هيهات !

وانقلب تفكيري الى غير باب التصغير فشملم باب الاعلال والابدال والترخيم وغيرها من الأبواب ، بل تعدى الى النحو والبلاغة .

وكنا في البلاغة ندرس كتابا كبير الحجم كثير الأجزاء اسمه « السعد » وحدث مرة أن التقيت بقريب لي كان تلميذاً بالمدارس الثانوية التابعة لوزارة التربية والتعليم ، وكنت أحمل أجزاء الكتاب الأربعة ، فسألني : ما هذه ؟ فقلت : كتاب السعد في البلاغة . ودعش قريبي وظن أن معرفتي بالبلاغة ترجح معارفة عشرات المرات ، وصادف أنه كان يستذكر درس البلاغة قبل وصولي ، في الكتاب المقرر عليهم « البلاغة الواضحة » وصعب عليه اجراء استعارة ، فاستعان بي لأقدم له العون وما كنت أستطيع ذلك ، لأن اهتمامنا في الدراسة لم يكن يرمى الا الى فهم ألفاظ

السعد وعباراته ، أما المادة في ذاتها فلم تنل من المؤلف ولا من المدرس عناية قليلة أو كثيرة ، وهكذا عجزت عن افادة قريبي ، ونضح عرقى ، وإن كانت لم أعدم وسيلة التفاضل برسما على حرمة السعد ، وعلى مساء

وكتبت أقراء كلام الله سبحانه وأثذرت أو قل اتذوق أكثره ، فإنا قرأت التفسير استعجم على التفسير والقرآن معا ، وقد أوردت فيما سبق نماذج من أقوال المفسرين .

وكان هناك درس يسمى أدب اللغة ، وكان علينا أن نحفظ فيه أن الشعر ضعف في هذا العصر وقوى في ذلك ، وأن الكتابة والخطابة كان حالهما كذا وكذا ، أما الشعر نفسه وأما النثر نفسه ، فلم نر منهما الا قليلا مما ورد في النصح أو الموعظة . وأما الكتب التي ألفت في هذه العصور فلم نسمع ولا حتى عن أسمائها .

أما من جهة المشايخ ومقدار انتفاعنا بهم ، فإني أفتر نتيجة لمحق صلتني بالكثيرين منهم ، أن أغلبهم كان يتمتع بخلق شخصي رائع . كان من الممكن أن يعد الكثيرون منهم نماذج طيبة من هذه الناحية ، واكن الناحية المهمة التي تعنينا ، ناحية كونهم مدرسين ومربين ، فانه لم يكن بينهم الا القليلون جدا الذين استطاعوا أن يمسوا نفوسنا ، ويصلوا الى أعماقنا ، وقل منهم من كان له تأثير روحي فينا ، وربما يكون من الانصاف أن نلتمس لهم المذر في ذلك ، فالتربية الحقة هدف سام ، والطاقة الروحية غاية بعيدة المنال ، ولم تتح الفرصة لهؤلاء ليترودوا بهذا الزاد ، واذا كان بعضهم قد أتبع له قسط من ذلك فانه كان نتيجة كفاح شخصي وموهب ذاتية ، والحق أنني كانت لي معرفة شخصية بباقة من هؤلاء ، الشيخ شويخ ، والشيخ أحمد المصطفى ، الشيخ عبد السميع شيبانة ، الشيخ سيد

وهن الشخصية الطيبة فإن أغلب ما كانت تربية عليه عناية المدرس من ألقاظ الكتابة ، والمزود للمدرس والطلاب إذا كان المؤلف — وكثيرا ما

كان المؤلفون - ركيك العبارة ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، ركيك ، ما كانت الفكرة واضحة لنا جلية ، ولكن العناية بالذكره لسم تدل على درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الإلتناظ أسسه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هي العلم كله .

والعجيب ؛ ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر أو عانى كتبه . أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبتَ تقرأ الشرح عجزتَ عن فهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبتَ إلى الحاشية والتقريب قابلتَ ألفاظا ومعانيات . هل يريد القارئ أمثلة تؤيد ذلك الادعاء ؟

إن قارئى على كل حال أحد شخصين ، ان كان أزهريا فقد عانى من ذلك الشيء الكثير ، وان كان غير أزهرى فلن يكون له صبر لقراءة هذه الأساليب ، وعلى كل فلننطع نموذجا قصيرا لموضوع يعرفه القارئ أيا كان اتجاهه الثقافى ، مقتبسين هذا النموذج من :

متن « المنهاج » لأبى زكريا يحيى النواوى

وشرحه « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » لابن حجر .

وحاشية الشرنوانى على ذلك الشرح للشيخ الشرنوانى .

يبتدىء النواوى متن المنهاج بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم .

ونحن لا شك نعرف هذه الجملة قبل أن ندخل الأزهر ، ونبدأ بها كثيرا من أعمالنا ، ونحس بمعناها ان لم يكن تفصيلا فاجمالا ، نحس أنها تفيد الاستعانة بالله فى هذا العمل الذى نبذؤه .

ولكن ابن حجر يشرح هذه الجملة كلمة كلمة ، ولناخذ مثلا للكلمة الأولى منها ، إذ يقول ابن حجر عنها :

(باسم) أى تألف أو أفتتح تأليفى . والباء للمصادمة ، ويصح

كونها للاستعانة نظرا الى أن ذلك الأمر المبدوء باسمه تعالى لا يتم شرعا بدونه • وأصل اسم سمو من السمو وهو الارتفاع ، حذف عجزه وعوض عنه همزة الوصل ، فوزنه افح ، وقيل اقل من السيماء وقيل اعل من الوسم ، وطولت الباء لتكون عوضا عن الحذف ، وهو إن أريد به اللفظ غير المسمى اجماعا ، أو الذات عينه ، كما لو أطلق ، لأن من قواعدهم أن كل حكم ورد على اسم فهو على مدلوله ، أو المصفة كان تارة غيرا كالخالق ، وتارة عينا كالله ، وتارة لا ولا ، كالعالم ، ولم يقل بالله حذرا من ايهام القسم ، وليعم جميع أسمائه تعالى •

وينتقل ابن حجر بعد ذلك الى كلمة (الله) ثم الى كلمة (الرحمن) وهكذا •

أما الشرنوانى فيخصص ثلاث صفحات من الحجم الكبير ليعلق على شرح ابن حجر لكلمة (باسم) وهذا التعليق يتناول تقريبا كل كلمة من كلمات ابن حجر ، ونقتبس من هذه الحاشية تعليق الشرنوانى على الكلمة الأولى من كلمات الشرح :

(قوله أى أولف) بيان لمتعلق الباء على أنها أصلية ، وقيل زائدة فلا تتعلق بشيء ، فمدخولها مبتدأ والخبر محذوف ، أو بالعكس والأول أصح ، فالمتعلق إما فعل أو اسم ، وعلى كل إما خاص أو عام ، وعلى كل إما مقدم أو مؤخر ، وأولى هذه الاحتمالات الثمانية أن يكون فعلا لأنه الأصل في العمل ، ولقلة الحذف عليه ، وأكثره التصريح بالمتعلق فعلا ، وأن يكون خاصا لأن الشارع فى شيء إذا ضمير فى نفسه لفظ ما جعل التسمية مبدأ له ، فالمتعلق المسافر يلاحظ أسافر ، والآكل يلاحظ أكل ، وهكذا • وأن يكون مؤخرا ليوافق الوجود الذكرى للوجود الخارجى ، وليفيد القصر كما فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وإنما قدم فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » لأنه مقام ابتداء القراءة وتعليمها لأنه أو لما نزل ، فكان الأمر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض ، وكثيرا ما ترجح فى البلاغة

الأهمية العرضية على الأهمية الذاتية إذا اقتضى الحال ذلك كما هما . ولم يقتصر الشارح على المؤلف مع أنه أولى ، لما مرّ ولتعمق البرسة جميع التأليف بخلاف مادة الامتحان مثلا ، فان البركة خاصة بالابتداء للإشارة الى جواز تقديره عاما وان كان الأرى تقديره خاصا .

* * *

وبعد . إذا كان القارىء قد ضاق بهذه السطور فانى أذكّره أننى أمضيت تسع سنين كادحا في هذا العناء ، واذا كان بعض الطلاب قد أهملوا أو اكتفوا بالقليل . فقد كنت حريصا على السبق ، وهذا دفعنى الى مواصلة العمل ، ومحاولة تحصيل كل شىء ، واذا كان أستاذنا الامام محمد عبده ثار على دراسات الأزهر عندما عرفها فان ثورتى لم تأت الا متأخرة ، بل انها — والحق يقال — لم تكن ثورة وانما كانت نقدا هامسا خفيفا . تسألنى لماذا ؟ فأجيب انه ربما يرجع الى نوع من الهدوء فى الطبع من جهة ، ومن جهة أخرى أننى كنت عقدت العزم على أن أتعلّم ، ولم يخطر ببالى قط أن أوثر الزراعة على العلم كما خطر ببال أستاذنا الامام ، ثم لم يكن أمامى مكان للتعليم الا الأزهر لعامل لادخل لى فيه هو عامل السن ، فان أبى كان قد مات فى طفولتى المبكرة تاركا لنا ثروة لا بأس بها وتجارة كبيرة اذا قيست بمتاجر الريف ، ولما كنت الابن الوحيد لأبى فقد اتجهت الأنظار الى إعدادى لمواصلة هذه التجارة ، وهكذا لم يثُحِقنى أهلى بالمدارس فى سن مبكرة حتى وصلت الخامسة عشرة ، وأحسست بعدم الميل للتجارة وبالرغبة الجارفة فى التعلم ، ولم يكن هناك معهد علمى يقبل الطالب فى هذه السن المتقدمة إلا الأزهر .

ولم تختم حياتى بالأزهر الا بمظلمة وقعت علىّ ، فند اتجهت وأنا بالقسم الثانوى الى قراءة بعض كتب الأدب ودواوين الشعراء ، فقتربت عندى ملكة أدبية لا بأس بها ، والمهم أننى عندما وصلت المرحلة الرابعة بالقسم الثانوى كتبت خطيبا معروفا بين خطباء الطلاب ، وكنت عضوا

بارزا في اللجان التي كانت تعنى بالمسائل العامة السـياسية والأزهرية ، فلما وصلت الفرقة الخامسة وهي آخر فرقة في القسم الثانوى كنت أهم خطيب بين الطلاب ، وكانت مقاليد الحركات كلها في يدي ويد نخبة من الطلاب يتعاونون معى ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقي المعاهد الأزهرية وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفي تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التي تتبع ، أو تسأل رأيى عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد لنفسه سامحه الله — ولن أذكر اسمه هنا اثفاقا عليه من حساب التاريخ — أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلننا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، كان يعتقد أن الانتظام في الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد يئيله حظوة عند بعض ولاة الأمور ، حظوة تقدير لحزمه على الأقل ، فأنزل بزعماء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول . أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمى ورضاء جميع الشيوخ عنى فكانت عقوبتى الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه ، وأعدت نفسى للامتحان ، في حين كان كثير من رفاقى قد نجح في الدور الأول .

وقد قويت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية دار العلوم بعد نجاحى الفائق فى ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجموع للدرجات فى هذا الامتحان ، وقد وجدت أن بعضا من آثار الدراسات الأزهرية قد تسربت إليها ، ولكن ذلك كان قليلا اذا قيس بما حققته في ميادين أخرى علمية واجتماعية .

تسع سنين قضيتها فى الأزهر ، فيها عمل يكاد يكون متصلا وفيها جد لم يعرف التوانى ، كنت أعمل صيفا وشتاء ، فلما شببت ونفضت الطوق ،

وانجابت عن بصرى الغشاوة ، بدأت أفكر فى الربح والخسارة ، فماذا رأيت ؟

فى كفة الربح نضع ما ذكرناه من قبل من علوم ومعارف كانت عندما تلقيناها ألعازا ومعميات ، ولكنها أصبحت عندما تقدمت بنا السن والثقافة زادا علميا كثير الخير .

وفى كفة الخسارة نذكر ذلك التكرار الملل فى النحو والصرف وفى الفروع الافتراضية بالفقه ، ونذكر كذلك علم المنطق ، وسوء الطريقة فى تفسير القرآن الكريم ، كما نذكر الحرمان التام من اللغات الأجنبية ومن قراءة كتب الأدب كالأغانى والعقد الفريد ، والحرمان من دراسة الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى . وفقه المذاهب .

وانتهيت من كلية دار العلوم حاصللا على الليسانس مع درجة الامتياز ، فأتاح لى ذلك أن توفدنى جامعة القاهرة للدراسة بأوروبا ، فالتحقت بجامعة لندن ثم بجامعة كمبردج ، وكافحت كثيرا لأثبت قدمى ، وأرجو أن أكون قد وقفتُ وعودتُ ما فاتنى .

هل تغير الأزهر والأزهريون بعد ذلك ؟

الجواب عندى فيما يتعلق بالأزهر بالنفى ، وفيما يتعلق بالأزهريين بالايجاب ، فالذى شكنا منه الامام محمد عبده من سوء المناهج شكونا نحن منه ، ولا يزال الطلاب منه يشكون (١) ، أما فيما يتعلق بالأزهريين فان تغييرا واسعا قد حدث ، فالطالب الأزهري لم يعد منعزلا كما كان من قبل ،

(١) صدر سنة ١٩٦١ قانون جديد قيل أنه يتجه لتطوير الأزهر ، ولجعله جامعة تشمل كل غرور الثقافات ، والذى يهينا هنا هو مدى ما حصلت عليه الدراسات الاسلامية والعربية من تطور فى ظل هذا القانون ، والحق أن هذا القانون أضر بهذه الدراسات أبلغ انضر ، فأحسن الطلاب بانقسم الثانوى يتجهون لشعبة العلوم وبالتالي لكليات الطب والهندسة والعلوم ، ولا يبقى لكليات الأزهر الاصيلية (اللغة العربية والشريعة وأصول الدين) الاضعاف الطلاب ، وهناك عيوب اخرى كثيرة لهذا القانون شرخناها عند الحديث عن هذا القانون فى الجزء التاسع من « موسوعة التاريخ الاسلامى » .

لقد تسربت اليه الثقافة العامة التي انتشرت بالقطر كله ، ووجدت الصحف والمجلات طريقها إلى الأزهر ، ويُعَدُّ الطلاب الأزهريون أكثر الطلاب المصريين اقبالا على المحاضرات العامة ، ولم تعد دور الخيالة حراما أو في حكم الحرام كما كانت من قبل ، ونشطت بالأزهر الألعاب الرياضية وغيرها من عوامل التقدم والتطور ، ثم حدث شيء ذو بال ينعم به طلاب الأزهر الآن ولم يكن شائعا من قبل ، فمنذ أصبح التعليم في مصر مجانا أو قريبا من المجانية ، أقبِل الطلاب الفقراء على مدارس الحكومة ، وشقوا طريقهم الى الجامعات المصرية ، وقام بجانبهم أخوة لهم أو أقارب يتلقون العلم في الأزهر ، وعلى هذا نجد الآن طالبا بكلية الطب يسكن مع أخيه الأزهرى وابن عمه الطالب بكلية الآداب ، ولم يكن ذلك شائعا من قبل اذ كانت المصروفات المدرسية تقسم المجتمع المصرى الى طبقتين ، طبقة الأغنياء واليهيم وحدهم ييسر التعليم بالمدارس والجامعات ، وطبقة الفقراء ، وليس لهم ملاذ إلا الأزهر • واختلاط الأزهريين بطلبة الجامعات كان مصدر نفع مزدوج •

وهذا كما قلت تطور من جهة الطالب نفسه ، أما المحاولات التي تبذل لتعديل مناهج الأزهر فلم تقدر لها بعد عوامل النجاح •

وبعد ، هل يسمح لى حضرات المشايخ بالأزهر الشريف أن أذكرهم بحقيقة أعتقد أنها لا تغيب عنهم ؟ هي ان الذين خدموا الدراسات الاسلامية والدراسات العربية ، وأبانوا للناس ما فى الدين من جمال • وما فى لغة القرآن من حلاوة وطلاوة لم ينبت أكثرهم فى بيئة أزهرية ، وقليل أولئك الذين نبتوا فى هذه البيئة ولكن سرعان ما تنكرت لهم تربة الأزهر وانقلبت تحاربهم ، ولسنا فى حاجة الى أن نذكر اسم جمال الدين الأفغانى وخودا بخش ومحمد عبده وسيد أمير على وهيك والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وفريد وجدى وغيرهم ، ولسنا فى حاجة كذلك الى أن نشير الى ما يخرجها أساتذة الجامعات المصرية ومدرسوها من كتب حية فى الدراسات الاسلامية المتنوعة ، أعتقد أن ذلك غنى عن البيان ، ولكنى أثبت بكثير

من التقدير المنتاج الذي بدأ الجيل الأزهرى الجديد يسهم به في النهوض بالثقافة الاسلامية ، ولا نزاع أن الأجيال الأزهرية القادمة تستطيع أن تحقق نجاحا أوسع ، لو أُصْلِحَت المناهج وبذلت عناية جدية باللاتجاهات الأجنبية واستقامت طرق التدريس ، ونظم التربية بهذا المعهد التليد .



إن الغيورين على الأزهر يتحتم أن يبذلوا جهداً عظيماً حتى يستطيعوا أن يفخروا بحاضر الأزهر كما يفخرون بماضيه ، ولن يدوم مجد يتحدث عن الماضي إذا لم يكن معه حاضر مشرق ، ومستقبل مأمول ، وينبغي أن نتذكر دائماً أن الأزهر كان وحده في عصور الظلام ، ولكنه الآن يعيش في خضم من المنافسات ، وذلك يستدعى محاولة التفوق دائماً فالبقاء في النهاية للأصلح .

خاتمة :

وهكذا تدهور العالم الاسلامى تحت عبء الأسباب السياسية الداخلية والأسباب الخارجية والأسباب التى تنسب ظلما للدين الحنيف ، هذه الأسباب التى اصطاحت على النيل من الاسلام ووالت ضرباتها ضده ، ونالت منه .

وجاءت بعد ذلك أجيال من الناشئين ، فرأوا ما آل له أمر العالم الاسلامى ، رأوه مملوءاً بالمساوىء ، فيه ضعف وفيه حسد ، وفيه رشوة ، وفيه رجعية ، وفيه تأخر ثقافى ، ورأوا رجال الدين يحرسون الرجعية ويسير الكثيرون منهم فى ركاب الملوك والرؤساء ، ولم يكن هؤلاء الناشئون يهرفون عن روح الاسلام ، وأخلاق الاسلام ، ومبادئ الاسلام ، وفلسفة الاسلام شيئاً ، ولم يجدوا فى بضاعة رجال الدين ما يجذبهم إلى دراسة الاسلام ، ولم يأخذ أحد بيدهم إلى الغزالي وابن مسكويه وابن القيم . وعرفَ كثير من هؤلاء بطريق أو بآخر حضارة أوربا وتقدمها ، فكفروا بالشرق ، وتنكروا للإسلام ، بل صرح بعضهم أن الدين هو أساس ما نعانيه من تأخر وتخلف ، وأن لا أمل فى أن ينال الشرق مكانة مرموقة ، وهكذا أصبح كثير من الناشئة ، بل من المثقفين معاول تأخذ بنصيب وافر فى هدم صرح الاسلام وعرقلة تقدم الشرق .

يا الله !!! كيف استطاع العالم الاسلامى أن يصمد أمام هذه العواصف الهوجاء ، والأعاصير القاسية التى هبت عليه من كل اتجاه ، كيف ؟ إنه أنت يارب بحميتة ورحيمته ، ولو تخلت عنه عينتك لهوى وانكسر صرحه ، أمام هذه القوى الهائلة التى تعاونت ضده من الداخل والخارج .

الباب الخامس

الطريق إلى الإيضاح

مقدمة :

يبدل الطبيب أقصى جهده في فحص المريض ليتعرف أسباب دائه ومبعث آلامه . حتى اذا أدرك هذه الأسباب وعرف كنهها ، استقطع أن يقرر مدى الأمل في شفاء المريض ، فاذا ضعف الأمل أو انقطع استسلم الطبيب وانتظر المريضُ القدرَ المحتوم ، واذا قوى الأمل بدأ الطبيب يصف الدواء ، ويقود مريضه الى ساحل النجاة .

ونحن قد ورثنا عالما اسلاميا هزيلا شاحبا ، وذهبنا نتقصى أسباب ضعفه ودواعى هزاله ، حتى ظهر لنا مصدر الدواء ومنبع الشكوى ، ويقودنا ذلك الى التساؤل .

هل من أمل في النجاة ؟ وما الطريق الى الاصلاح ؟

وعن السؤال الأول نجيب في قوة واصرار : نعم هناك أمل كبير في النجاة ، وان المريض - مع أن المرض قد طال عليه واصطلحت عليه الآلام - فتى القلب شديد البنية ، قاوم يوم كانت الأعاصير تهب عليه قاسية مهلكة ، حتى اذا بدأت طلّات النور انتفض كالطير كان هاجعا في ظلام الليل فلما تفرق ضوء الفجر صفق وهتف مرحبا بالصبح ، فالأمل في النجاة قوى ، برهن عليه المريض نفسه عندما دب فيه النشاط وعاودته العافية مع أنه لم ينل بعد الا الجرعات الأولى من الدواء .

تلك هي الاجابة عن السؤال الأول ، كلمة واحدة قوية حاسمة : نعم ، هناك أمل كبير في النجاة ، أما الاجابة عن السؤال الثانى ، أما وصف الدواء ، فيحتاج الى عناية وتوفيق ، فالطريق الى النجاة لازال مملوءا بالأشواك ، ونحن المسلمين نعرف العقبات الجسم التي يجب أن نتخطاها ، ونذكر المشكلات التي تعوق سير القافلة ، ولكننا عقدنا العزم على أن نناضل حتى نصل بالعالم الاسلامى الى المكانة الجديرة به .

على أنى أحس بفيض من التفاؤل وكثير من الأمل في أننا سنحقق غايتنا بشيء من اليسر والسهولة ، ذلك لأن أماننا صورة المجتمع الاسلامى في عهده الزاهر ، وأماننا عناصر ازدهاره ومقومات نجاحه ، وأماننا

كذلك صرورة واضحة عن الأمراض التي هاجمت هذا العالم ، وشوهرته وأوشكت أن تفتك به ، فليس علينا إذا أردنا أن نعيد صرح المجتمع الاسلامى الا أن نداوى المرض ونزيل الشكوى ، ثم أن نتقبس عناصر الازدهار فى المجتمع الاسلامى الأول لنهتدى بها فيما نحن بسبيله من عمل .
ومن الواضح أننا لا نقصد أن نبنى مجتمعا اسلاميا على نفس الصرورة التي كان عليها المجتمع الاسلامى الأول ، فان الظروف التي نعيش فيها الآن تختلف فى كثير من الاتجاهات عن تلك الظروف التي تكوّن بها ذلك المجتمع الاسلامى الأول ، ولكن الذى نقرره بادىء ذى بدء هو :

أولا — أن نهتدى فى تكوين المجتمع الاسلامى الحالى بالعناصر التي حققت للعالم الاسلامى الأول ازدهاره ورفاهيته .

ثانيا — أن النظم الاسلامية تحمل فى طياتها فكرة التطور لتناسب كل زمان ومكان ، فالأساس هو لا يتغير ، ولكن شروحه وتثريعاته عندما يحسن استغلالها ستمدنا بكل ما يحتاجه المجتمع الجديد من مقومات النجاح .
وعلى ذلك فالدراسة القادمة ستقتبس التوجيهات من الدراسة السابقة ، وستعالج الدراسة القادمة الموضوعات الآتية التي هي فيما أرى أبرز الأسس للإصلاح المنشود :

أولا — إعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة .

ثانيا — العودة للتعرف على أسس تكوين المجتمع الاسلامى واهيائه
هذه الأسس والتمسك بها .

ثالثا — القضاء على الأسباب التي ذكرناها من قبل والتي أدت لضعف العالم الاسلامى .

رابعا — الاصلاحات العلمية .

خامسا — الجامعة الاسلامية

وستتحدث بشيء من التفصيل عما يلزم تفصيله من هذه الموضوعات :

أولاً - إعادة تكوين الفرد المسلم والأثرية المسلمة

بَعْدَ المسلم عن الاسلام بعدا شاهقا حتى أصبح في كثير من الأحوال لا يحمل من الاسلام الا اسمه ، وهناك مسلم آخر خضع لتقاليد لا يعرف مصدرها ولكنه يتبعها على أنبيا الاسلام وهي ليست من الاسلام في شيء ، ولذلك كان لابد علينا أن نعيد تكوين الفرد المسلم ، وأن نأخذ بيده الى دائرة الاسلام السهل الصحيح .

وتكوين الفرد المسلم في زمننا هذا مخالف لتكوين الفرد المسلم الذي تمَّ في مكة ، اذ أن الظروف والأحوال تختلف الآن عما كانت عليه منذ أربعة عشر قرنا . لقد نقل الاسلام العربي في مكة من السيف الى المسألة ، ومن القوة الى القانون ، ومن الثأر الى القصاص . . . ولكن المسلم الذي نريد أن نعيد تكوينه الآن ليس هو العربي الذي كان يلجأ الى السيف ، ويخضع للقوة ويخضع بها غيره ، ويدين بالثأر ، انه المسلم في جميع بقاع الأرض عربية وغير عربية متمدينة أو متخلفة ، نريد أن نعيد هذا المسلم الى رحاب الاسلام ، أو قل نريد أن نحمل له رسالة الاسلام ونزفها اليه (١) ، نريد أن نساعده ليرفع الصدا عن نفسه ، وأن يزيل عن كيانه الخرافات التي يعتقها على أنها الدين .

اننا ننظر الى العالم الاسلامي فنرى للأسف ألوانا من الرذائل تفشت فيه أكثر مما تفشت في أي مكان آخر ، وكثيرون من غير المسلمين يرتبط عندهم العالم الاسلامي أو قل : يرتبط عندهم الاسلام بهذه الرذائل ، ارتباط النهار بالضوء والليل بالظلام ، فاذا ذكر الاسلام تمثل لهم الجهل

(١) نشير هنا على القارئ ان يطالع كتاب « الاسلام » من سلسلة

« مقارنة الأديان » للمؤلف .

والحسد والبغضاء والطبقة والرثوة وغيرها من الصفات الذميمة .
نريد أن ندحض هذه الفرية ، ونزيل هذه العشاوة ، ونعيد الأمور الى نصابها :
أن نذكر من تعاليم القرآن ما يحقق الحق ويبطل الباطل ، ويبرز توجيه
الاسلام في هذا السبيل ، ثم أن ندعو المسلمين الى العودة للدين الصحيح
والتمسك بأهدابه وأهدافه .

نريد أن نقول لهم ان الإسلام يدعو للعلم ، ويمقت الحسد ، ويهاجم
الرثوة ، فاذا جهل المسلمون أو حسنوا ، أو رثوا أو ارتشوا ، فهم
متمردون على تعاليم الدين ، خارجون على ارشاداته وآدابه .

فاذا استطعنا أن نرسم للمسلم صورة سريعة من مبادئ الاسلام
ومن خلق الاسلام ، واذا استطعنا أن نجذب المسلم الى هذه الدائرة
الخلقية ، فقد أعدنا تكوينه وخلقنا من الركام نفسا وضاعة وروحا عالية ،
ولعل من السهل أن نرسم اطارا يحوى أبرز اتجاهات الاسلام الخلقية ،
وأما جذب المسلمين الى هذه الدائرة الخلقية فهو عمل يحتاج الى تكاتف
القوى واصلاح نظم التعليم ، والى دعاة ومرشدين عمرت قلوبهم بالايمان ،
وقاضت نفوسهم اخلاصا وحماسة ، ولكن المصبح بدأ يشرق ، وبدأت
أفواج الشباب المتحمس في جميع الأقطار الإسلامية تحمل مشعل النور ،
ولم يبق علينا الا أن نقدم الزاد لهذا الركب السائر الى الأمام في ثقة
ويقين ، وذلك بأن نحلّي الفرد المسلم بأخلاق إسلامية ، وبخاصة
الأخلاق المتصلة بالمعاملات .

لقد اتجه كثير من المسلمين بالاسلام اتجاها عبادة ، وحسبوه صلاة
وصوما وتسييحا ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ، ونحبذ أن نوضح أن
الاسلام يهتم اهتماما كبيرا بالمعاملة ، ومن القواعد التي وضعها الأصوليون
أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الانسان مبنية على المشاححة .
فاذا قصّر مسلم في حق من حقوق الله فان التوبة النصوح تغفره ،
وعفو الله قد يشملها ، ولكن ايذاء الناس لا يغفره الا اذا عفا الناس ،

فردُّ الحقوق شرط أساسي من شروط التوبة ، وحسن المعاملة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى أصلٌ من أصول الاسلام . بل أصل مهم جدا ، فالاسلام يتطلب من الفرد المسلم أن يسير على هديه ليس فقط في مبادئ الاسلام الخمسة ، بل أيضا في الأسس التي وضعها الاسلام لتنظيم علاقات الناس بالناس أفرادا وجماعات على دعائم من الحب والعدالة والقانون ، وجعل الاسلام هذه الأخلاق جزءا منه بحيث لا يكمل الدين دونها .

وقد ورد أن رجلا قال للنبي : يا رسول الله ، ان فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ، ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال هي في النار . .

ولست أنوى هنا أن أكتب عن خلق المسلم ، وأن اعطى صورة كاملة عن اهتمام القرآن والحديث بالمعاملة والأخلاق ، فان هذه الأخلاق ليست مجهولة ، ولكن الذي نريده هو اتباعها والتمسك بها ، فاذا أراد المسلم النجاح في الدنيا والآخرة فان التمسك بهذه الأخلاق من أهم وسائله .

وليسأل المسلم نفسه : أأنا مسلم حقيقة أو اسما ؟ هل أتبع هذه الأخلاق ؟ وأيما ما تكون الاجابة فنحن ندعو المسلم الى العودة الى رحمة الاسلام وسماحته وصفائه ، ندعوه أن يحاول جهده لياخذ أكبر نصيب ممكن من الأخلاق الاسلامية ، ويرجع الى دين الفطرة ، وأن يفهم الاسلام على حقيقته ويفهم ما يوجبه الاسلام عليه تجاه الخالق الأعظم ، وتجاه نفسه وأسرته ، وتجاه المجتمع الاسلامي ، وتجاه المجتمع الانساني بأسره .

فاذا انتشلنا المسلم أو انتشل المسلم نفسه من عالم الخرافات والتعقيدات والأوهام ، ووضعنا المسلم أو وضع المسلم نفسه في رحاب الاسلام الصحيح ، كان ذلك المسلم خير أساس نستطيع أن نقيم عليه صرح المجتمع الاسلامي الشامخ .

والعجيب أن كثيرين من الناس يصيحون مطالبين بتطبيق الشريعة

الاسلامية ، وجدير بهؤلاء أن يسألوا أنفسهم : هل طبّقوا هم الشريعة الاسلامية في أخلاقهم ومعاملاتهم ؛ هل يؤدي الواحد منهم عمله خير أداء ؛ وهل يبتعد تماما عن الرثوة والإهال والنظية ٠٠٠ ؟ إن هذا هو أول خطوة وأهم خطوة لتطبيق الشريعة الإسلامية .

الاسلام والمجتمع الصغير (الأسرة) :

ويعد أن نربّي الفرد هذه التربية الاسلامية الصحيحة ، وفي طريقنا الى تكوين مجتمع اسلامي قويم ، يجدر بنا أن نوجه عناية الى تكوين وحدات المجتمع الاسلامي ، أي الى تكوين الأسرة ، وقد رسم لنا الاسلام الطريق لذلك ، إذ اهتم بالأسرة اهتماما بالغا ، وتمشّي اهتمامه بها خطوات عمّت جميع مراحل تكوينها .

فمن الأم والأب يقدم القرآن أجمل وصية للأولاد ، قال تعالى :

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذك من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا (١) .

— ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا (٢) .

فاذا كبر هذا الابن وأراد أن يكون له بيتا وأن يختار له زوجة ،
سمع هتاف الرسول به :

(١) سورة الاسراء الايتان ٢٣ — ٢٤ .

(٢) سورة لقمان الايتان ١٤ — ١٥ .

- تخيروا لنطفكم فان العرق دساس .
- فاذا اختار زوجته رسم له الاسلام طرق المعاملة التي يجب أن تسود هذا البيت الجديد :
- ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١) .
- وعاشروهن بالمعروف (٢) .
- خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي (٣) .
- فاذا دب بينهما خلاف رسم الاسلام طريق حسمه :
- واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع (٤) .
- وان خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدان إصلاحا يوفق الله بينهما (٥) .
- ويخوَّف الاسلام من الطلاق ، ويقرر أن اللجوء إليه لا يكون إلا للضرورة القصوى :
- أبغض الحلال الى الله الطلاق .
- تروءجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتر منه العرش .
- فان كان لابد من الطلاق فالاسلام ينظم وقته وعدده ويبين حق المرأة بمقتضاه :

(١) سورة الروم الآية الثانية .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٤) سورة النساء الآية ٣٤ .

(٥) سورة النساء الآية ٣٥ .

- إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة (١) •
- الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً (٢) •
- وللمطلقات متاع بالمعروف (٣) •
- ولا يقف الاسلام عند رعاية الأسرة الصغيرة ، بل يرسم الاسلام للمسلم حقوق أقاربه عليه :
- يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلوالدين والأقربين (٤) •
- وآت ذا القربى حقه (٥) •
- وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله (٦) •

تلك نماذج قليلة لعناية الاسلام بالأسرة ، ولا نزاع أن الذى يدرس الاسلام وفلسفته وحضارته وأخلاقه يجد تفاصيل رائعة للحقوق والواجبات والآداب التى نظمها الاسلام لخلق أسرة متحاببة متعاطفة تصلح أن تكون جزءاً سليماً من مجتمع اسلامى سليم •

-
- (١) سورة الطلاق الآية الاولى
 - (٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩
 - (٣) سورة البقرة الآية ٢٤١
 - (٤) سورة البقرة الآية ٢١٥
 - (٥) سورة الاسراء الآية ٢٦
 - (٦) سورة الأنفال الآية ٧٥

ثانياً — أسس تكوين المجتمع الاسلامى وإحياءه

لقد اتضح لنا عند دراسة أسس تكوين المجتمع الاسلامى أن هذه الأسس مقدسة ، فهى تنفيذ لتشريعات سماوية وردت فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول ، وعلى هذا فإحياء هذه الأسس أمر لازم لا محض عنه إذا أردنا أن نعيد بناء المجتمع الاسلامى ، وأن نهيب له مسيرة حميدة .

فلابد من العناية بالمسجد والتطور به ليناسب العصر على نحو ما ذكرنا عند الحديث عنه .

ولابد من اشاعة الحب والتعاون والمؤاخاة بين أفراد المجتمع الاسلامى ولابد من التعاون الكامل بين المسلمين وغير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، على أن يشمل هذا التعاون جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولابد من العودة للشورى الحقيقية التى رسمها الاسلام ، والقضاء على الديكتاتورية قضاء تاما ، فحكم الفرد ، والاستبداد ، كانا وسيطان من أخطر الأسباب لتقويض أى مجتمع ، وقد انتشر حكم الفرد فى العالم الاسلامى للأسف ، انتشارا واسعا يفوق ديكتاتورية الاتحاد السوفيتى ، فقد أسقط النظام السوفيتى خورشوف وهو فى أوج عظمته ، ولكن المستبدين بالعالم الاسلامى لا يستطيع أحد أن يسقطهم .

ولابد من العودة للنظام الاقتصادى فى الاسلام ذلك النظام الذى واجه المشكلة الاقتصادية أروع مواجهة وانتصر عليها ؛ حمى مال الغنى مادام هذا المال قد جاء عن طريق صحيح وأدى حق الله ، وقضى حاجة الفقير بتهيئة العمل له وبدفع جزء من مال الغنى إليه .

ولابد أن يصبح قادة المسلمين قدوة حسنة للناس ، فمن الشائع أنهم يحكمون لتحقيق أغراضهم ، ويسترون مخازيهم فى حياتهم بالقوة

والجبروت ثم تبرز هذه المخازى بعدهم ويشيع ما كانوا يخفون .
ولا يتعظ من يظلمهم جهلا وعمى عن الحق •

ولابد من احياء روح الاملام ليتحقق قول الرسول صلوات الله عليه
« لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » •

هذا هو الدواء الأول لنعيد المسلمين الى الطريق الصواب ، فاذا لم
يعودوا لهذه الأسس فهم يتمردون على الاسلام ، وهم يحملون تبعه هذا
التمرد ، وعليهم أن يعرفوا أن سبب اخفاقهم هو جهلهم بالأسس المهمة
التي يبنى عليها المجتمع الاسلامى •

ثالثاً — القضاء على الأسباب التي أدت لضعف العالم الاسلامى

لقد رأينا فيما سبق تلك الأسباب التي أدت لضعف العالم الاسلامى ، ومن المحتم لنصل الى الاصلاح المنشود أن نقضى على هذه الأسباب تماما ، وإذا كانت بعض هذه الأسباب قد اختفت ، فإن بعضها لا يزال موجودا وتعمل هذه فى المجتمع ما يعمله السوس والآفات بالطعام والزروع .

فعن العوامل الداخلية لا بد من الاهتمام بتربية الداعية المسلم ، ولا بد من إحياء الأخلاق الاسلامية والتمسك بها ، وإحياء الحضارة الاسلامية وتدريبها فى المدارس والمعاهد والجامعات ، ولا بد من القضاء على الحكام الفاسدين وعلى أتباعهم ، ولا بد من محاولة إيقاف النشاط المدمر الذى يوجد بالعالم الاسلامى بواسطة ما يسمى « الفرق الاسلامية » وعلينا أن نتذكر دائما أن نواحى الاتفاق بين الشيعة والسنة مثلا كثيرة جدا ، ومن العار أن نتناسى هذا ونبحث عن نواحى الخلاف .

ولا بد من القضاء على المؤسسات التي تكيد للإسلام فى غفلة من المسلمين كالروتارى والليونز وأنصار السلام ، فهذه آفات تشد الكثيرين للانحراف الدينى والوطنى ، ومن عجيب ان أتباعها يدعون أنهم يقدمون بعض المساعدات الاجتماعية عن طريقها ، كأن المساعدات الاجتماعية لا تتحقق الا عن طريق مؤسسات مشبوهة تتخذ مركزها فى شيكاغو ، ويتولى الصهاينة أمرها .

ويدعون كذلك أنهم لا يتأكدون من انحراف هذه المؤسسات ونقول لهم ان الشبهة وحدها كافية للبعد عن مؤسسات تتهم بالخيانة الدينية والوطنية ، مرة أخرى الشبهة وحدها تكفى ، ولدينا ما هو أكثر من الشبهة والظنون .

ويفرحون بتخفيضات كبيرة تقدمها لهم الطائرات والفنادق إذا قاموا

برحلة ، ونسوا أن الهيئات الصهيونية تدفع الفرقَ للإغراء ، بدليل أن هذه التخفيضات الواسعة لا تتقدم للجمعيات الأخرى .

وبعن العوامل الخارجية نذكر أن الحركة الصليبية لا تزال قوية في العالم الإسلامي متخذة طرقا جديدة ليست أقل خطرا من الطرق التي استعملها الصليبيون خلال هجماتهم على الشام ومصر سنة ١٠٩٦م وما بعدها ، والطرق الجديدة هي إسرائيل ، وهي امتداد للصليبيين يحمل كل حقد الصليبيين وحقد اليهود جميعا والدولار الأمريكي يمثل خنجرا ساهما يصوبه اصحابه لقلوب المسلمين ، فالأمريكيون لا يقدمونه الا اذا ضمنوا ربحا سريعا له من تراث المسلمين وقيمهم ، وربحا في المدى البعيد من أموالهم ، انه سلاح أمضى من الصواريخ ، فليعمل المسلمون على الاستغناء عنه بجهدهم ، وبمحاولة انتاج ما يحتاجون اليه ، حتى لا يقفوا كالتسولين أمام جماعة لا تكن للمسلمين أى حب وتقدير .

ولنتذكر أن إسرائيل سنة ١٩٦٧ زحفت على مناطق عربية واسعة هي أجزاء من مصر وسوريا والأردن وفلسطين ولم تحرك أمريكا ساكنا بل باركت هذا الزحف ، فلما تقدمنا سنة ١٩٧٣ لنسترد أرضنا أسرعت أمريكا بسلاحها الفتاك تقاوم زحفنا لاسترداد أرضنا . حسبهم على الله .

ويشيع أن إسرائيل وراء السموم البيضاء وأنواع المخدرات التي تندفع الى بلادنا ، فلنقاوم بكل عزيمة هذه الآفات المدمرة .

ولنتذكر كذلك أن الصليبيين تحالفوا في الماضي مع المغول لتدمير العالم الإسلامي ، وهم الآن يتحالفون مع اليهود لنفس الغرض ، فلنفهم .

وهكذا اذا كان الاستعمار العسكري قد توقف فان صورا من الاستعمار قد حلت محله ، تتمثل في الخبراء والقروض والمعاهدات غير المتكافئة ، فلنحذر كل ذلك ، ولنفتح عيوننا حتى لا نؤخذ على غرة .

وعن الأسباب التي ترتبط بالاتجاهات الدينية علينا أن نعرف أن الإسلام إشراقة نور للبشرية ، وأنه لا يمكن أن يوجد به أى أثر

للتخلف والضعف ، ولذلك نلتزم بأن نصلح أنفسنا حتى ننتفع بهذا الدين العظيم ، وأمامنا مصادر الاسلام لنستمد منها القوة التي استمدها أجدادنا السابقون فحققوا أعظم نصر في أقصر وقت •

فالدين الاسلامي دين شورى ، ودين عدالة اجتماعية ، ودين متطور يناسب كل زمان ومكان كما أسلفنا ، وهو دين يحترم العقل ويقدره ، ويستجيب لحاجات الناس والمجتمع ، وهو دين يهتم بالجانب الروحي ، فاذا توقف به بعض الناس ، أو اتجهوا به اتجاها ماديا صرفا فهذا خطأ لا يهد من تصحيحه •

ولم يقاوم الدين قط الاصلاحات العلمية والاجتماعية ، فليسكن أولئك الذين يقاومون الاصلاحات باسم الدين •

والاسلام لا يقبل الشرك بأية صورة من الصور ، فأولئك الذين يقيمون القباب للأولياء ويحجون اليهم ويهتفون بهم لقضاء حاجتهم ... عليهم أن يعرفوا أن هذا ليس من الاسلام في شيء ، فالله وحده هو المعطى والمجيب وهو قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه •

وليس لمسلم أن يكفّر مسلما إذا خالفه في الرأي ، فالعقيدة سر بين الله والناس ، فما دام الانسان قد أعلن اسلامه فليترك ما وراء ذلك لله سبحانه وتعالى •

وقد أفسدت الضلالات العقائدية ما شاء لها أن تفسد كما فعلت خرافة معين الدين شيستي ، وكما فعلت القاديانية ، ولا بد من إيقاف هذا الباطل ومحاربه ليعود الناس إلى الإسلام الصحيح ، وتكون المواجهة فكريّة ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وأغلب الظن أن تأثيرها سيكون حاسما مع الزمان •

أما الأزهر الشريف والمعاهد الاسلامية في كل مكان فعليها أن تطور الدراسة فيها ، وأن يكون بها خلق الاسلام واضحا ، وأن يكون المتخرج فيها واسع المعرفة بالفكر الاسلامي واللغة العربية •

رابعا — الاصلاحات العلمية

العلوم التي نعيها هنا هي العلوم العقلية وعلوم الشريعة جميعا ، وكلاهما لازم لصلاح الدنيا والآخرة ، وكلاهما يعانى تخلفا في العالم الاسلامى ، لعل الأوان قد آن لازالته ، ولعل الوقت قد حان للقضاء على هذا التخلف وستكلم فيما يلى كلمة عن كل طائفة من هاتين الطائفتين :

العلوم العقلية :

تخلف العالم الاسلامى تخلفا واضحا في العلوم النظرية والعقلية وأصبح المسلمون في الكثير الغالب عالة على سواهم في التطور العلمى ، مع أن لهم تاريخا حافلا في ميدان العلوم والفلسفة ، فقد كانوا حماة للعلم ورعاته عدة قرون حين كان الظلام يكسو أوربا ، وحين كانت أمريكا لا تزال في طى الغيب وفي عالم المجهول ، « إنهم كانوا الأساتذة الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم ، ففتحوا بذلك أمام التفكير الأوروبى آفاقا جديدة ، وهزوا العقل الأوروبى وحملوه على البحث والمناقشة في أمور كان يأخذها بالتسليم والخضوع » (١) وشملت الدراسات العلمية عند المسلمين شتى المعارف ، شملت الفلسفة وعلوم الرياضة (الحساب — الجبر — الهندسة — المثلثات — الفلك) والعلوم الطبيعية (الكيمياء — علم الحياة — الطب — التشريح — الصيدلة) وغيرها من الدراسات ، وكان لهم في كل منها باع طويل * (٢)

ثم مر الزمن وضعف المسلمون في شتى الميادين ومنها الميدان العلمى ،

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٧ .

(٢) انظر الكتب الآتية عن جهد المسلمين في الدراسات العلمية :
١ — عبقرية العرب في العلم والفلسفة للدكتور عمر فروخ

على أن ضعف المسلمين في المجال العلمي كان في الحقيقة أثراً من آثار
ضعفهم السياسي ، فالنهضة العلمية المبكرة في العالم الإسلامي لم يكن من
الممكن أن تستمر في ازدهارها في ظل الممالك الأتراك ومن شأنهم من
الحكام الجهلة الذين لا يعرفون إلا البطش والتدمير والذين يحاربون
البنفاء والتفكير .

على أن المضعف العلمي الذي بدأ في عهود الممالك وصل غايته في
عهد الاستعمار الأوربي للدول الإسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار
والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرّمهم التفكير ، ولا يمكن أن
ترجى نهضة علمية في جو من الارهاب والقيود والعبودية ، وفي جو من
الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التي بذرها الغرب في الدول الإسلامية
التي أخضعها اليه .

وقد تعلم الغرب من المسلمين ، وكانت الجامعات والمدارس الإسلامية
في الأندلس وصقلية والشام ومصر مراكز اشعاع عالمي ، التحق بها الطلاب
الأوربيون فنهلوا منها ، ثم كانت معارفهم هذه أساساً لنهضة أوروبا ،
فالحقيقة أن الغرب أخذ قبس المعرفة الأول من المسلمين ، بيد أن المسلمين

٢ — مآثر العرب في الرياضيات والفلك للاستاذ منصور حنا .

٣ =
George Sarton : The Incubation of Western Culture in the Middle East

٤ — تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك للاستاذ قسرى
طوقان .

٥ — علم الفلك وتطوره عند العرب لكارلو تليو .

Browne : Arabian Medicine — ٦

٧ — طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

Encyclopaedia Britannica — ٨

٩ — الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره الذي ترجمه المؤلف عن اللغة
الانجليزية .

تتهاونوا بعد ذلك ، وسار الغرب قدما حتى حقق تقدما كبيرا في الاختراع والبحث والصناعة .

نهضة أوروبا مدمرة :

ولكن النهضة العلمية التي وصل لها الغرب هي في الحقيقة نهضة مدمرة ، تهدد العالم كله بالفناء ، وتتركه قبل الفناء يعيش في خوف ووجل متوقعا الخراب والدمار ، أو بعبارة أخرى يعيش يتربص بالفناء ، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تسعد البشر ، ولكنها بدلا من ذلك تتنشق لانتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التي تعدد للقضاء على البشر ، وكل ذلك لأن هذه المدنية ملحدة ، مدنية بنيت على نظام اقتصادي ، أباحت للانسان أن يقتل أخاه الانسان ليحصل على ما في يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الايمان ، ومن هنا فهي سراب يضىء ولكنه ضوء خداع ، فلقد بلغت النهضة الصناعية في ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا في المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة . ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرون صرعى وجرحى في الحرب التي شنتها ألمانيا ، أو التي دُفِعَت إليها ، وكان تفتتت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الانساني ، ولكن سرعان ما دمّر وأفنى في اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا .

ليست هذه هي المدنية التي نريدها ، نريد مدنية تخدم البشر وتساعد على رفعة شأن الانسان ، نريد مدنية خَيْرَةٌ لا مدنية شريرة مهلكة ، والطريق التي ذلك أن ينمو العلم في بيئة تعرف الدين وتعرف الأخلاق ، حتى يعمل العقل منطلقا حرا الا من قيد الايمان وقيد الأخلاق ، وهذه البيئة هي البيئة الاسلامية ، وقد آن للمسلمين بعد أن تحرروا سياسيا أن يسيروا في نضالهم العلمي ، وأن يأخذوا دورهم في الاختراع والابتكار والصناعة ، وهذه السطور تكتب وقد حُطت كثير من البلاد العربية والاسلامية شوطا طيبا في هذا المجال ، فانتشرت في أنحاء المصانع

وبدأ انتاجها يظهر : ويرجى أن تسير قدما في هذا الطريق ، وأن تسير معها الدول الاسلامية الأخرى ، وسيكون نتاج مصانع العالم الاسلامي خيرا وبركة على الانسان لا تدميرا وتخريرا .

ولسنا في حاجة الآن لأن ندافع عن العلم ونؤيده ضد هجمات الفقهاء ، فقد وليّ الزمن الذي كان الفقهاء فيه يتحكمون في العلم ويُسْتَأذَنون قبل أن تدرس الطبيعة والكيمياء ، وأصبحت معامل البحث في العالم الاسلامي حرة طليقة ، وليس على الشباب المسلم الا أن يجدّ ويكحح الذهن ، وأن يعرف ما وصلت له أبحاث العباقرة العالميين ثم يحاول أن يخطو بعد ذلك خطوة الى الأمام أو خطوات .

وليفطن المسلمون الى حقيقة هامة ، هي أن ما حصلوا عليه من حرية واستقلال سيضيع ويفنى اذا لم يحرسه المسلمون بالتقدم العلمي والتقدم الاقتصادي أو قل الاستقلال الاقتصادي ، وان من أسلحة الاستعمار الحديثة التي اقترحها الغرب وروسيا بعد ان فشلا في الاستعمار السياسي أن يستعمرا الدول اقتصاديا ، وكثير من الناس كما قلت من قبل يصفون الدولار الأمريكي بأنه سلاح من أقسى أسلحة الاستعمار ، وأشدّها بطشا ، وأكثرها تدميرا ، وأنه يوقف القوى الناهضة ، ويحول دون تحقيق أي تقدم في أي ميدان .

والعجيب أن القروض أعباء بدون نتائج في كثير من الحالات ، فاذا اقترضنا من أمريكا هائة مليون دولار لمشروع ما ، ألزمتنا بتوظيف خبرائها وشراء معدات منها ، فيعود بذلك أكثر القرض الى جيوبهم .

وحراسة الاستقلال تحتاج الى سلاح لا بد أن نعمل على أن ننتجه ، وألا نقنع بشرائه من الغرب ، فان هذا يجعل تجار السلاح ملاكا للحرية . وليست الأسلحة فقط هي التي يجب أن يعنى بها العالم الاسلامي ، وانما يجب أن يعنى بشتى الشؤون العلمية ، وبنواحي التقدم الصناعي

الذى يضمن له استقلالاً اقتصادياً يحرر استقلاله السياسى ، وبخاصة أن الدول الإسلامية من أكبر دول العالم فى إنتاج البترول ، وأن بها المواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات ، وأن الأيدى العاملة بها متوافرة ، والعقول المفكرة كثيرة ، ولم يبق الا أن نحرر هذه العقول ، ونطلق هذه الأيدى ، ونبدأ النضال .

العلوم الشرعية :

لقد اتضح لنا من قبل ما وصلت له الدراسات الشرعية من تخلف ، حتى عدّها الباحثون من العوامل التى سببت تدهور العالم الإسلامى ، ولا بد لنا فى نهضتنا الحالية أن نصلح هذه الدراسات ، حتى يعود الدين كما كان فى صدر الإسلام ، وكما يجب أن يكون دائماً مصدراً من مصادر النهضة ، وضوءاً يبين لنا ونحن نبنى مجدنا ونحث الخطا الى الغاية الحميدة .

وقد فصلنا القول — فيما سبق — فى المشكلات التى جعلت من الفقهاء ومن الدراسات الشرعية عائقاً يوقف تطورها ويحول دون نهضتنا ، والسبيل الذى نضفه الآن للعلاج والقضاء على هذه المشكلات ، هو :

— اعادة الجانب الروحى للدراسات الإسلامية .

— الاجتهاد الذى يوفق بين الإسلام ومصالح الناس فى حدود مبادئ الإسلام العليا ، ويوضح ما لايزال خافياً من تفاصيل النظم الإسلامية .

— الانتفاع بالمذاهب الإسلامية المختلفة .

— ايضاح أن الدين للبشر لا للملائكة ، بمعنى أن المسلم ايسر معصوماً وكل ما يطلبه منه الإسلام أن يبتعد عن الكبائر ، وأن يتحاشى الصغائر بقدر الامكان ، وأن يكتر من الحسنات ، ويؤدى التزامات الإسلام وأركانها .

بان فعل ذلك كانت له السلامة تبعا لقوله تعالى « أما من ثقلت موازينه ذنوبه في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمثله هاوية » .

— ثم التقريب الثقافي بين بلدان العالم الاسلامى .

— وأخيرا لا بد أن يأخذ علم مقارنة الأديان وعلم الحضارة الاسلامية مكانهما الرفيع بين الدراسات الاسلامية .

وقبل أن نزيد هذه المسائل وضوحا نقرر أن القيام بهذا العمل الاصلاحى سيتطلب جهدا كبيرا ، ولكننا لن نعى المسلمين ملوكهم ورؤساءهم وقادتهم وعلماءهم من البدء القوي والسير الحثيث لبلوغ هذه الغاية ، والخروج بالمسلمين من الظلمات الى النور .

واعادة الجانب الروحى للدراسات الاسلامية تستلزم أن نعيد بروح جديدة — كتابة الفقه الاسلامى ، ونعيد تفسير القرآن الكريم ، وتمحيص كتب الحديث ، ثم أن نعيد كتابة التاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية ، وأن ندون تاريخ الحضارة الاسلامية ، بل كان علينا أن نعيد كتابة علوم تتصل بالدراسات الاسلامية كقواعد اللغة العربية وكالبلاغة العربية ، وقد قام جيلنا بحمد الله بالكثير من ذلك كما سبق القول .

وإذا كان القارىء قد أحس أن هذا العمل صعب المنال ، فأنا أهدىء من روعة وأقرر له أن طلائع الباحثين المجاهدين قد بدأت فعلا تعمل لتحقيق هذه الغاية فى مختلف الميادين ، وما علينا الا أن نساعد هذه الطليعة حتى تتخلص من بقايا الماضى التى تلاحقها وتتسرب أحيانا الى عملها . ثم علينا أن نوحّد هذه الجهود ونشد أزرها ماديا وأدبيا حتى تصل الى الهدف ، ولأن يمضى وقت طويل حتى يكون معنا فقه يصير لنا روح محمد ابن عبد الله وأصحابه حين كانوا يقومون بالفتيا ، ويكون معنا تفسير لا يعنى بقواعد اللغة وعلوم البلاغة واختلاف الفقهاء ، وإنما يعنى بجمال القرآن ،

ويبرز ما فيه من صور رائعة ، في أسلوب يفهمه أولئك الذين قصرُوا عن التطبيق مع القرآن في اعجازه وسموه ، وهكذا في مختلف الدراسات .

أما عن الاجتهاد فهناك تراث واسع خلفه لنا السابقون الأولون . وبخاصة الخليفة عمر ، وما علينا الا أن نسير على ضوئه ، فلا يمكن أن يسير المسلمون ويبقى الاسلام بعيدا عنهم ، نريد رأى الاسلام في المشكلات التي تشغل الناس ، ولا نريد من الفقهاء أن يقفوا موقفا جامدا يجعل الاسلام يتعارض مع حاجات الناس ، أو أن يقفوا موقفا صامتا فيما يشغل الناس من أحوال ، ولأضرب لك مثالا يبين الخير الذي يعود على العالم الاسلامي من اجتهاد الفقهاء : كانت مصر والعالم الاسلامي كله تسير في الميراث على قاعدة أن الأحفاد الذين مات أبوهم قبل جدهم لا يرثون من جدهم شيئا اذا كان لهذا الجد ابن مباشر ، فهذا الابن يحجب أبناء الابن ، وكما ترتب على هذه القاعدة من شرور ، فأنا واخوتي مثلا لم نرث شيئا عن جدنا لأن أبانا مات قبله ولنا أعمام حجبونا عن الميراث ومات بعض الأعمام بعد ذلك وآل ميراثهم الى أولادهم ، فأخذ أولاد أعمامنا ميراث جدنا ولم ننل نحن شيئا منه مع أن أبانا كان ساعد أبيه في تكوين هذه الثروة .

وفكر الفقهاء المصريون في هذه الحال ومثالها وهي كثيرة الوقوع أو قل في الحقيقة ان الحكومة المصرية هي التي فكرت ، ولجأت الى الفقهاء لايجاد حل لهذه المسألة ، ووجد الفقهاء الحل الموفق في شريعتنا السمحة بنظام « الوصية الواجبة » وصدر به قانون سنة ١٩٤٣ ، وأصبح معمولا به في مصر منذ ذلك التاريخ ، وبمقتضى هذا الحل أصبح أولاد الابن المتوفى يأخذون نصيب أبيهم أو ثلث التركة (الأقل من هذين النصيبين) عن طريق وصية واجبة يلزم أن يقوم بها الجد لهم ، فاذا لم يقوم بها الجد اعتبر كأنه قام بها ، ونفذت .

هذه صورة رائعة من صور التطور في الشريعة الاسلامية ، نذكرها
مؤكدين أن في شريعتنا عشرات الأمثلة أو مئات الأمثلة لها لو درسناها
بروح مؤمنة طليقة تعمل للخير وللصالح العام .

ونحن نهتف بالحكومات الاسلامية أن تكوّن كل منها هيئة لهذا
الغرض ، وعلى المجتهد الفرد أو على هذه الهيئة أن تدرس المعين الأساسى
للشريعة الاسلامية وهو القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم تعمل
على ادراك الاسلام واتجاهاته ، ثم تحيط باجتهد السابقين الأولين ،
ثم تدرس آراء الفرق الاسلامية كأهل السنة والشيعة ، وآراء أصحاب
المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب ، ثم تدرس المجتمع الذى يعيش
فيه المسلمون وتعرف حاجات هذا المجتمع وضروراته ، ثم تلقى هذه
الهيئة بفتاواها في ضوء هذه الدراسات .

وإذا لم يثق أعضاء هذه الهيئة على قرار موحد في موضوع من
الموضوعات ، فلتصدر الهيئة قرارها بأن هناك اتجاهين في الهيئة ، وعلى
كل مسلم أن يختار ما يراه منهما .

كثير من الذخائر والمنافع يمكن أن يتوقعه المسلمون من هيئة كهذه ،
ومن دراسات تتخذ هذا الاتجاه ، ومن الحق أن نقرر أن مصر تدخل في
تشريعاتها كثيرا من آراء الشيعة وبخاصة الامامية والزيدية الذين هم أقرب
طوائف الشيعة لأهل السنة ، وقد تكونت في مصر هيئة تسمى « جماعة
التقريب بين المذاهب الاسلامية » وينتمى اليها علماء من أقطار مختلفة ،
ومن مذاهب متعددة متحابين متعاونين ، ينظرون بنجل الى ما دونه التاريخ
من صراع بين أتباع المذاهب المختلفة ، ويدركون أن الفرق والمذاهب
الاسلامية — إذا بعدت عن الأغراض الذاتية — ليست الا فروعاً لدوحة
واحدة هي الاسلام ، ويجب أن تعمل متساندة لاسعاد المسلمين .

ويوم تتكوّن هيئة اسلامية للبحث والاجتهاد سيكون عليها أن توضح

من النظم الاسلامية تقاطعا لا تزال غامضة ؛ ستضع نظاما للشورى له
تفاسيله ونظمه ، وستبين من هم أهل الحل والعقد ، وغير ذلك من الأمثلة
التي لم يبحثها الأولون .

وتسألنى : لماذا أهملَ الباحثون الكتابة عن نظام الشورى وأهل
الحل والعقد في عصور التدوين ؟

وأجيب : أن مثل هذه النظم السياسية ليست في الواقع الا تقليدا
لسلطة الخلفاء والملوك والأمراء ، ولم يستطع الفقهاء أن يتكلموا فيها
مجاورة لهؤلاء أو خوفا منهم ، كما لم يستطيعوا أن يتكلموا عن تقييد تعدد
الزوجات لأن هؤلاء الحكام كانوا من هواة التعدد دون قيد أو شرط .

وربما كتب بعض الفقهاء ثم ماتت كتابتهم في حياتهم أو بعدهم لهذا
السبب نفسه .

إن المسلمين لا يزالون يذكرون بالتمجيد والتعظيم جمال الدين الأفغانى
ومحمد عبده والحاج دحلان وغيرهم من طليعة البلاشيين والمفكرين المسلمين ،
ونود أن نقول بصراحة إن عندنا اليوم أفغانيين اثنين جدا . ويجب أن
يحقق علماء اليوم أضعاف ما حققه علماء أمس ، فكل شىء مهياً لنهضة
إصلاحية كبرى .

الدين للبشر :

وهنا نقطة اصلاحية مهمة نود أن نلفت لها الأنظار ، وهى أن الدين
الاسلامى دين للبشر ، فمن الملاحظات التي أدركتها ، تحاملُ العلماء
على الشبان ، فاذا أخطأ شاب صوروه في صورة التمرد ، وأبرزوا خطيئته
وكبروها وتناسوا حسناته واتجاهاته الخيرة ويهاجم ابن تيمية هذا
الاتجاه ، ويقرر أن من حماية الحياة الدينية والخلقية أن تحمى المجتمع

من الغلو في الدين ومن أن يئنزل^١ البشر منزلة الملائكة أو المعصومين (١) ،
ونحب أن نوضح لهؤلاء أن هذه الطريقة ليست طريقة اسلامية ، انها
طريقة تقوم اذا فرض أن السيئات تأكل الحسنات ، أما في الاسلام
فـ « إن الحسنات يذهبن السيئات » كما جاء في القرآن الكريم (٢) والحسنات
تأكل السيئات كما تأكل النار الحطب كما وضع ذلك الرسول عليه السلام .

فنحن نقولها كلمة صريحة : ان الاسلام دين العاصي والطيب ،
والحكيم من الفقهاء هو الذي يجذب العصاة الى رحاب الطاعة ، ويوليهم
من سماحته وصفاته ما يحبب لهم العودة للطريق القويم ، فان الإعراض
عن هؤلاء يزيدهم إعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
عن هؤلاء يزيدهم اعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
أخرى أن نحث^٣ العاصي في ناحية أن يحاول أن يقلل من عصيانه فيها ،
وهن ناحية أخرى أن يكثر من حسناته حتى ترجح حسناته سيئاته « فأما
من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه
هاوية » (٤) .

ونسوق هنا بعض آيات القرآن التي تقوّى الأمل في عفو الله :

— إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٥) .

— ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤثرون الزكاة

والذين هم بأياتنا يؤمنون (٥) .

— يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله

إن الله يغفر الذنوب جميعاً (٦) .

(١) الحسبة ص ٣٧ .

(٢) سورة هود الآية ١١٤ .

(٣) سورة القارعة الآيات ٦ — ٩ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٦ .

(٥) سورة الاعراف الآية ٢٥٦ .

(٦) سورة الزمر الآية ٥٣ .

التقريب الثقافي بين بلدان العالم الإسلامي :

بقى بعد ذلك أن نتكلم كلمة عن التقريب الثقافي بين بلدان العالم الإسلامي ، وقد دعاني الى ذلك ما لاحظته حين زيارتي لأقطار العالم الإسلامي ، والذي يقوم بمثل هذه الزيارات يدرك الفرق الكبير في الدراسات الإسلامية بين ما حققته جامعة القاهرة مثلا وبين ما لا يزال يدرس في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى ، حتى لقد اضطررت بعد أن زرت في اندونيسيا كثيرا من معاهد العلم والمكتبات ورأيت مستوى تدريس الدراسات الإسلامية واللغة العربية ، أن أقول إن الإسلام في مصر يوشك أن يكون غير الإسلام في اندونيسيا ، وإن اللغة العربية هنا غيرها هناك .

إن الفقه الإسلامي والفقه المقارن الذي يدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بعيد كل البعد عن الفقه الذي يدرس في اندونيسيا ، وإن الفلسفة الإسلامية التي يتلقاها طلاب جامعة القاهرة غير الفلسفة الإسلامية التي يتشغل بها الطلاب الأندونيسيون ، وتاريخ الحضارة الإسلامية يوشك ألا يكون معروفا في اندونيسيا على الإطلاق ، وقل مثل هذا في التفسير والحديث وغيرها من الدراسات الإسلامية .

أما اللغة العربية في اندونيسيا فقد رأيت بنفسى أن طريق تقديمتها هو تعليم ألفية ابن مالك ويجرى ذلك للطلاب المبتدئين الذين لم يعرفوا بعد كلمة واحدة في اللغة العربية ، فألفية ابن مالك تشكلم لا على أنها قواعد ، بل على أنها اللغة نفسها ، وطلاب الأزهر وكلية دار العلوم وكلية الآداب تعوهدوا أن يفروا من ألفية ابن مالك مع تفاهتهم البالغة في اللغة العربية ، فإذا فر منها الطلاب الأندونيسيون فإن لهم كامل الضر ، لأن الطالب يبدأ دراسته للغة العربية ظاننا أنه سيعرف لغة القرآن بما لها من آداب وثقافات وما كتب بها من تاريخ وفلسفة ، ولكنه بعد ذي السنين غارقا في عجمته التي دون أن يدقق أى هدف ، فيفر من الألفية وإن كان فراره منها يفسد ما سبق فراره من اللغة العربية كلها .

رما يقال عن أندونيسيا يقال عن سواها في كثير من الدول الإسلامية بل يقال عن بعض المعاهد المصرية التي لا تزال متخلفة شوطا طويلا أو قصيرا عن الغاية التي وصلت لها الدراسات في جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات المماثلة .

من المسئول عن هذا التفاوت الضخم ؟ وأيا ما كان الجواب فنحن نقرر بقوة ضرورة التقريب الثقافي بين هذه الدول الإسلامية الشقيقة ، فيجب ألا تنقطع وفود الطلاب والمعلمين بين هذه الدول ، وكل ما تحققه دولة من تقدم في الميدان الثقافي يجب أن يقدم بسرعة الى غيرها من الدول الإسلامية .

على أن هناك شيئا يمكن أن يعد خاصا بأندونيسيا من بين الدول الإسلامية ، ويتضح ذلك من المقارنة التي يمكن أن نجريها بين طالبين مسلمين أحدهما مصرى والثانى إندونيسى ، وكل منهما يتعلم الطب أو الاقتصاد في بلده . ماذا نرى من الفرق بينهما فيما يختص بالدراسات الإسلامية ؟ .

نجد الطالب المصرى يعرف مقدارا لا بأس به من الدراسات الإسلامية ، تلقاه قبل أن يصل الى كلية الطب ، تلقاه في المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية أما زميله الأندونيسى فالمقدار الذى يعرفه عن الدين الإسلامى وعن الدراسات الإسلامية ضحل أو لا شئ على الإطلاق ، فإن الدين الإسلامى لا يجد أية عناية في المدارس التابعة لوزارة المعارف الأندونيسية ابتدائية كانت أو اعدادية أو ثانوية ، فاذا لم يتح للطالب دراسة في البيت مرء خالى الوفاض من هذه الدراسات وتلك العقيدة .

ونرجو أن تتدارك إندونيسيا وما مائلها من البلدان الإسلامية هذا النقص ، فالدراسة الروحية من أهم العوامل لتكوين المواطن الصالح ، وخلق الإنسان الكامل أو القريب من الكمال ، وتدل الأنباء الواردة حديثا من إندونيسيا أن هذا القطر الشقيق الكبير بدأ يتدارك ما فاتته في هذا المجال .

خامسا — جامعة الدول الإسلامية

ضرورتها :

أوضحنا فيما سبق أن عداء الغرب للعالم الإسلامي هو عداء ديني ما في ذلك شك ، فاذا هاجمت احدى دول الغرب أو هاجمت هذه الدول مجتمعة مصرَ مثلا ، فليس هذا العداء موجها الى مصر بذاتها وانما هو موجه الى جزء من أجزاء العالم الاسلامي ، فاذا انتصر الغرب في هجومه على هذا العضو انثنى يهاجم عضوا آخر وهكذا دواليك •

ومن الضروري ، وقد وَصَّحَتْ هذه الحقيقة ، أن تقترب عليها نتيجة لا محيص عنها ، هي أن يحس العالم الاسلامي بهذا الخطر ، وأن يجمع شمله ، ويقابل الأحداث خيرا وشرها كتلة واحدة ، ترد الاعتداء وتواجه الاستعمار •

إن العدو متعاون بأقوى ما تحتمله هذه الكلمة من معنى ، فعلى المسلمين أن يتعاونوا ، والا كانت شرقتهم أكبر عون يقدمونه لهذا العدو ، وكانت أقوى الأسباب التي تقود الى هزيمتهم •

ونحب أن نوضح بادىء ذى بدء أن الارتباط بين أجزاء العالم الاسلامي عدل شرعه الله وقرره ، وأن التهاون في تنفيذه تضييع لمبدأ مهم من المبادئ الاسلامية ، استمع الى قوله تعالى :

- وإن هذه أمتكم أمة واحدة (١) •
- إنما المؤمنون إخوة (٢) •
- والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٣) •

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .
(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .
(٣) سورة الممتحنة الآية ٧١ .

• أودع الرسول صلوات الله عليه هذه المسئلة أيضا لا يحتاج الى مزيد ، استمع الى قوله : « **إِنْ سَلِمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةً لَا يُسْأَلُ مَوْمِنٌ دُونَ مَوْمِنٍ** » •

والشريعة الاسلامية بطبيعتها تخلق ارتباطا كبيرا بين معتقبيها ، ارتباطا يعتبر تضامنا طبيعيا ، أدركه المسلمون أو غفلوا عنه ، انهم يرتبطون عن طريق الصلاة ، حيث يتجهون جميعا الى الله يرددون نفس الكلمات ، ويؤدون نفس الأركان ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحي يصور به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلي : واذا نظرت الى العالم الاسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء ، وقدر لك أن تستوعب جميع أنحاءه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض ، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر في مساحة ترداد قدرا وحجما منتهية من سيراليون (Sierra Leone) في الغرب الى كانتون (Canton) في الشرق ، ومن توبولسك (Tobolsk) في الشمال الى رأس الرجاء الصالح (Cape Town) في الجنوب (١) •

والى الكعبة المكرمة تتجه أفواج الحجاج من كل فج عميق ، تقطع الهواء أو تجوب الصحراء أو تشق عباب الماء ، فاذا وصلت هناك أفواجهم التقوا أسرة واحدة وامترجت أحاسيسهم وأصواتهم في التكبير والتهليل •

والقرآن الكريم يتلوه ويرثله ملايين المسلمين في مختلف البقاع ، ولو أتيح لإنسان أن يرى الكرة الأرضية ويسمع أصوات سكانها على النحو السابق لشاهد آلاف المسلمين يجلسون في خشوع وإجلال أمام المصاحف ، ولسوف آلاف الأصوات تتصاعد بآيات الذكر الحكيم •

وهناك شهر رمضان حيث يصوم المسلمون في مختلف البلاد ،

فيشتركون فيما يسببه الصوم من جوع وحرمان ، وينعمون بما ينجبه من طهر وصفاء .

ويرتبط المسلمون إرتباطا طبيعيا في تحريم الربا والخمر والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلك لغير الله به ، ويرتبطون إرتباطا طبيعيا في قوانين الزواج والطلاق والميراث ، أو قل على العموم انهم يرتبطون في العقائد والعادات والمعاملات والآمال ، ومثل هذه الارتباطات تجعل الارتباط السياسي بين هذه الأمم أمرا طبيعيا ، وتصور الفرقة بينها شيئا غريبا عن الاسلام وتعاليمه .

وقد تكون حكومات الدول الاسلامية مؤيدة لهذا التجمع السياسي أو معارضة له ، ولكن الذي لا شك فيه أن الشعوب تؤيده بل تسير نحوه ، أو قل أكثر من ذلك ، قل انها تحس به وتعيش فيه وتتصرف بمقتضاه .

لقد كنت في إندونيسيا حين وقوع الاعتداء الانجليزي الفرنسي الصهيوني على مصر ، فماذا وجدت ؟ لم أحس أنى بعيد عن مصر ، وانما أحسست أنى فيها ، لقد توقفت الأغاني من الاذاعة المصرية فتوقفت من الاذاعة الأندونيسية ، وهب المصريون للوقوف في وجه الاعتداء ، وهب الإندونيسيون يأخذون نصيبا كاملا من الجهاد فأحدثوا شكلا في مصالح المعتدين باندونيسيا وجادوا بسخاء مادي وأدبي لتكسب مصر المعركة ، وكان كل من حولي كان مصرية يحس باحساسى وتسير في عروقه دمائى .

وكنت بمصر حينما كانت إندونيسيا تصارع الاستعمار الهولندى قبل ذلك ، فشهدت مصر صاحبة ساخطة تقاوم المعتدين بعزم من حديد ، وكنا نحس بأهات الإندونيسيين ، وخيل لنا أننا في مصر نسمع قصف المدافع التي كانت تصب نيرانها على إخوتنا بالأرض الخضراء ، فقمنا لا نألو جهدا ، ووقفنا بجانب الإندونيسيين حتى حققوا أمانهم .

وقل مثل هذا عن جميع الأقطار الاسلامية ، فحينما أرسلت بريطانيا فرقة هندية لتقاوم حركة استقلال اندونيسيا ثار زعماء الهند المسلمون مما اضطر بريطانيا لسحب القوات الهندية من اندونيسيا وذلك في فبراير سنة ١٩٤٦ •

وفي حركة تونس والمغرب كانت الدول الاسلامية تقدم للمكافحين هناك من العون صنوفا وألوانا ، وقد ملأت فرنسا الدنيا صراخا من المساعدات التي قدّمها المصريون للمجاهدين المسلمين في الجزائر إبان حرب التحرير الجزائرية (١) •

وفي حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ حين اندفعت القوات المصرية تدمر العدو الصهيوني وتقتحم قناة السويس وتحطم خط بارليف • هبّ المسلمون في كل مكان يحيثون القوات المنتصرة ويؤيدونها ، وما إن توقفت الحرب بتدخل مجلس الأمن حتى عقد مؤتمر لاهور الاسلامي في مارس ١٩٧٤ ، واتخذ المجتمعون قرارا حاسما بضرورة انسحاب العدو الصهيوني من الأرض العربية التي احتلها في عدوان ١٩٦٧ ، وبضرورة إعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه ، وتحرير القدس لتبقى عربية اسلامية عبر الزمان •

وإذا تركنا الحركات العامة وجدنا الحركات الفردية شاهدا قويا على قوة الارتباط بين المسلمين مهما اختلفت ديارهم وبعدت أقطارهم • يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام : نزلت في جبال الأرنؤوط بألبانيا ، ولا عهد لي بها ، ولا معرفة لأحد من أهلها ، فلمحت اسما اسلاميا على دكان فقدمت نفسي الى صاحبه ، وكأنا كنا على موعد رغم أن حديثنا كان بالاشارة ، وما لبث أن جاء لي بفتحة يعرف قليلا من العربية فتفاهمنا ،

(١) اقرأ خطاب السيد أحمد بن بيلا الذي يصور هذه المساعدات في الجزء الرابع من « موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » للمؤلف •

وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كله ، وتنقلت بعد ذلك في البلاد والناس
يوصى بعضهم بعضا بى ، ولو كنت بين أهلى ما وجدت منهم حبا أكثر مما
أوجدته لى الأخوة الاسلامية فى تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب ابلقان ،
بل انى لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لى فى كل بلد من يعرف العربية ومن
يلازمى لخدمتى ومعاونتى (١) .

وفى طهران عاصمة ايران يركب موظف مصرى سيارة (تاكسى) من
بيته الى السفارة ، وهناك يرفض السائق أن يتناول أجرا من المصرى
ويقول له : دعنى أكرم فى بلادى أبا فى الدين والآمال (٢) .

وفى احدى الجامعات الاسلامية الا . نيسية التقيت بوفد من مسلمى
الصين جاء لزيارة اندونيسيا ، وما ان التقينا حتى شدنا كل منا على يد
صاحبه وأمس الصينى والاندونيسى والمصرى أن هناك رباطا قويا يربط
بينهم ، رباطا روحيا أسمى من كل رباط . وأذكر أنه طلب منى أن القى
خطابا فى هذا الاجتماع فتحدثت وشرحت الأحاسيس الطيبة التى تسود
اجتماعنا وتسيطر علينا . وقارنت ذلك باجتماعات هيئة الأمم المتحدة حيث
الفرقة . والنفور ، وحيث لا رباط بين المجتمعين الا كلمات جعلوها دستورا
ثم أهملوها أو مزقوها .

وحسبك أن تطوف العالم الاسلامى لترى أنك دائما بين أهل واخوان ،
ولتدرك أن شعوب المسلمين لا تعترف بالحدود الاقليمية التى صنعها
الاستعمار ليمزق بها الوطن الاسلامى الواحد .

وقبل أن أتحدث عن طبيعة الارتباط الذى نريده ونسعى لتحقيقه بين
دول العالم الاسلامى ، يجدر بى أن أوضح أن العصر الحديث أبرز لنا

(١) الرسالة الخالدة ص ٤٨ .
(٢) جريدة الجمهورية ١٩٥٦/٩/٦ .

الوانا من الروابط التى تقوم على أسس واهية اذا قيست بالأساس الذى يربط بين دول العالم الاسلامى ، فهناك مثلا حلف شمال الأطلنطى فوقوع بعض الدول على هذا المحيط كاف ليربط بينها وليوحد بين قوتها ، وهناك الدول الآسيوية الإفريقية التى يربط بينها وقوتها فى احدى هاتين القارتين ، ولا نزاع أن هذه الروابط ليست بشيء اذا قيست بالروابط المتعددة الجوانب التى يرتبط بها المسلمون فى العقائد والعادات والمعاملات والعبادات والآمال كما سبق القول .

ما المقصود بجامعة الدول الإسلامية ؟

والآن نحب أن نوضح : ما هى جامعة الدول الاسلامية التى ندعو اليها ؟

الجواب عندى أنها ليست الجامعة الاسلامية التى تحدثت الناس عنها من قبل ، انها ليست خلافة أو زعامة ، ولكنها شىء أسمى من هذا ، انها كما وصفها القرآن الكريم .

— إنما المؤمنون إخوة (١) .

— وإن هذه أمتكم أمة واحدة (٢) .

أو قل انها وضع أحاسيس المسلمين فى دستور يتسبح ويهتدى به ، أنها ارتباط فى الآلام والسرور ، فى الغنى والفقير ، فى الحرمان والوجدان ، فى الشدة والرخاء ، أنها رابطة تسخر من أن يظل المسلمون على صلة بالولايات المتحدة وهى تؤيد إسرائيل فى عدوانها اللئيم ، وتسخر من أن يتفرق المسلمون شيعة وأحزابا حتى يتخطفهم العدو ، إنها رابطة تدعو الى وضع أسس ثابتة نابعة من هدى الاسلام وأعماق الشعوب ، لتحقيق التعاون السياسى والتعاون الثقافى والتعاون الاقتصادى والتعاون الاجتماعى

(١) سورة الحجر الآية العاشرة .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

انها رابطة تسعى لتحقيق الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » •

وكيف يتم هذا الارتباط ؟ هل يتم عن طريق خلافة ديمقراطية ؟ هل يتم عن طريق انشاء اتحاد الدول الاسلامية أو جامعة الدول الاسلامية ؟ هل يتم عن طريق معاهدات سياسية واقتصادية وثقافية حية ترتبط بها هذه الدول ؟ انى لا أحب أن أخوض هنا في هذه الوسائل ولكنى أتطلع الى النتائج ، وأتطلع كما قات أنفا الى وضع هدى الاسلام وأحاسيس المسلمين في دستور يتبع ويتهتدى به ، والى ارتباط المسلمين في كافة بقاع الأرض ارتباطا يجمعهم في الشدة والرخاء ، والحرمان والخير ، والآلام والسرور •

إن القومية في العصر الحاضر قوية ، فالمصرى يجب بلاده والاندونيسى يجب بلاده ، وهكذا ، ونحن لا نحارب القومية بل نقويها ، فهى من أسس الاسلام ، فقد روى في الأثر : حب الوطن من الايمان ومن سبل تقويتها خلق ارتباط وثيق بين الدول الاسلامية يضمن السلامة والرقى لها جميعا يتمتع فيه المسلمون بأخوة صادقة وتعاون عميق ، ويتمتع فيه غير المسلمين بالحقوق الواسعة التى كفلها الاسلام لهم ، والتى نعم بها غير المسلمين في المجتمع الاسلامى في عصره الزاهر •

فاذا أخذ المسلمون بهذه الأسس الإصلاحية حققوا للمجتمع الاسلامى ما تصبو له نفوس المسلمين من رقى وسؤدد •

والله ولى التوفيق •

ثبتت المراجع

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — كتب التفسير .
- ٣ — كتب الأحاديث الستة .
- ٤ — مجموعة من كتب الفقه .
- ٥ — الأناجيل الأربعة .
- ٦ — Encyclopaedia of Islam
- ٧ — Encyclopaedia Britannica
- ٨ — دستور الجمهوريات السوفيتية .
- ٩ — وثائق ومعاهدات بين دول الغرب والدول الإسلامية .
- ١٠ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
- ١١ — أحمد أمين : زعماء الإصلاح .
- ١٢ — أحمد أمين : فجر الإسلام .
- ١٣ — أحمد أمين : ضحى الإسلام .
- ١٤ — أحمد أمين : ظهر الإسلام .
- ١٥ — أحمد أمين : الشرق والغرب .
- ١٦ — أحمد أمين : يوم الإسلام .
- ١٧ — أحمد تيمور : نظرة تاريخية في المذاهب الأربعة وانتشارها .
- ١٨ — أحمد زكى صفوت : عمر بن عبد العزيز .
- ١٩ — دكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (١٠ أجزاء) .
- ٢٠ — دكتور أحمد شلبى : السياسة في الفكر الإسلامى والاقتصاد في الفكر الإسلامى .
- ٢١ — دكتور أحمد شلبى : التربية الإسلامية .
- ٢٢ — دكتور أحمد شلبى : الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره .
- ٢٣ — دكتور أحمد شلبى : مقارنة الأديان (٤ أجزاء) .
- ٢٤ — أحمد ميرزا (مؤسس الأحمديّة) : الاستفتاء .
- ٢٥ — أحمد ميرزا (مؤسس الأحمديّة) : فلسفة الأصول الإسلامية .
- ٢٦ — أحمد ميرزا (مؤسس الأحمديّة) : تحفة البغداد .
- ٢٧ — الأصفهاني : الأغاني .

- ٢٨ — ابن ابي اصيبعة : عيون الأنبياء .
- ٢٩ — أنور السادات : نحو بعث جديد .
- ٣٠ — بشير الدين محمود أحمد : دعوة الأحمديّة و غرضها .
- ٣١ — بشير الدين محمود أحمد : What is Ahmadyyah :
- ٣٢ — Browne : A Literary History of Persia :
- ٣٣ — البلاذري : فتوح البلدان .
- ٣٤ — البغدادي : الفرق بين الفرق .
- ٣٥ — بهاء الدين العاملي : الكشكول .
- ٣٦ — ابن تيمية : السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية .
- ٣٧ — ابن تيمية : الحسبة .
- ٣٨ — Thomas Arnold and Guillume : The Legacy of Islam :
- ٣٩ — الجاحظ : كتاب التاج في اخلاق الملوك .
- ٤٠ — الجاحظ : البيان والتبيين .
- ٤١ — Gibb : Muhammadanism :
- ٤٢ — الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .
- ٤٣ — Goldzihar : مذاهب التفسير الاسلامي (ترجمة الدكتور النجار) .
- ٤٤ — الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب .
- ٤٥ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي .
- ٤٦ — حاجى خليفة : كشف الظنون .
- ٤٧ — ابن الحاج : المدخل .
- ٤٨ — ابن حجر الهيتمي : تحفة المحتاج بشرح المنهاج .
- ٤٩ — ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة .
- ٥٠ — حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين .
- ٥١ — ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق .
- ٥٢ — ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة .
- ٥٣ — ابن حزم : الفصل في الملل والنحل .
- ٥٤ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي .
- ٥٥ — ابن حزم الأندلسي : المحلى .
- ٥٦ — ابن التوحيدى : الامتاع والمؤانسة .
- ٥٧ — ابن التوحيدى : الصداقة والسدوق .

- ٥٨ — ابو حيان التوحيدى : المقابسات .
- ٥٩ — الخضرى : تاريخ الأمم الاسلاميه .
- ٦٠ — الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامى .
- ٦١ — الخضرى : اصول الفقه .
- ٦٢ — ابن خلدون : المقدمة .
- ٦٣ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر .
- ٦٤ — Dinson : Er tion as The Basis of Civilization
- ٦٥ — الذهبى : تاريخ الاسلام .
- ٦٦ — الراهب ميتشو : رحلة دينية فى الشرق .
- ٦٧ — السبكى : طبقات الشافعية الكبرى .
- ٦٨ — Stoward : حاضر العالم الاسلامى (ترجمة عجاج) .
- ٦٩ — سنيو : تاريخ العرب العمام (ترجمة عادل زعير) .
- ٧٠ — سعيد الأفغانى : عائشة والسياسة .
- ٧١ — Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens
- ٧٢ — سيد أبو الحسن على الحسنى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
- ٧٣ — السيد ماضى أبو العزائم : اسرار القرآن .
- ٧٤ — السيوطى : تاريخ الخلفاء .
- ٧٥ — السيوطى : تبييض الصحيفة فى مناقب ابى حنيفة .
- ٧٦ — الشرنوانى : حاشية الشرنوانى على التحفة .
- ٧٧ — شهاب الدين بن أحمد : المستطرف فى كل فن مستطرف .
- ٧٨ — الشيرازى : نهاية الرتبة .
- ٧٩ — الصابى : تحفة الوزراء .
- ٨٠ — صلاح الدين النجد : خطط دمشق .
- ٨١ — ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية .
- ٨٢ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .
- ٨٣ — دكتور طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان — على وبنوه) .
- ٨٤ — أبو الطيب محمد : الموشى .
- ٨٥ — ابن عبد البر : ادب المجالسة (مخطوط بدار الكتب ١٣٣ مجاميع م) .
- ٨٦ — ابن عبد ربه : العقد الفريد .

- ٨٧ — ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز .
٨٨ — ابن العبري : تاريخ مختصر الدول .
٨٩ — ابن العربي : احكام القرآن .
٩٠ — عبد الرحمن الخثعمي : الروض الأنف .
٩١ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة .
٩٢ — عفيف طيارة : روح الدين الاسلامي .
٩٣ — دكتور على النشار : شهداء الاسلام في عهد النبوة .
٩٤ — عبد المتعال الصعيدي : السياسة الاسلامية في عهد النبوة .
٩٥ — ابن عساكر : تاريخ دمشق .
٩٦ — دكتور عمر فروخ : باكستان دولة مستعيش .
٩٧ — دكتور عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة .
٩٨ — عمر أبو النصر : على وعائذ أ .
٩٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية بن محمد .
١٠٠ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق .
١٠١ — عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .
١٠٢ — عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه .
١٠٣ — عباس محمود العقاد : الديمقراطية في الاسلام .
١٠٤ — غوستاف لوبون : حضارة العرب .
١٠٥ — الفزالي : احياء علوم الدين .
١٠٦ — الفزالي : الرسائل العشرة .
١٠٧ — الغزالي : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة .
١٠٨ — أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر .
١٠٩ — فريد رفاعي : عصر المأمون .
١١٠ — Philp Hitti : History of the Arabs .
١١١ — ابن قتيبة : عيون الأخبار .
١١٢ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة .
١١٣ — ابن قدامة : نبذة من كتاب الخراج .
١١٤ — القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد .
١١٥ — دكتور قهر الدين يونس : الانسانية .
١١٦ — ابن القيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين .
١١٧ — ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد .
١١٨ — كشاف : أدب الندم .

- ١٢٠ ... ابن الكلب : الأصنام .
 ١٢٠ — كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندري) .
 ١٢١ — Lane Poole : Muh. Dynasties .
 ١٢٢ -- الماوردي : الأحكام السلطانية .
 ١٢٣ — الماوردي : أدب الدنيا والدين .
 ١٢٤ — المبرد : الكامل .
 ١٢٥ — محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق .
 ١٢٦ — السيد محمد رشيد رضا : المنار (أعداد مختلفة) .
 ١٢٧ — السيد محمد رشيد رضا : يسم الاسلام .
 ١٢٨ — محمد حبيب أحمد : نبذة الشعوب الاسلامية .
 ١٢٩ — د. محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الاسلامية .
 ١٣٠ — د. محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج .
 ١٣١ — محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
 ١٣٢ — محمد عبده : رسالة التوحيد .
 ١٣٣ — محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام .
 ١٣٤ — محمد عبد الله عنان : تاريخ المؤامرات السياسية .
 ١٣٥ — محمد الغزالي : الاسلام والمناهج الاشتراكية .
 ١٣٦ — محمد صادق الصدر : الشيعة .
 ١٣٧ — محمد كرت على : الاسلام والحضارة العربية .
 ١٣٨ — الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة .
 ١٣٩ — ابن مكسويه : تهذيب الأخلاق .
 ١٤٠ — مصطفى الرافعي : اعجاز القرآن .
 ١٤١ — Macdonald : Muslim Theology .
 ١٤٢ — منير الحصني الحسيني : المودودي في الميزان .
 ١٤٢ — النسيبي : كتاب مطلب السؤل في غزوات الرسول (مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٧٩) .
 ١٤٤ — Nicholson : A Literary History of the Arabs .
 ١٤٥ — التور : تهذيب الأسماء .
 ١٤٦ — Hell : The Arab Civilization .
 ١٤٧ — ابن هشام : السيرة .
 ١٤٨ — دكتور هسكل : حياة محمد .

- | | |
|--------------------|------------------------------|
| • الصديق أبو بكر : | ١٤٩ — دكتور هيكل |
| • انفاروق عمر : | ١٥٠ — دكتور هيكل |
| • معجم البلدان : | ١٥١ — ياقوت |
| • معجم الانباء : | ١٥٢ — ياقوت |
| • متن المنهاج : | ١٥٣ — أبو زكريا يحيى النواوى |
| • الخراج : | ١٥٤ — يحيى بن آدم |
| • الخراج : | ١٥٥ — أبو يوسف |
| • معالم الهجرة : | ١٥٦ — يوسف عبد الرازق |

رقم الايداع ٧٢٥٩ لسنة ١٩٨٥
مطابع سجل العرب